

مِنْ لَدُنْهُ

اَنْتَ حَبِيبُ الْقُرْآنِ

رَبِّ الْعَالَمِينَ
الْشَيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ



الْمَدِينَةِ الْمَدِينَةِ

مكتبة
مؤمن قريش

www.muhammadqurish.com

مِنْ
اشْرَعْتَ الْقُلُوبَ

مِنْ لَنَا

أَشْجَعُ الْقَارِئِ

لِقَوْلِهِ

أَيْتَنَا الْعَظَمَى
الْشَّيْخِ مُحَمَّدٍ فِي بَيْتِ

الطَّبَعِ الْوَلَدِ



حقوق الطبع محفوظة ومسجلة

هويّة الكتاب

- الكتاب: من اشعة القرآن
- المؤلف: آية الله العظمى الشيخ محمد امين زين الدين رحمته الله
- الناشر: ابناء المؤلف
- الكميّة: ٢٥٠٠ نسخة
- الطبعة: الأولى
- سنة الطبع: ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م
- المطبعة: امير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك الأزمنة، ومدير الأكوان بالحكمة، وواسعها بالرحمة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، مبدئ الأشياء ومعيدها: مكوفها بعد العدم ووارثها بعد الفناء، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله المطهرين.

﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ، رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ .

ربنا إنما سمعنا منادياً ينادي للإيمان من فطرنا التي فطرتها بقدرتك وألممتها عرفانك، ومن عقولنا التي وهبتها برحمتك وأريتها برهانك، ومن رسلك التي أرسلتها بلطفك لتهدي بها بريتك، ومن كتبك التي أنزلتها بحكمتك لتوضح حججك وتير منهجك، ومن آياتك التي ملأت بها الكون، وعجائبك التي بثتها في الملكوت، ليراها كل ناظر فلا يشك، وليتأملها كل عاقل فلا يرتاب، وليستنطقها كل عقل فلا يمتري .. ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ربنا إنما سمعنا ينادي للإيمان من كل أولئك فآمنا،

وكل أولئك لطف منك ترشد به عبادك، وتهديهم نير الطريق، فثبتنا
على ذلك ما أحييتنا، ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك
رحمة إنك أنت الوهاب .

بين يدي الكتاب *

بسم الله وله الحمد

قبساتٌ من أنوار الإسلام، وبصائر من هدى قرآنه ، قبسها سماحة الإمام الشيخ الوالد (دام ظله)، وقدمها لأبنائه النجباء من طلائع المؤمنين، محاضرات وكلمات في مناسبات شتى وبحوثاً في بعض الكتب والمجلات. وكان من الطبيعي أن تختلف الموضوعات التي تناولها في هذه البحوث، وأن تتفاوت طرائق العرض لها وأن يتكرر تقدم بعضها وتختلف نواحي الاستعراض فيها.

فقد اختلفت المناسبات التي كتب سماحته لها هذه البحوث بين الدعوة الشخصية له من بعض أبنائه المؤمنين في أحد البلدان لإلقاء محاضرة حول موضوع معين شعروا بالحاجة إلى استيضاحه، والاحتفال الجماهيري في مولد أحد المعصومين (ع) أو وفاته، والتقدم لكتاب رغب إليه مؤلفه أن يقدم له بما يراه مناسباً للتقدم .. وهكذا .

(*) كتب هذا التقدم في حياة سماحة الشيخ، وقد حالت ظروف القاهرة دون طبع هذا الكتاب قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى يوم الأربعاء ٢٩ من شهر صفر ١٤١٩ هـ - المصادف ٢٤ حزيران ١٩٩٨ م ، عن ستة وثمانين عاماً .. إنا لله وإنا إليه راجعون.

واختلفت الأزمنة التي كتب سماحته فيها هذه البحوث بين العقد السابع من القرن الرابع عشر للهجرة النبوية الشريفة والعقد الأول من القرن الخامس عشر لها. واختلفت المستويات الثقافية للمقصودين بهذه البحوث بين الطلائع المتقدمة من المثقفين، وبسطاء الثقافة من القرويين ..

ولكن - ومع كل دواعي الاختلاف هذه وغيرها - تبقى للموضوعات المطروحة في هذه البحوث أهميتها الكبرى في حياة المسلم، ويبقى لمنهج سماحة الشيخ الإمام فيها أصالته التربوية المعهودة ويبقى لواسع علمه وعميق فكره، ويبقى لبانه الفريد فيها سحره وتأثيره المعروفان وهي العناصر المشتركة في جميع هذه البحوث والخطوط الجامعة لها .

وهذا ما حدا بي أن أدأب على جمعها من بين مسودّات مبعثرة كاد يعفّي على بعضها الزمن كما عفاً على غيرها من محاضرات سماحة الشيخ وكلماته وإجاباته حول مسائل مهمة أسف حتى هو (دام ظله) على ضياعها؛ إذ لم يكن يهتمّ بجمعها والمحافظة عليها، أو بالأحرى لم يكن يجد الوقت الكافي لاستنساخها قبل أن يرسلها إلى المعنيين بها .

وفي الختام أدعو الله - جلّت قدرته - لسَيّدي سماحة الشيخ الوالد مديد العمر، وموفور الصحة، ودوام الظل الوارف على رؤوس أبنائه المؤمنين، كما أدعوه - تعالى - لي وإخواني المؤمنين بالإخلاص له (سبحانه) في العمل، والمزيد من التبصّر لنهجه القويم، والإفادة من عطاء المخلصين من حملة هداه، والتوفيق في السعي لنيل رضاه إنه سميع الدعاء قريب مجيب .

عقيدة المعاد

رغبتم أن يكون حديثي إليكم عن المعاد في الإسلام .. عن هذه العقيدة التي ربطها القرآن في عديد من آياته الكريمة بعقيدة المبدأ ... بعقيدة الإيمان بالله (عز وجل).

وهذان الأصلان يشكلان البداية والنهاية من خط الحياة المستقيم، كما هما المبدأ والمنتهى من منهج الإسلام العظيم .

وأمر العقيدة أمر بالغ الخطورة، شديد الأثر في تلوين هذه الحياة، وما بعد هذه الحياة، وهو كذلك أمر تتوقف عليه النجاة من مخاوف ومعاطب منتظرة، فلا بد للإنسان أن يقف فيها موقفاً حازماً، يرضي العقل، ويرضي القلب، ويرضي الوجدان، ولا يسوغ له أن يجعل النظر فيها من نوافل الأمور، ومن ترف العقل الذي لا يضر جهله ولا يجب الإمعان فيه.. إنها مسألة هلكة ونجاة، ولا يجوز التسامح فيها بوجه من الوجوه:

قال المنجم والطبيب كلاهما:	لا تبعث الأجساد قلت: إليكما
إن صح قولكما فلست بهالك	أو صح قولي فالخسار عليكما

حتمية السؤال عن المبدأ والنهاية:

يفتح الإنسان بصره على نفسه -لأول عهده بالإدراك ولأول قدرته

على التفكير - يفتح بصره على نفسه.. على جسده: لحمه ودمه وعروقه وعصبه وقصبه وأجهزته وأنسجته. وعلى روحه: حياته وعقله وحواسه ومشاعره وغرائزه وقواه وطاقاته، وما يستطيع أن يعدده من أشياء وأجزائه.. .. يفتح بصره على نفسه وعلى إتقان الصنعة فيها، فيتحدث إلى نفسه : لقد وُجدت وكنت معدوماً -ولا ريب-، فمن الذي أوجدني؟ وإلى أي شيء تكون نهايتي؟

ثم يعمم نظره فيقول: والكون الذي يحيط بي من ناس وحيوان ونبات، والسماء التي تظّلنا والأرض التي تقلّنا، والأكوان الأخرى. والعوالم الفسيحة التي لا يزال العلم يكشف عنها، ويأتي في كل يوم بأمر جديد.. إنها موجودة.. فمن الذي أوجدها؟ وإلى أي شيء تكون نهايتها؟

وهكذا يرتبط في شعوره السؤال عن المبدأ بالسؤال عن النهاية. وأول شيء يسترعي الانتباه والملاحظة في هذا التساؤل، هي الطريقة التي يحدث بها، فهو يأتي بصورة حتمية. تفرض على الإنسان فرضاً من داخل أعماقه، ولا يستطيع التخلص منها ولا يستطيع التغافل، وإن بذل الجهد أن لا يلتفت وأن يتغافل.

ومن أجل ذلك كان هذا التساؤل عن بداية الكون عامّاً لا يفلت منه أحد مهما كانت ثقافته، ومهما كانت فطنته .. من أول متمذّن إلى أبسط بدائي في مجاهل الغابات، ومن أعظم فيلسوف مفكر إلى أصغر تلميذ متعلم. ومن أجل ذلك كان هذا التساؤل ملحّاً ملحّاً، يقضّ على الإنسان مضجعه، ويضايقه في أغلب حالاته، حتى يحصل على الجواب المقنع الذي

يطمئن إليه، خطأ كان الجواب أم صواباً، وحقاً كان التحليل أم باطلاً.
وهذا التساؤل.. التساؤل عن العلة الأولى لهذا الكون، هي الفكرة الوحيدة التي تأتي بهذه الطريقة الحتمية، ولا يشبهها فيها شيء من الفكر أبداً، فمن طبيعة الفكرة -أية فكرة كانت- أن يكون الذهن خالياً منها، غافلاً عنها، حتى يلفته إليها لاف وتثيرها مثير، ثم لا تضايق الإنسان بأكثر مما يطلبه العلم، أما هذه الفكرة على الخصوص فمثيرها ذاتي ينبع من داخل الإنسان، فلا بد من التوجّه، ولا بد من الالتفات، ثم لا هدوء ولا قرار إلا بالإجابة المقنعة كما قدّمنا.

دليل الفطرة

وهذه الطريقة الحتمية الملحة التي يحدث بها هذا التساؤل هي الركيزة الأولى للجواب.

إنها تشعر الإنسان شعوراً تلقائياً بحاجته الذاتية إلى علة كبرى مسيطرة. نعم، وهذه العلة الكبرى المسيطرة هي التي تفرض عليه بقوّتها، وبنفوذ سلطاتها أن يعلم فلا يجهل، وأن يلتفت فلا يغفل.

وقلت في بعض أحاديثي عن الإسلام وعن دلالة الفطرة على الله: (في أعمق الأعماق من نفس الإنسان يوجد الدليل على الله. بل والدليل الأول على توحيده، وتنزيهه، والحافز الذاتي للإنسان على التوجّه إليه.

(في أعمق الأعماق من نفس هذا المخلوق المفكر، حتى لو أنه أطبق عينيه عن عجائب الكون، وصرف فكره عن التأمل فيها والتدبّر في قوانينها.

(في فطرته حين يدع لها الحكم ويسند إليها الرأي.
(في فقره الذاتي وهو يشير إلى غنيٍّ مطلق يأمل منه الغنى، وفي نقصه الطبيعي وهو يتوجّه إلى كامل أعلى يرجو منه الكمال. وفي ضعفه الشديد وهو يتعلق بقويٍّ غالب يستمد منه القوة، وفي عجزه المتناهي وهو يلجأ إلى قادر قاهر يبتغي منه القدرة والنصرة، وبكلمة جامعة: في قصوره الذاتي من كل ناحية، وهو يتوجّه إلى قوة عليا كاملة من كل ناحية، متعالية عن الحدود مرتفعة عن الحاجة، تفيض الخير وتكفي السوء.

(بلى، وكل إنسان له ساعات لا يخادع فيها نفسه، أو هو لا يستطيع أن يخادعها .. ساعات تتعرى له فيها الحقائق، فيؤمن أنه لا يملك شيئاً مما في يديه، وإن يك أغنى الأغنياء، أو أقوى الأقوياء في مقاييس الناس^(١).
والفطرة -أيها الأعداء- لا تخادع في حكم، ولا تُلبس حقاً بباطل في هتاف ولانداء.

أرأيتم الفطرة لبست حقاً بباطل في يوم من الأيام، أو خادعت أحداً في حكمها، وهي تشعره بالجوع أو العطش أو الحر أو البرد أو إحدى الضرورات الطبيعية الأخرى؟

كلاً، كلاً، إنه نداء الضرورة، إنه نداء الواقع .. إنه نداء الحق، لامية فيه ولا لبس، ومن أجل ذلك لم يشك في تصديقها عقل.
والشعور بالقوة العليا المدبّرة، ضرورة طبيعية ذاتية كذلك، وشعور

الفطرة بها أعمق وأؤكد من شعورها بالضرورات الأخرى.
وحكم الفطرة يكون أشد وضوحاً، وأكثر جلاءً حين تلتحم على
الإنسان شدائد تقطع رجاءه من سائر الأسباب، وتفصله عن التفكير فيها.
هنا يشعر شعوراً واضحاً بسبب واحد قوي يشده إلى أعلى .. إلى القوة
الغيبية العظمى التي يوقن أن بيدها تقدير الأمور، وبأمرها تفريج الكرب
الشداد.

وقد أرشد القرآن الإنسان في عديد من آيه إلى هذا الشعور الذي
لا يكذب، قال (تعالى):

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ، وَجَرَيْنَ
بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ، وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ: لَنْ أَنْجِيَنَّ مِنْ
هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١) ﴾ .

وقد جلى معنى الفطرة تجلية كاملة، وذكر لزومها للإنسان في كل
حالاته، فلا تدعه يغفل عن دعوتها ولا يشغل، فقال:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى
أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى شَهِدْنَا؛ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِنَّا كُنَّا
عَنْ هَذَا غَافِلِينَ، أَوْ تَقُولُوا: إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ،

أَفْتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ؟ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ^(١)
 أسمعتم؟... إن الله (تعالى) جعل الفطرة لابن آدم ليشهد بها على نفسه،
 ليقيم عليه بها الحجة، وليدفع به إلى اليقين، فلا يعتذر بغفلة، أو بعدم بلوغ
 دعوة، أو بعدم اتضاح سبيل.
 ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

دليل السببية:

وجاء دور العقل الواعي ليتم دعوة الفطرة، ويجلو حكمها، ونظر في
 آيات التكوين.. في نفسه وفيما بين يديه.. فيما قرب منه وما بعد.. في عجائب
 النفس وعجائب الكون، وما في كل شيء إلا عجيبة تُدهش العقول، وتذهل
 الألباب:

﴿ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَافُوتٍ ۚ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۚ
 ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ^(٢) ﴾
 ونظّر وفكّر، وقلّب وقدر، وحكم بحكمه القاطع الذي لا يقبل
 التشكيك: أن كل شيء يمكن وجوده ويمكن عدمه فمن المحال أن يكون
 موجوداً دون سبب، وقرّره قانوناً لا يتخلف ولا يختلف، ولا يعرف الانتقاض
 أبداً، ولا الاستثناء، وسمّاه (قانون السببية).

وإذن، فكل هذه الأمور التي يراها، والأخرى التي لا يراها، أمور معلولة

١- الأعراف: ١٧٢

٢- الملك: ٤

لابدّ لها من سبب أعلى ينتهي إليه كل سبب، لأن هذه الأمور كلّها أشياء يمكن وجودها ويمكن عدمها، ولما وُجدت علمنا يقيناً أن لها سبباً آتاهما الوجود، لأن نسبة الوجود والعدم إليها -لولا ذلك السبب- على سواء. وإذن، فلا بد لهذا الكون من سبب أعلى هو موجود بذاته لابعلة سواه، لأن الدور والتسلسل من المحال.

إن الدور يعني أن يتقدم الشيء على نفسه في الوجود، لأنه يكون علّة لما هو علّة لوجوده، وهذا يعني أن الشيء متقدم في الوجود في حال يكون هو بذاته متأخراً فيها، متقدّم بما هو علّة ومتأخّر بما هو معلول وهو محال. وإن التسلسل يعني أن تذهب الممكنات متسلسلة إلى مالا نهاية له، وهو كذلك محال، لأن مجموع السلسلة كلّها -بما فيها من حلقات مترابطة سابقة ولاحقة-، مجموع هذه السلسلة شيء يمكن وجوده ويمكن عدمه فمن المحال أن يكون موجوداً بدون علّة أخرى من غير هذه السلسلة، لقانون السببية المتقدم.

ولاستحالة التسلسل براهين عديدة حسبنا أن نكتفي بهذا الواحد منها.

وقد ذكر القرآن قانون السببية، وحاكم الإنسان إليه، فقال:

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ، أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ، أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ^(١) ﴾ .

واعترف العلم بقانون السببية، وربط به كل كشوفاته وكل معلوماته

وسار على وفقه في جميع خطواته.

وتقدّم العلم خطوة كبرى في هذا السبيل، فأنكر أزلية المادة، للقانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية، فقال: إن المادة -بمقتضى هذا القانون- تسير نحو الفناء، نحو الصفر المطلق، وهذا يعني أنها محدودة الآخر، وإذا كانت المادة محدودة الآخر، فهي محدودة الأول كذلك؛ لأنها لو كانت أزلية غير محدودة الأول لكان مقتضى ذلك القانون أنها قد استوعبت طاقتها وفنت منذ أمد بعيد. وقد اعترف بهذه الحقيقة كثير من علماء الطبيعة الراسخين^(١). وشرح هذا القانون، وإيضاح النتيجة المذكورة التي توصل إليها العلم لايسعهما هذا الموقف.

من الذي أوجد الله؟

ويفكر بعض الناس تفكيراً ساذجاً ليردّ القول بالقول - على ما يزعم - .

يقول: إن قانون السببية الذي ذكرتموه يفيد: أن كل شيء موجود فمن المحال أن يكون موجوداً دون سبب، وإذن فلنا أن نسأل عمن أوجد الله، لأنه موجود، فيحتاج إلى سبب، بمقتضى قانون السببية.

وهذا قصرٌ في النظرة، وعدم استيعاب لمعنى قانون السببية، الذي لم يختلف فيه العقلاء من الناس.

إن العقل يقرر أن كل شيء يمكن وجوده ويمكن عدمه، فمن المحال أن

يوجد دون سبب، لأن نسبة الوجود والعدم إلى ذلك الشيء سواء بسواء، فلا يمكن أن يوجد دون علة، هذا هو قانون السببية، وهذا هو بحاله.

وهذا يعني أن الأشياء على نحوين:

شيء يمكن وجوده ويمكن عدمه، وهذا هو مجال قانون السببية.

وشيء يجب وجوده ويستحيل عدمه، وهذا يستغني بذاته عن العلة، لأننا فرضناه واجب الوجود مستحيل العدم، فكيف يعقل أن يكون غير موجود؟ وكيف يعقل أن يفتقر إلى علة؟

كما أن لنا أن نتصور شيئاً يجب عدمه ويستحيل وجوده، وهذا هو الممتنع الذي يستحيل له الوجود وتستحيل له العلة.

والله الكون واجب الوجود، مستحيل العدم فهو غني بذاته عن العلة، وكلّ هذا واضح أتمّ الوضوح .

وهكذا يتآزر الدين والعلم، والعقل والفطرة على إثبات حقيقة الحقائق، على إثبات وجود الله، منزل الدين، وملهم العلم، وفاطر العقل والفطرة وهي تتآزر جميعاً على توحيده وتنزيهه.

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ^(١) 》 .

والنهاية..؟

ومسألة النهاية ترتبط ارتباطاً ذاتياً قوياً بمسألة البداية.

فإذا كان مبدأ الكون هو الله (تعالى) فإنّ مآبَه - دون شك - إليه. فإنّ حكم الفطرة الذي أشعرنا بالقوّة العليا المدبّرة المسيطرة، وقانون السببية الذي دلّنا على وجود إله الكون وانفراده بالتدبير، وبراهين العقل التي أثبتت لنا توحيده وقدرته، وتنزّهه عن الشريك والمثيل.. كل هذه تدلنا على أنّ بيده الختام، كما أنّ بيده الابتداء، وبأمره السكون، كما أنّ بأمره الحركة.

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (١)﴾.

وإنّ الإبداع الذي صمّم عليه جميع أجزاء الكون، والحكمة التي تجلّت في كل صغيرة وكبيرة منه، والغرضية التي ظهرت في كل خلية يشتمل عليها الكائن الحيّ، من حيوان ونبات، وفي كل ذرة يحتويها الموجود من حيّ وجامد، ومتحرك وساكن، تدلّنا دلالة قطعيّة على أنّ هذه الحكمة لا يمكن أن تنتهي بالموت، وأنّ تتحدد بالفناء.

والمسألة مسألة قدرة وحكمة، فإذا استبنّا قدرة الله التي لاتحدّ، وحكمته التي لاتتناهى، انفسح أماننا الطريق، وزالت العقبات .

ضرورة الدين:

والمسألة - مع كل أولئك - مسألة عقيدة يقوم عليها دين .
فالإيمان بالله - سبحانه - يستتبع الإيمان بأن له ديناً يهتدي إليه

البشر أو يضلون .. بأن له شريعة يطيعها البشر أو يعصون.
إن الله حين خلق الأشياء جعل لكل شيء منها منهجاً وسنة، يلتزمها
ذلك الشيء فيصل بها إلى منزلته من التكامـل .

والإنسان بعض مخلوقاته، وقد كرمه فـمنحه الفكر الذي يُسيطر به على
قوى الطبيعة، ويسخر لإرادته الأشياء، ويستخدم لمصلحه ومنافعه قوانينها،
ومن الممتنع - بعد ذلك - أن يدعه يتخبط في متاهة عمياء، دون هداية،
ودون منهاج، ودون رادع أو وازع.

إن ذلك تحدُّ للحكمة التي تجلّت في جميع أجزاء الكون، وفي خلق
الإنسان على الخصوص.

وإنه مسخّ للإبداع الذي بانـت مظهره في كل الأشياء وفي تصوير
الإنسان على الخصوص.

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ^(١) 》.

﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ^(٢) 》 .

والحقّ الذي وسع السماوات والأرض أعظم من أن تضيق سعته عند
الإنسان وحده.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ، مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا
بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ^(٣) 》 .

١_ المؤمنون : ١١٥

٢_ القيامة: ٣٦ .

٣_ الدخان: ٣٩ .

إن الإيمان بالله يستتبع الإيمان بأن له ديناً يهتدي إليه البشر أو يضلّون..
 بأن له شريعة يطيعها البشر أو يعصون، وكل ذلك واضح من مسيرة الكون.
 وإذا كان لله دين وهداية، انقسم الناس - دون شك - إلى مطيعين
 وعاصين، ومهتدين وغاوين، واحتاج القانون إلى الجزاء، واحتاج إلى
 موعد يتعين فيه المطيع ويتعين جزاؤه، ويتعين فيه العاصي ويتعين جزاؤه،
 وينفذ الحكم على الفريقين.
 احتاج إلى كل أولئك وإلا كان عبثاً من العبث، أو خيلاً من الخيال،
 وتنزّه عنهما ذو الجلال.

الحاجة إلى اليوم الآخر:

وهذه الحياة ليست داراً للجزاء - ولأريب - .
 فطالما تهادى المعتدي، وأكبّ الآثم، ومضى الزمان ولم ينال شيئاً من
 الجزاء. وطالما أوفى المحسن، وأخلص المطيع، ومضى العمر ولم ينال شيئاً من
 الجزاء، وإذن فالجزاء في غير هذه الدار، وإلا حالت الحكمة، واستحالت
 النتيجة.

والمسألة مسألة قدرة وحكمة - كما قلت -، فإذا استبنا قدرة الله التي
 لاتحدّ، وحكمته التي لاتتناهى، انفسح أمامنا الطريق وزالت العقبات.
 والعقل إذا آمن بالله، وآمن بدينه، وصدّق بقدرته وحكمته، صدّق
 باليوم الآخر، وأيقن بالجزاء فيه.

والجزاء ضرورة لابد منها للقانون وفرض احترامه. وقد قلت في بعض

أحاديثي عن المعاد: (ما أبعد القوانين من غاياتها إذا لم تكلاًها عين حارسة على التنفيذ، وعقوبة محذورة على المخالفة !

(ما أبعد القوانين عن غاياتها إذا لم تكن لها تلك الرقابة الحازمة من بين يديها، وهذه القوة المرهوبة من خلفها!! إن أحكامها -لولا هاتان- ستقلب نصائح خاوية، وإن حكمتها ستتحول فلسفة صامتة، وكم في العالمين من يؤمن بالمثالية للمثالية، ومن يحذر الإسفاف لأنه إسفاف؟

(نعم، لابد لاحترام القانون من الجزاء..

(ولابد للحث على عمل الصالحات من المكافأة..

(ثم لا يحصى من يوم للدينونة تقاس فيه الأعمال، وتُنال فيه الغايات، وتستوفى فيه التبعات.

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾^(١).

من أدلة المعاد في القرآن:

وقد استعمل القرآن في الاستدلال على هذه العقيدة عدة طرائق:

فمنها دليل الغاية..

الغاية التي بها يفترق الفعل الحكيم عن الفعل العاثر .

وخلاصة هذا الدليل: أن الإنسان ينظر في أشياء هذا الكون.. كلها.. الكبير منها والصغير، فلا يرى إلا شيئاً يتوجّه في سبيل معين إلى غاية.

﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ^(١) ﴾

وليس من الممكن أن يُستثنى الإنسان وحده من هذه القاعدة.

﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ^(٢) ﴾.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ، وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ، أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ^(٣) ﴾.

ومنها دليل القدرة المسيطرة التي خضعت لها الكائنات، والتي تعالت على الحدود والأزمنة والأمكنة، والجهات والحيثيات.

وليس من الممكن مطلقاً أن تعجز هذه القدرة المهيمنة عن إعادة بعد ابتداء، وعن حياة بعد موت.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى؟ بَلَى، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ^(٤) ﴾.

ومنها دليل النشأة الأولى..

١- الأحقاف: ٣

٢- القيامة: ٣٦.

٣- ص: ٢٦ - ٢٨

٤- الأحقاف: ٣٣.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ^(١) ﴾.

خلية ملقحة موحدة تنقسم وتتكاثر وتتصّف، وينصرف كل صنف منها لعمله الذي يخصّه، وغرضه الذي يهّمه، وتوزع بناء الهيكل وبناء الأجهزة، ويتمّ التصميم، وتنقل في أطوارها وأدوارها، تصرفها القدرة ويلهمها العلم وتوجّهها الحكمة، ويستقيم الهيكل، ويتمّ البناء، وتنفخ الروح، ويخرج إنساناً سوياً كامل الموائز والغرائز والمواهب والطاقات.

إن أمر الابتداء أعظم من أمر الإعادة، فهل يستكثر على المهندس أن يعيد ما بناه إذا استهدم؟

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ، وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ: مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ؟ قُلْ: يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ^(٢) ﴾.

ومنها إعادة الأرض حية بعد الهمود والجمود.

إن الأرض تموت كما يموت الإنسان، وتُمدد كما يمدد.. فلا حركة، ولانبئة، ولازهرة، ولاثمرة. ثم يجدّ العطاء، وتجّد الروح، وتنتعش الأرض بعد الموت. أليس هذا من البعث بعد الموت؟

١- المؤمنون: ١٤.

٢- يس: ٧٧.

﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُتْبِتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ^(١) ۝ ﴾.

إلى طرائق كثيرة استعملها القرآن للتدليل على هذه العقيدة، وكلها عطاء، وكلها إشراق، وكلها إيضاح.

مواقف بلهاء ومعاندة:

واتخذ بعض الناس من هذه العقيدة موقف الأبله الذي لا يعي ما يقال. واتخذ بعضهم موقف المعاند الذي لا يلد له إلا أن ينكر، ودليله على ما يقول هو الاستبعاد.

﴿ إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ؟ ^(٢) ۝ ﴾.

﴿ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ؟ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ. إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ^(٣) ۝ ﴾.

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ، فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ^(٤) ۝ ﴾.

١- الحج: ٦.

٢- السجدة: ١٠.

٣- المؤمنون: ٨٣.

٤- الدخان: ٣٥.

بهذا الاحتجاج الأبله، وبهذا التفكير الساذج يستقبل هؤلاء هذه العقيدة الخطيرة، وتلك الاستدلالات المشرقة من القرآن الكريم، والإنسان غريب الأطوار والأحوال.

القرآن والتذكير بيوم الجزاء:

وقد أطل القرآن في تذكير الإنسان بيوم الجزاء، وفي عرض مشاهدته، ووصف شدائده وتفصيل أحواله.

وإنّ السّالي لكتاب الله، المتبين لمرامي آياته، يجد أنه قد ربط تعاليمه كافة بهذه العقيدة. حتى أوشك أن لا يُغفل ذكرها عند حكم، وأن لا يدع التصريح بها أو التلميح إليها في توجيه أو وصية أو إرشاد.

وهو يحذّر الإنسان أهوال يوم البعث، ويُنذره فزعه، ويخوّفه عدله^(١).

وقد سمّاه بأسماء كثيرة تستحضر معنى الهول والشدة^(٢).

١- يُقرأ أمثال قوله (تعالى): ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَاتَخْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾. (البقرة: ٤٨).

وقوله تعالى: ﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا، لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَنَّ لَنَا نَحْنُ لَكُمْ مَوْعِدًا، وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٤٩-٥٠).

٢- إذ سمّاه يوم الدين في سورة الفاتحة - الآية: ٣، وسمّاه يوم الحسرة في سورة مريم - الآية: ٣٩، وسمّاه الواقعة في سورة الواقعة الآية الأولى، ويوم التغابن في سورة التغابن - الآية: ٩، والحاقة في سورة الحاقة

وهو يصوّر المواقف المرعبة ليوم الفصل، ويعرض المشاهد المخيفة التي تنتظر الإنسان فيه، والنهايات المسعدة أو المخزية التي تعقبه^(١).

وهو يهزّ المشاعر المختلفة، ويكشف للبصيرة ما ينتظرها من عاقبة مسّرة، أو مغبّة مُحزنة. ويحذّره الغفلة ويخوّفه النكسة، وما يكون له أن يغفل، وما يكون له أن يهزل، وما يكون له أن ينتكس، وقد عرف أسباب ذلك وعواقبه، وما يكون له أن يتردّي، فكل عمل عليه رقابة، وكل عمل عليه جزاء.

﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ^(٢) ﴾ .

﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ^(٣) ﴾ .

- الآية: ١، والقارعة في سورة القارعة - الآية: ١، والطامة الكبرى في سورة النازعات - الآية: ٣٤، والصاخّة في سورة عبس - الآية: ٣٣، والغاشية في الآية الأولى من سورة الغاشية - إلى غيرها من الأسماء.

١- إذ يقول مثلاً - في سورة الحج - الآية ١: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ، يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾.

ويقول في سورة إبراهيم - الآيات (٤٢-٤٣، ٤٨-٥٠): ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ. مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَنْفِذَتُهُمْ هَوَاءً ... يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ، وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ. وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ. سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾. إلى غير هذه السياقات الكريمة.

وحتى ما تنطوي عليه الجوارح، عليه رقيب لا يجهل ولا يغفل،
وحسب لا يضلل ولا ينسى، ومُجازٍ لا يحيف ولا يُخادع.

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، أَلَا يَعْلَمُ مَنْ
خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ^(١)﴾ .

وبعد كل هذا، فعون الله ورحمته ورأفته ومغفرته تقيل العاثر، وتقبل
النادم، وتجيب المضطر، وتؤمن الخائف، وتقوي الضعيف، وتونس
المستوحش.

هكذا يشد القرآن أزر المسلم، ويُمسك بعضده، ويسدّد خطاه، ويقيه
المزالق. فلا يدع للغفلة عليه سبيلاً، ولا يترك للضعف والالئس على إرادته
دليلاً، وهذه بعض مرامي الأدلة الغفيرة التي حثّت على تلاوة الكتاب والتدبر
في آياته.

إن المسلم لمن يغفل، ولن يجهل، ولن يخور، ولن يذل، فكتاب الله
قائده، وسائقه. يُرشدّه في كل خطوة، ويسدّده عن أي كبوة. ومن الله أتمنى
لكم ولي التوفيق لأن نجعل من أنفسنا مثال المسلم الصحيح.

مشكلة الكون

كنت تعرضت لمشكلة الكون في حديث ألقيته سابقاً حول المبدأ والمعاد، أجملت فيه القول عن المشكلة، ووقفت فيه وقفة الناقد، السريع العرض، المجمل النقد، وقد كان ذلك مني استجابة لوحدة الموقف وقصره، وتعدّد أنحاء البحث فيه، ووجدت من حسن تقبّل مستمعي الحديث، وبالغ إقبالهم وتقديرهم، وطلب بعض الأحبة أن أعود للمشكلة مرة ثانية، فأبسط القول بعض البسط، بما يحتمله الموقف الواحد القصير أيضاً، وضمّ موقف إلى موقف، وقصير إلى قصير، سيكون أوفر استيعاباً -ولاشك-، وأكثر تسليطاً للنور على مواضع النقد، وخصوصاً إذا كان موضوع الحديث في هذه المرة خاصاً في مشكلة الكون لا يشمل سواها.

الفكرة السوفسطائية:

وأول مهزلة يأتي بها العقل البشري في هذا السبيل هي فكرة السوفسطائيين.

فكرة إنكار ما في الكون من حقيقة، فلا وجود، ولا مادّة، ولا طبيعة، ولا سماء، ولا أرض، ولا إنسان، ولا حيوان، ولا نبات، ولا .. ولا ..
لا شيء أبداً أبداً، وإنما هي صور ترسم في الأذهان.. صور وهميّة غير

مادية يختلقها الذهن، ولا تخضع لما تخضع له المادة من طرق علمية توجب اليقين.

هذا هو كل ما نستطيع أن نعرفه عن الكون.. وهمٌ خالص، ولا طريق لنا إلى معرفة الكون سواء، فكيف نثبت حقيقة الكون ؟!

ولست أدري هل يسري الأمر إلى أبعد من ذلك أم لا؟!

فهل ينكر (سير جيمس جينز) -رأس السوفسطائيين المعروف- وجود نفسه ؟ وهل يفتقر في معرفة ذاته إلى صورة ذهنية، ليقول عنها: إنها وهمية غير مادية، لا تخضع لما تخضع له المادة من طرق علمية تُوجب اليقين ؟ إن معرفة الإنسان ذاته -أيها الأعزاء- لا تفتقر إلى صورة ذهنية، وعلم الإنسان بذاته حضوري كما يحسّه كل أحد .

إن معرفتي بوجود غيري من الأشياء والأحياء تفتقر إلى صورة يرسمها ذهني لذلك الشيء الذي أريد معرفته، لأن الأشياء لا يمكن أن تكون في الذهن بذواتها، وإنما ترتسم فيه صورها، أما معرفتي بوجودي أنا، فهي نفس حضور ذاتي لذاتي، فأنا معلوم لنفسي بالذات لا بالصورة، لأن العالم هنا عين المعلوم، وهذا الأمر واضح جداً لا يقبل المناقشة.

وإذا علم الإنسان بذاته كان للكون حقيقة ما، تكون منطلقاً للبحث، وهي كافية لإبطال فكرة السوفسطائيين.

على أن الإنسان إذا لم يستطع حتى معرفة نفسه إلا بالصورة الذهنية، وكان كسائر مظاهر الكون وهماً لا حقيقة له -كما يدّعون-، كانت تصوراته وأحكامه وأفكاره وهماً من الأوهام كذلك، لأنها من آثاره وتوابعه،

ولذلك فيصحّ لنا أن نحكم حكماً قاطعاً بأن قول السوفسطائيين بنفي حقيقة الكون إنما هو وَهْمٌ من الأوهام لأنه من آثارهم، وأثر الوهم وَهْمٌ - بلا ريب-، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، فإنّ معرفتنا بقولهم إنما هي صورة ترتسم في الأذهان، وهي وهمية غير مادية، لا تخضع لما تخضع له المادة من طرق علمية توجب اليقين، ولا طريق لنا إلى معرفته سوى ذلك - كما يقولون عن الكون سواء بسواء -، فهو وَهْمٌ لا يمكن التعويل عليه.

إن هذا القول شبهة في مقابل البداهة - كما يقول القدماء - والمشكلة التي يعانيتها هؤلاء هي مشكلة إنكار الأوليات والبدّهيات التي يملكها العقل، ويجعلها أساساً لمعرفته الأشياء، وهي شيء لا يعتني به العقل الحصيف . وهذا القول مثال واضح لإسفاف الفكر البشري حين يركب رأسه، ويترك أسسه وأوليّاته، ويسير خابطاً على غير هدى.

مع قانون السببية:

وحين يترك الإنسان هذه البؤرة، ويرتفع بنفسه عن هذه الحطة، ويفتح بصره على النور، يحسّ إحساساً هو فوق الشكوك والشبهات، أنه في كون فسيح عجيب، يعج بالبدائع ويزدحم بالمدهشات، أقربه منه نفسه -إذا صحّ منّا هذا التعبير- وأبعده منه هذه العوالم المترامية التي يحيط بها هذا الفضاء العظيم. وإذا كانت شمسنا هذه بقدر الأرض مليون مرة - كما يقول العلم- فما شأن النجوم الأخرى التي يقدّر بعضها بقدر

الشمس أربعمائة مرة كالشعرى اليمانية، ويقدر بعضها بقدر الشمس
ألفي مرة كسهيل!!؟

ثم ما شأن المجرات التي ليست هذه النجوم الضخمة إلاّ نقطاً صغيرة في
بناء هيكلها!!؟

ثم ما شأن الفضاء الذي يعوم فيه مائة مليون مجرة، وكل مجرة تحوي
مائة مليون نجم - عدا الكواكب والتوابع - وهي لا تشغل منه إلاّ كما تشغل
السفن الصغيرة القليلة من المحيط اللّحي العظيم، على فارق كبير جداً بين
المحيطين!!؟

إن العلم ليكتشف ويكتشف ويكتشف، وسيبقى يكتشف إلى آخر
أيامه، ثم لا يُبصر حدّاً تنتهي إليه عجائب هذا الفضاء العظيم.

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ - لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (١) ﴾.

أحسّ الإنسان بذلك إحساساً لا يقبل الشك، وعلم به حقّ العلم،
وارتقى يستزيد من الإحساس ويستزيد من العلم، ووقف بفكره عند النقطة
الأولى التي ابتدأ منها هذا الوجود.

إنه لا يستطيع أن يصدّق أبداً أن يكون هذا الوجود كلّ مسبوqاً بالعدم
الشامل، إن البداهة الفكرية تقول له بصراحتهما: لاشيء يحدث من لا شيء ،
وكيف يمكن أن يحدث وجود ولم يكن قبله وجود يتولّد منه، أو يحدث بتأثيره؟
إن العدم لا يلد وجوداً ولا يؤثر فيه، وهذه بديهة من البداهة.

أما أن يكون هذا الشيء الموجود الحادث بعد العدم قد أوجد نفسه بنفسه، فهو أشد استحالة وامتناعاً، لأنه يعني أن الشيء كان موجوداً قبل أن يوجد، ليصح أن يكون مُوجداً لنفسه، فإن المعدوم لا يمكن أن يكون مؤثراً، ثم هو يجب أن يكون معدوماً في ذلك الآن ليتمكن له أن يتلقى الوجود من ذاته، فإن إيجاد ما هو موجود من تحصيل ماهو حاصل، وذلك محال..

وقف به التفكير عند بداية هذا الوجود، يلحّ ويلحف في التساؤل، إلحاحاً وإلحافاً ما عليهما من مزيد، ولو أنه التفت إلى ركيزة الإيمان من فطرته، أو إلى ركائز البرهان في فكرته، لاختصرا له الطريق، ووفّرا له الجهد، ولاستبان له النور الذي يُبصر به العالم، ولم يتحير، ولم يتردد، أو لم تَطُل حيرته وتردّده -على أدنى التقادير- .

مع الفطرة:

والفطرة هي نداء الخلقة في الإنسان.. في شعوره، وفي وجدانه، وفي عقله. هي نداء الحاجة الذاتية في كل معلول إلى علته التي تسدّ له الحاجة، وتُفيض عليه الوجود بعد العدم، والكمال بعد النقص. .. إن لكلّ معلول حاجة ذاتية تشدّه إلى علته، وتعقد كيانه بها، وتحوّل وجهه إليها أتى كان، وأتى توجهه، هي فاقة الشيء إلى مصدر وجوده، ومصدر كماله بعد أن يوجد، ومصدر تدبيره ومدّه بالطاقة والنشاط طوال حياته وبقائه.

وهذه الحاجة الذاتية في المعلول، وهذا التوجه الطبيعي بوجهه شطر

علته، هما سرّ الدلالة الطبيعية الفطرية للمعلول على العلة، والأشياء كلّها مشتركة في هذه الحاجة، وفي هذه الدلالة، أو في هذا الاعتراف الطبيعي بالحقّ.

والأمر الذي يختصّ به الإنسان في هذا المجال -دون غيره من الأشياء والموجودات- أن الإنسان كائن ملؤه الشعور، والشعور الكامل والتفكير من المميزات الأصيلة لإنسانيته، أوها من المقومات لها. ونتيجة لذلك فلا بدّ له من الشعور الكامل بحاجته الذاتية إلى علته، ولا بدّ له من الشعور الكامل بتوجهه نحوها.

وقوة الشعور في الإنسان، وقوة العقل بذاتهما من الهبات الموجودة بعطاء العلة وتأثيرها، فهما كذلك شاعرتان بحاجتهما الذاتية، وبانقطاعهما إلى العلة الموجودة، وأخيراً فهما معترفتان بها اعترافاً طبيعياً يؤمنان به في قرارتيهما، وقد ينكرانه تحت تأثير التقاليد والأهواء.

هذه الفطرة التي أرجع الله (جل وعلا) الإنسان إلى حكمها في كثير من آيات الكتاب العزيز، أرجع الله الإنسان إلى حكمها عند وقوعه في الشدائد، وعلوقه في حبال القدر، فإن هذه المآزق ترجع الفطرة إلى سلامتها وتنفض عنها غبار المؤثرات.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً^(١)﴾.

ولا أطيل في التحدّث عنها ولكني أشير إلى سرّ هذه الركيّة، وإلى

أهمية وجودها في بناء الإيمان.

مبدأ الغرضية:

وقانون السببية وهو الآخر كنت قد وقفت عليه في حديثي السابق عن المبدأ والمعاد ، وتحدثت عن معناه وعن مجاله، فلا أعيد، ولكنني أودّ أن أشير إلى دخالة هذه الركيزة الطبيعية في بناء الإنسان.

إن علم الأجنة يحدثنا -وهو الخبر العليم بصدق ما يقول-: إن الحوين المنوي المذكر يندفع بنشاط وقصد في طلب بويضة الأنثى، يشق إليها طريقه المعنت الطويل، وإن بويضة الأنثى قد تدنت في انتظاره ونهأت لملاقاته، فكلاهما قاصدان، والفارق ما بينهما في ذلك هو الفارق بين الموجب والسالب، اللذين تتألف منهما الشحنة الكهربائية الموحدة، فالموجب طالب، والسالب مطلوب في الأكثر.

ويقتربان فينشط كل واحد منهما بالطول لا بالعرض ، وتنشط كل جزئياته ومحتوياته وكروموسوماته، فيلقي منها نصفاً، ويلتقي النصف الباقي من خلية الذكورة بالنصف الباقي من خلية الأنوثة قاصدين، فيكون الاتحاد ويكون التلقيح. وتنشأ الخلية الملقحة الموحدة، ثم تبدأ طريقها بالتكاثر عن سبيل الانقسام، فتصبح الخلية الواحدة خليتين، ثم تكون الشنتان أربعاً، والأربع ثمان، وهكذا في سبيل محدّد مسرّ، فكل خلية تسير في سبيلها لاتعدوه.

ثم تصنف الخلايا أصنافاً، وتوزع أعمالها توزيعاً، ويختصّ كل صنف في بناء

ناحية أو جهاز أو جراحة من الجسم لا يعدوه إلى سواه، حتى أن الخلايا المنصرفة إلى تكوين العين -مثلاً- لا يمكن أن تصنع إلاّ عيناً، وإن نقلناها إلى غير موضعها الطبيعي من الجسم، وكذلك الخلايا الموكلة بصنع الأذن أو اليد أو الرجل، هن قولة علم الأجنة الحديث، يقولها دون شك ولا تحفظ.

ومعنى ذلك، ولدع هنا -ولو مؤقتاً- قول الإلهيين الذين يقولون بوجود إله يصدر عنه الكون، ويوجه الخلايا بإرادته إلى بناء هيكل الجنين كما تشاء الحكمة، لدع ذلك -ولو مؤقتاً- لتسنى لنا مداورة الحديث مع منكر الألوهية.

أقول: ومعنى ذلك أن خلايا الإنسان كلّها، ومنها خلايا مخّه التي بها يشعر ويفكر ويلاحظ.. أن خلاياه كلّها تسير على مبدأ الغرضية، فالغرض يسوقها إلى الغاية المحدّدة، وهي لا تحيد أبداً عن هذا السبيل. تسير إلى أغراضها المعيّنة مُدعنة بهذا المبدأ وبهذا السبيل.

والغرضية عبارة عن ارتباط السبب المحدّد بغرضه المحدّد، فهي عبارة أخرى عن قانون السببية، أو هي نتيجة بيّنة من نتائجه.

ومعنى ذلك بالعبارة الأخرى الواضحة: أن خلايا الإنسان كلّها، ومنها خلايا مخّه التي بها يشعر ويفكر ويلاحظ.. أن خلاياه كلّها مفعورة على قانون السببية، وارتباط الأسباب بغاياتها، وأن قانون السببية ومبدأ الغرضية هما ركيزة التكوين في بناء الإنسان، وبناء خلاياه الصغيرة التي منها يتكوّن.

ونعتقد أننا لا نبعد كل البعد إذا قلنا: إنهما ركيزة التكوين كذلك في بناء جزيئاته الدقيقة التي تتكوّن منها الخلايا والأمصال والإفرازات، ولعل العلم قال كلمته في ذلك.

ولا نبعد كل البعد إذا قلنا: إن مبدأ الغرضية وقانون السببية هما ركيزتا التكوين في بناء كلّ خلية حيّة يتألف منها تركيب الحيوان والنبات، بل والذرة التي يتقوم بها بناء الكون كلّّه، حيّه وجامده، متحركه وساكنه، فإن القصد ظاهر في كل أولئك، ولا مكان للخبط والعشوائية والمصادفة في شيء من مظاهر هذا الكون العظيم.

هذا هو قانون السببية. ركيزة في فطرة كل حيّ، وفي كيان كل شيء، وفي طبيعة كل بسيط ومركّب.

وركيزة في فطرة الإنسان وفطرة عقله، وفطرة خلاياه وجزئياته، وهو مدّعن به، وبشبوته في كل أولئك المراحل فهل يفتقر بعدها إلى برهنة وإلى إثبات؟

ومرة أخرى وقف التفكير بالإنسان عند بداية هذا الوجود يلحّ عليه ويلحف بالسؤال إلحاحاً وإلحافاً ما عليهما من مزيد، ولو أنه التفت إلى ركيزة الإيمان من فطرته، أو إلى ركيزة البرهان في فكرته لاختصرها له الطريق، ووفّر له الجهد، واستبان له النور الذي يبصر به المعالم، ولم يتحير ولم يتردّد، أو لم تطلّ حيرته وتردّده على أقل التقادير.

ولكنه لم يأبه لركائز اليقين فتمادى به التفكير وتمادت به الحيرة.

مع النظرية المادية:

وافترقت به السبل إلى فرقتين: فرقة أنكرت ما وراء المادة وما وراء الحسّ.

فالمادة وتوابعها ونتائجها هي الشيء المحسوس، فهي الموجود على

الحقيقة، وما وراء المادة غير محسوس ولا تناله التجربة فهو غير موجود، وفرض وجوده وهمٌ وخداع.

المادة هي الموجودة، وهي أزلية لاصانع لها ولا موجد، ولا شيء غير المادة، وغير قوانينها التي تحكمها، وتوجّهها في مختلف الاتجاهات. وخيّل لها أنّها -بهذا- قد حلّت المشكلة التي يلحّ بها الفكر: (مشكلة الكون).

والفكر الواعي يوجّه إلى هذا الفريق عدداً من الأسئلة لا بدّ له من الإجابة عنها:

كيف استوجبت المادة صفة الأزلية، وهي التي لاتستوجب بذاتها الوجود إلا بعلّة مؤثّرة سواها؟

إن المادة ممكنة الوجود ولاريب، ولا يدعي أحدٌ لها وجوب الوجود، وممكن الوجود لا يوجد إلا بعلّة تامّة تفيض عليه الوجود، وإذا كانت المادة محتاجة إلى العلة في أصل وجودها، فكيف تكون بذاتها أزلية الوجود؟ إنّها لن تكون موجودة ولن تكون أزلية بذاتها، ولن تكون كذلك إلا بعلّة مؤثّرة خارجة عنها.

وكيف استوجبت المادة صفة الأزلية، وهي المتغيّرة التي تتبادلها الصّور، وتتنازعها القوانين، وتتقاسمها العلل والمؤثرات؟ وما كان شأنه كذلك فهو حادث، ومجموعة من الحوادث لا يمكن أن تكون أزلية.

وكيف تنحصر طرق المعرفة بالحسّ والتجربة؟!

والأوليات والبدهيّات التي يستيقن العقل صدقها بذاته، ولا يفتقر في

تصديقها إلى إثبات، أليست طرقاً للمعرفة كذلك، ومنها حكم العقل باستحالة اجتماع النقيضين؟

والتجربة والحسّ، بماذا أثبت العقل أنهما طريقان للمعرفة الصحيحة ؟

أبالتجربة والحسّ ذاتهما؟! وهل يثبت الشيء بنفسه؟!

أم بطريق آخر هو أوضح ثبوتاً عند العقل منهما؟!

وإذن فللعقل معلومات أوليّة يرجع إليها، هي قبل الحسّ والتجربة،

وهي أوضح ثبوتاً عند العقل منهما.

كيف ينحصر الوجود بالمحسوس؟! فإن كثيراً من الأمور نعلم بوجودها

يقيناً لوجود آثارها وهي غير محسوسة ولا مشاهدة، حتى بأدق الآلات

والجاهر، منها الطاقة والروح والجزئيات التي تتألف منها الذرة، بل الذرة

ذاتها.

إن جزءاً من عشرة ملايين جزءاً من المليمتر الواحد لاتستطيع الجاهر

القوية، ولا الأدوات الدقيقة أن تراه، ولكنه موجود على أي حال، وهو

الذرة التي كشف العلم في تركيبها وفي تفجيرها العجب العجاب.

إن هذا الجزء الصغير لا يرى ولا يحس إلاّ بآثاره - كما يقول بعض

علماء الطبيعة-، فما شأن نوية الذرة؟ وهي تصغر عنها مليون مرة - كما

يقول العلم -، وما شأن الجزئيات التي تحوم حول النواة؟ وما شأن الدقائق

الأخرى التي تتألف منها الشحنة؟ إنها أمور لم يدّع أحد إلى الآن رؤيتها، ولم

يشكّ ذو عقل بوجودها، لوجود آثارها.

وما أكثر الشواهد من أحاديث الفلك وأحاديث الطبيعة على ذلك!!

إنّ العلم لا ينكر مالا يحسّ، ومواقفه في اكتشاف المجهولات التي رأى آثارها ولم يشاهد أعيانها كثيرة معروفة، ومن أجل ذلك عرف بالمصابرة والمنابرة، وعرف العلماء بقوة الجلد وطول المران.

إنّ العلم لا ينكر مالا يحسّ، ولكن الفلسفة الوضعية تبنت قولة العلم في اعتماد الحس والتجربة في ميادين المادة، ثم أفرطت في الاستنتاج فأنكرت مالا يحسّ، وهو قول يعوزه الإثبات.

وقوانين الكون الثابتة التي تحكم المادة وتسيّرهما وتوجّههما.. من الذي وضعها، وأطلق حكمها في تدبير الطبيعة وتصريفها؟ أمي المادة نفسها أم ماذا؟

وهل من الممكن أن تكون موجودة وأزلية بذاتها ولا واضع لها؟
إن العقل الواعي يقف عند كلّ واحد من هذه الأسئلة وأمثالها، وهو يوجّهها، ولا يجد الجواب عنها فيرى أن (مشكلة الكون) لم تحلّ بذلك ولن تحل، بل ازدادت تعقيداً وإعضالاً.

مع اللاأدريين

وفرقة أخرى ارتابت في الأمر، ووجدت نفسها بين حلّين لاثالث لهما، فعليها أن تبين أمرها، أيّ الحلّين أدن إلى الصواب.

إما أن تقول بأزلية العالم، واستغنائه بوجوده عن العلة المؤثرة ... عن الإله.

وإما أن تقول بحدوث العالم وحاجته إلى مكّون مُحدث.. إلى إله.

وكأنها ظنت أن حاجة العالم إلى العلة آتية من جهة حدوثه، ولذلك فإذا

كان أزلياً فلا حاجة إلى صانع مدبّر.

وهذا هو موطن الضعف في القول، فإن حاجة العالم إلى العلة آتية من جهة إمكانه لا من جهة حدوثه، ذلك أن الشيء الذي يمكن وجوده بذاته ويمكن عدمه، يستحيل أن يترجح وجوده على عدمه بدون مرجح من خارج ذاته.. بدون علة تفيض عليه الوجود.

وهذا هو مجال قانون السببية، وقد أوضحت ذلك في حديثي عن المبدأ والمعاد.

ونتيجة لذلك فالعالم يستحيل أن يكون موجوداً بذاته، بدون علة وإن كان أزلياً.

هذا حكم العقل الواعي، والبرهان المنير في أصل المشكلة، وأما حكمه في أزلية العالم، فقد أشرت إليه في غضون هذا الحديث.

إن العالم ممكن - كما قلت -؛ فهو لا يستوجب الوجود بذاته، بل يفتقر في وجوده إلى علة، وإذا كان لا يستوجب الوجود إلاّ بعلة؛ فكيف يستوجب أزلية الوجود بذاته ودون علة؟ إنه تناقض وإحالة.

وإن العالم المادي متغير متصرّم، والمتغير حادث، فإن كل موجود خاص من موجوداته حادث ولاشك، ومجموعة من أشياء حادثة لا يمكن أن تكون أزلية.

وأما قولة العلم في ذلك فقد أشرف إليها في حديثي السابق، وأودّ أن أتناولها بشيء من الإيضاح.

إنّ الطاقة الكونية الموجودة التي تمدّ الأحياء والأشياء محدودة، ولا إشكال.

وإنّ الطاقة الميسورة تتحوّل إلى طاقة غير ميسورة، ثم لا تعود - كما

يقول القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية:-

إذن فليس للطاقة الميسورة مدد غير هذا الركام الموجود المحدود، وكل ما يفنى من الطاقة الميسورة فليس له بدلٌ يخلفه، وإذن فلا بدّ وأن تفنى الطاقة الميسورة، ولا تجد الأشياء والأحياء طاقة تمدها.

وإذن فلا محيد من أن يصل العالم كله إلى درجة الصفر المطلق، إلى الفناء العام.

هذا ما يقوله العلم ويثبته، ولا يبقى فيه مجال للتشكيك.

ويتدخل الفكر الواعي، ليتم الاستنتاج فيقول:

وإذا كان العالم محدود الآخر، فهو غير أزلي كذلك، لأنه لو كان أزلياً غير محدود الأول، لكان العالم قد أدركه الفناء منذ زمن بعيد، لأن طاقته الميسورة مهما بلغت، فلا يمكن لها البقاء طوال هذه القرون.

ولما وجدنا العالم لايزال موجوداً، ووجدنا الطاقة الميسورة لا تنزل تمدّ الأشياء والأحياء، علمنا يقيناً أنّ العالم إنما نشأ منذ أزمان يتسع طولها لبقاء هذه الطاقة وبقاء مددها، فالعالم المادي محدود الأول كما هو محدود الآخر، حدّته الطاقة التي تمدّ ثم لاتتجدد.

النظرية الإسلامية:

أما قوله الإسلام في ذلك فهي قوله الفطرة السليمة، وقوله الفكر السليم، وقوله البرهان المنير، وقوله الآيات البينة، التي ملأت آفاق السماء ومناكب الأرض، وقوله الموجودات من حيّ ونبات وجماد، وقوله أديان

السماء التي أنزلها ربّ السماء، وقوله الرّسل المطهّرين لأممهم:

﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ^(١) ﴾.

إنّها التسيّحة الكبرى التي يردها كلّ رطب ويابس، ويجهر بها كل

صامت وناطق، ويحني بها هامته كل صغير وكبير.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ،
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَكَثِيرٌ
حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ^(٢) ﴾ .

إنّ الكون كلّهُ ليتأزّر ويتعاضد ويقول كلمته الواحدة الواضحة يعيها من
يعي، ويصمّ سمعه عنها من يصمّ: إنّ كل ما هنا أثر رحمة، وتجلّي حكمة،
وكل ما هنا آية قدرة، ودليل علم وبرهان، وجود لا يشبهه شيء مما في هذا
الوجود.

إنّ كلّ ما هنا فقرٌ يدلّ على غنى مطلق، وكلّ ما هنا نقصٌ يدلّ على كمال
مطلق، وكلّ ما هنا عجزٌ يدلّ على قدرة مطلقة، وكلّ ما هنا جهلٌ يدلّ
على علم مطلق، وكلّ ما هنا حدود ونهايات تدلّ على وجود لا ابتداء له
ولا حدّ ولا نهاية.

إنّ صانع الكون يجب أن يكون منزّهاً عن نقائص المادة، ولوازم
الحدوث والإمكان، ولو كان له بعض هذه الشّؤون لكان مفتقراً بدوره إلى

١- إبراهيم: ١٠

٢- الحج: ١٨

صانع .. إلى إله.

هذه قولة الإسلام، وقولة الفطرة في الإنسان، وفي كل شيء، وقولة البرهان المنير.

يريد ليرفع النور لهذا الإنسان فيصّره السبيل، ويرتفع به إلى الغاية، ويقيه شرّ التخبّط، ولكن الإنسان يصّرّ إلّا أن يُطبق عينيه، ويوقر سمعه، ويوصد أبواب قلبه، ويسير خابطاً في متاهة، ثم يصّرّ إلّا أن يسمّيها: (مشكلة الكون)، على ارتفاع النور، ووضوح المعالم.

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ^(١) ﴾.

صدق الله العلي العظيم.

آيات الهدى والضلال

كثّر السؤال من بعض الأبناء عن آيات الهدى والضلال في القرآن الكريم، وكثّر الاستفهام عن معناها، وعمّا تتلقفه بعض الأذهان من دلالتها على معنى الجبر على الهدى لبعض الناس، والجبر على الضلال لبعضهم. كثّر السؤال عن هذا في مناسبات شتى، وهي شبهة أثارها القائلون بالجبر يقيمون عليها مذهبهم، ويؤلفون من هذه الآيات - بحسب ما يترأى لهم من معناها - حجتهم.

وحديثي الليلة سيكون حول عقيدة العدل في الإسلام، وبعض مثبتاتها، وأنوارها وظلالها. وسأتعرض - في خلال ذلك - لمذهب الجبر، ومذهب التفويض، وحديث الأمر بين أمرين أو المترلة بين مترلتين، الذي يقول به أهل البيت (ع)، وبالأحرى: الفكرة التي يقوم عليها الإسلام وتبني حقائقه، وترتبط بها مناهجه وغاياته، وسأتعرض في خلال ذلك لهذه الآيات التي يسأل عنها السائلون، ونتبين بمشيئة الله - تعالى - معناها.

وعقائد الإسلام لا تبني إلا على برهان منير، ولا تقوم إلا على سند متين، ولا يمكن مطلقاً أن تؤخذ من نظرات ابتدائية في ظواهر ألفاظ من آيات.. من نظرات ابتدائية لا أصالة لها ولا ثبات، ولا يقرّها منطق، ولا تسندها حجة، وخصوصاً في مثل هذه العقيدة التي تمسّ جوهر الدّين، وتلوّن حقائقه، وتحكم بالعقم أو الإنتاج على مناهجه.

إله الكون منزّه عن النقائص :

ينظر العقل الحصيف الواعي في أغوار هذا الكون، وفي مظاهر الإبداع والجمال فيه، فيستيقن أن كل ما هنا آية بيّنة، وحجة قاطعة، وبرهان منير. إن كل ما هنا أثر يدلّ على مؤثر، وكل ما هنا حركة تدلّ على محرّك، وكل ما هنا إبداع وتكوين يدلّ على مكوّن مبدع.

وينظر العقل الحصيف الواعي في أغوار هذا الكون، وفي آفاقه وأبعاده، فيرى لهذا الكون وحدة كبرى تربط بين أشيائه وأجزائه، فكل أشيائه وأبعاضه تسير في مدى واحد إلى اتجاه واحد، ولا اختلاف ولا تباين، ولا تصادم في القوانين، ولا تخالف في الغايات، فيعلم - حق العلم - أن الإرادة التي تسيّر الكون، وتحكم قوانينه وموازينه إرادة واحدة.

إن العقل يرى مياه البحر اللّجّي تسير كلها بحركة واحدة، وتتجه إلى وجهة واحدة، فيوقن ولا يشك أن القوة التي سيّرت هذه المياه قوة واحدة. ويرى الجيوش العظيمة تتحرك متفقة في الجهة، وفي المدى، وفي الغرض، فيعلم أن القيادة التي توجّه هذه الجيوش الكثيرة وتشرف على حركتها قيادة واحدة.

ويرى المصنوعات الكثيرة المتنوعة تحمل طابعاً واحداً، وتتميز بعلامة معيّنة، فيعلم أنها من إنتاج مصنع واحد، ولا يمتري في شيء من هذه النتائج وأمثالها، ولا يقبل جدلاً من مجادل.

وقد أرجعه القرآن إلى هذه الركيزة ليستدل بوحدة الكون على وحدة مكوّنه العظيم.

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ، ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ^(١)﴾.

ويرى العقل الحصيف الواعي حياة فيعلم أنها من صنع حيٍّ، لأن غير الحي لا ينتج حياة.

ويرى تصويراً وتقديراً فيعلم أنهما من فعل عالم قدير.

ويرى إتقاناً في التكوين، وفي الغاية، فيعلم أنه من إيجاد حكيم خبير.

ويرى في الأشياء كملاً بعد نقص، وغنى بعد فقر، وقوة بعد ضعف، فيعلم أنها من آثار كامل غني قوي، لأن الفقر لا ينتج غنى، والعدم لا يُثمر وجوداً، وفاقد الشيء لا يعطيه، وكل هذه أمور يُدركها العقل ببداهته، وكلها من أبعاد قانون السببية.

ثم إن الحياة في هذا الكون تدلّ على أن موجد الحياة حيٌّ بالذات، وأن بدائع القدرة فيه تدلّ على أن مصدر هذا البدائع قديرٌ بالذات، ومجالي العلم والحكمة تدلّ على أن مبدأها عالمٌ وحكيم بالذات، وشواهد الغنى والاستكمال فيه تدلّ على أن سببها غنيٌّ وكامل بالذات، لأن إله الكون لو لم تكن له هذه الصفات بالذات لكان ناقصاً ومحتاجاً في حياته وفي قدرته وعلمه وحكمته وغناه وكماله، فيكون محتاجاً إلى من يسدّ له هذا العوز، ويتم له هذا النقص، فيكون مدبراً مربوباً. وتعالى الله عن سمات النقص

ولوازمه.

إله الكون موجود بذاته لابعلة سواه، وهو حيّ وقدير وعالم وحكيم وغنيّ وكامل بذاته لابعلة سواه، ولا بصفات زائدة على ذاته توجب له هذه المعاني.

إله الكون يجب أن يسدّ عوز الكون المطلق، ولا يمكن أن يكون محتاجاً إلى سواه في وجهه من الوجوه، ولا في مجال من المجالات، فله الغنى المطلق والكمال الأعلى، فهو منزّه عن الحاجة، منزّه عن النقائص، منزّه عن الحدود في معاني كماله وغناه، منزّه بذاته حتى عن الصفات الزائدة على ذاته.

هذه نتائج ينساق إليها العقل، ويشتها بثاقب الفكرة، وصحيح النظرة، وهذا هو القول الفصل في التوحيد الخالص الذي يمتاز به مذهب أهل البيت (عليهم وعلى جدهم الرسول أفضل الصلاة والسلام).

العدل الإلهي :

ومن أبعاد هذا التنزيه الكامل لله، وهذا التوحيد الخالص لجلاله الذي يعترف به العقل الواعي، حينما يفكر تفكيراً سليماً، وينساق مع البرهان انسياقاً طبيعياً لا تكلف فيه ولا عناء .

أقول: ومن أبعاد هذا التنزيه الكامل لله: إثبات صفة العدل له -

سبحانه-. و في القرآن الكريم:

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ، لَا إِلَهَ إِلَّا

هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ^(١)».

وهذه هي شهادة الله، وشهادة الملائكة، وشهادة أولي العلم من خلقه «
لا إله إلا هو قائماً بالقسطِ»، والقيام بالقسط كلمة أخرى عن صفة العدل.
ويعنى بصفة العدل التي يجب إثباتها لله، أنه - سبحانه - لا يُهمل واجباً
ولا يُخلّ بحكمة..

لا يهمل فعلاً تحتّمه المصلحة، ولا يصدر قبيحاً تمنعه الحكمة.

فإن إهمال ما تحتّم المصلحة فعله، وفعل ما تمنع الحكمة وجوده، إما أن
يكون السبب فيهما حاجة في الفاعل تدفعه إليهما فتضطره إلى أن يترك ما
توجبه المصلحة، أو يفعل ما تمنعه الحكمة، وقد عرفنا أن إله الكون منزّه
عن أي حاجة واضطرار .

وإما أن يكون السبب فيهما جهل الفاعل بما تقتضيه الحكمة في ذلك،
فهو حينما ترك الشيء الأول لم يكن يعلم أنه ممّا توجب المصلحة فعله،
وحينما فعل الشيء الثاني لم يكن يعلم أنه ممّا تمنع الحكمة وجوده، وقد عرفنا
أن إله الكون عالم بالذات، منزّه عن الجهل.

وإما أن يكون السبب فيهما هو ابتغاء العبث واللغو، فالفاعل حينما
ترك ما توجبه المصلحة أو فعّل ما تمنعه الحكمة، كان لاهياً عابثاً في فعله،
وقد عرفنا أن إله الكون حكيمٌ بالذات، منزّه عن ابتغاء اللغو والعبث في
جميع أفعاله وشؤونه.

﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ، لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُتُبًا فَاعِلِينَ، بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ^(١) ﴾.

من مجالي عقيدة العدل :

هذه حصيلة عقيدة العدل، وبعض براهينها.

إنما ترتبط بعقيدة التوحيد الخالص ارتباط الجزئ بأكمله.

ومن مجالي هذه العقيدة: قيام كل شيء في التكوين على مبدأ العدل والتوازن الكامل، فقد وفرت القدرة الخالقة لكل موجود صغير أو كبير في هذا الكون كل ما يستدعيه التوازن الخلقى الدقيق، فلم تُنقصه شيئاً تقتضيه حكمة التكوين، ولم تزد فيه أمراً لا تستدعيه المصلحة، بل استواء واتزان، وإبداع وإتقان .

﴿ إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ^(٢) ﴾.

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ^(٣) ﴾.

فكل شيء كائن وفق ما تدعو الحكمة، وما يقتضي النظام، وما يحقق الإبداع، دون زيادة ودون نقص، بل اتزان شامل، وإتقان كامل.

ومن مجالي هذه العقيدة: قيام الشريعة على مبدأ العدل، فكل حكم من

١- الأنبياء: ١٨.

٢- القمر: ٤٩.

٣- الحجر: ٢١.

أحكامها، وكل تشريع من تشريعاتها لم يوضع إلا وفق موازنة دقيقة وكاملة، بين دوافع المرء وحاجاته، وغرائزه ومتطلباته، وضروراته المختلفة ونواحيه المتعددة، ثم بين مطالب الفرد ومطالب الأمة، وإعطاء كل جهة من هذه الجهات المختلفة ما تستحق دون سرف ولا تقتير، فهي عدل في كل مجال من مجالات الحياة.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ (١)﴾.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ (٢)﴾.

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (٣)﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ (٤)﴾.

﴿وَنَمَتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥)﴾.

من توابع عقيدة العدل :

ومن توابع هذه العقيدة، بل ومن محققات معناها، تنزيه الإله عن الظلم والحيث، فإنه قبيح تمتنع منه الحكمة، ويَجَلُّ عنه الحكيم، وظلم العبد الضعيف

١ _ الحديد: ٢٥.

٢ _ الأعراف: ٢٩.

٣ _ الأنعام: ١٢٦.

٤ _ النحل: ٢٩.

٥ _ الأنعام: ١١٥.

الذي لا يملك حولاً ولا قوة، ولا سنداً أمام القوة القاهرة التي بيدها الحول والقوة أكثر قبحاً، وأعظم مباينة للحكمة، وأشدّ منافاة للعدل، وللقيام بالقسط الذي دلت عليه الآيات .

﴿ وَمَارُبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ^(١) ﴾ .

﴿ وَلَا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا ^(٢) ﴾ .

ولنسلم - ولو مؤقتاً - بما يقوله بعض الفرق الأخرى من المسلمين: إن العقل لا يحكم بحسن ولا قبح، وإن الأمر في ذلك بيد الشرع، فالحسن هو ما أمر به الشرع، والقبيح هو ما نهى عنه، ولا حسن ولا قبيح غير ذلك .
لنسلم ذلك لهم -ولو مؤقتاً-، فإنه تعنت ظاهر، وتحدٍ لكرامة العقل، بل وإنكار لما هو معلوم بالبداهة، فإن العقل يستقلّ بقبح كثير من الأفعال والمظاهر، وبحسن كثير منها، ولا يرتاب ولا يتردد في حكمه بذلك .

أقول لنسلم بما يقوله بعض الفرق الأخرى من المسلمين: إن العقل لا يحكم بحسن ولا قبيح، وإن أمر التحسين والتقييح بيد الشرع وحده، أفليس الظلم مما نعت عنه الشريعة، ودلت على قبحه؟! أفلا يكون قبيحاً على الحكيم - سبحانه - ومنافياً لحكمته، ومما يجب تنزيهه عنه ؟

وخصوصاً بعد أن دلت الآيات الوافرة العدد على أنه (تعالى) القائم بالقسط، وأنه لا يظلم أحداً، وأنه ليس بظلام للعبيد، وأنه لا يأمر بالسوء،

١- فصلت: ١٦.

٢- الكهف: ١٩.

ولا يأمر بالفحشاء، وأنه لا يحب الظالمين.

والستفرقة بين الإرادة التشريعية والإرادة التكوينية في هذا المجال مما لا يمكن أن يقول به عقل رصين.

تنزيه الله عن الجبر :

ومن توابع هذه العقيدة، بل ومن محققات معناها: تنزيه البارئ (تعالى) عن الجبر في الأفعال: فإنه نحو من الظلم، ومن الظلم الشديد، ومن منافيات الحكمة.

وأي ظلم، وأي غشم هو أبشع من أن يقتسر السيد عبده الضعيف اقتساراً، ويجره على معصية أمره، وتعدّي حدوده إجباراً، وهو لا يقدر على الفعل، ولا يقدر على الامتناع، ثم يحمله تبعة هذا العصيان، فيرصد له أليم العذاب، وشديد النكال على فعلته التي لم يفعلها باختياره، ولم يمكنه الامتناع عنها بإرادته؟؟

وهو من منافيات الحكمة من ناحيتين :

فهو مناف للحكمة من حيث إنه ظلم والظلم قبيح، «وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا»، وقد أسلفت القول عن هذه الناحية.

وهو مناف للحكمة من التشريع، فإن الغاية من جعل الدين، ومن تشريع أحكامه، هي الارتقاء -بسببها- في مراقي الخير، والاستكمال - بإطاعتها- من حظوظ السعادة، والفوز -بتطبيقها- في حلبات التقوى، وتنظيم هذي الحياة، وحلّ مشكلاتها بحلول الإسلام وتطبيق مناهجه.

﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ^(١) ﴾.

أجل، هذه هي الغاية، " وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ"، فالدين وأحكام الدين دربة وامتحان، تُنال الدرجات فيه بالإطاعة أو العصيان، ومن الضروري أن ذلك يقوم على الاختيار والإرادة، وأي حكمة وأي بلاغ في أن يشرع الله حكماً لا يمكن أن يمتثل؟!

وأي حكمة وأي بلاغ في أن يشرع الله شريعة ثم لا يترك لعباده الخيرة في أن يطيعوها أو يعصوها مختارين؟؟!

والجبر وهم سبق إلى أذهان بعض الناس فحسبوه حقيقة، ثم بالغوا في الأمر فاعتبروه عقيدة من عقائد الإسلام، وهي فكرة حرفت خطأ كبيراً من خطوط الإسلام في أذهان فريق من المسلمين، فأتت أكلها مرّاً مضاعفاً في سلوكهم فجمدت حركة الإسلام في نفوسهم وفي قلوبهم.

وماذا يستطيع الرجل أن يصنع في إصلاح نفسه، وتوعية ضميره وتهذيب إرادته، فضلاً عن إصلاح غيره إذا أيقن أنه مُجبر على كل عمل يعمل، مقسور في كل صنع يصنعه .. أنه آلة صماء بكماء بيد محرّكها، ولا حيلة له في جلب خير، أو دفع شر، أو إصدار حركة، أو توجه إلى غاية. هكذا يعتقدون. ويدّعون لله بهذه العقيدة، ويتعبّدون له بها، والمخلص في هذه العقيدة هو من يذهب بها إلى أبعد شوط وأبعد غاية، ونتيجة ذلك

جمود وهمود.

وأي انحراف في خط الإسلام يكون أكبر من هذا الانحراف ؟ ولا أُطيل ولا أتوسع في بيان ذلك.

من أدلة القائلين بالجبر:

وبجمال القول بالجبر والقول بالتفويض هو أفعال الإنسان التي يُصدرها ويعملها بإرادته، وقد ذهب القائلون بالجبر إلى أن الإنسان لا يمكن أن يكون مختاراً في فعله أبداً .

والعلة التي يحتجون بها لذلك: هي أن الإنسان لو صحَّ أن يكون مختاراً في أعماله التي يعملها لأصبح شريكاً لله في التكوين، والله عامُّ القدرة على كل شيء، فلا قدرة للإنسان ولا خيرة.

ويقف العقل حول هذه الفكرة، فيتساءل: لماذا يكون الإنسان شريكاً لله في التكوين إذا كان مختاراً في فعله، ألا أنه أوجد فعله باختياره؟!

إن الله (سبحانه) قد جعل هذا الكون الطبيعي كله مسرحاً للأسباب والمسببات، وربط النتائج بأسبابها وعللها ربطاً كاملاً، فلا شيء يحدث دون علة، وهذا واضح لا ينكره أحد، فلماذا لا تكون هذه الأسباب الطبيعية شريكة لله في الإيجاد — على ما يزعمون —؟!

إن الله (سبحانه) هو الذي أوجد الأسباب بقدرته، وهو الذي أعطاه الطاقة المؤثرة، وهو الذي ربط المسببات بها، وأعدَّ بقدرته كلاً لما خُلِقَ له، فالسبب إنما يؤثر في مسببه بقدرة الله وإرادته، فلا يكون شريكاً لله، وإنما هو

مجرى لفيضه وأثر لقدرته.

وكذلك الإنسان بعض مخلوقه، والله هو الذي آتاه القدرة والعقل والإرادة والاختيار والطاقة، والإنسان إنما يصدر فعله بإقدارٍ من الله، ومددٍ متّصل من رفده، ولو انقطع مدد الله عنه لم يستطع أن يعمل، ولم يستطع أن يتحرك، فكيف يكون شريكاً لله إذا كان مختاراً في فعله؟!

وقد شاءت الحكمة أن تكرّم ابن آدم هذا التكرم، فتجعل له جهاز الاختيار، فيُصدر عمله أو يتركه مختاراً، ليستكمل سعادته باختياره، ويخطّط مصيره بإرادته، فيستوجب جزاء المطيعين أو العاصين، وهذا كله واضح أتمّ الوضوح.

إن الرجلين يكونان على سطح المنزل، فيهبط أحدهما في السلم ويسقط الآخر من جانب السطح هاوياً، فإن العقل لا يشكّ أبداً في معرفة أيهما المجبر وأيهما المختار، وهذا يعني أن التمييز بين الجبر والاختيار بدهيٍّ من بدهيات العقول لا خفاء فيه ولا غموض.

آيات الهدى والضلال :

واحتج القائلون بالجبر بآيات الهدى والضلال وهي كثيرة العدد منها قوله (تعالى):

﴿ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ^(١) ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(١).

وقوله تعالى ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢).

وأماها من آيات الكتاب الكريم... والهدى والضلال لا يكونان إلا بعد إقامة الحجة من الله، وإيضاح السبيل، وتبيين المعالم:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولاً﴾^(٣).

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾^(٤).

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾^(٥).

وهما بعد ذلك إنما يكونان باختيار الإنسان واتباعه أي السبيلين شاء:

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾^(٦).

أما بعد أن يختار الإنسان بإرادته أحد السبيلين، ويدأب عليه ويصرّ على اتّباعه، فإن هداية الله تعني توفيقه ومده لمن اختار طريق الحق وسار عليه،

١- الأعراف: ١٧٨.

٢- إبراهيم: ٤.

٣- الإسراء: ١٥.

٤- الإنسان: ٣.

٥- البلد: ١٠.

٦- الكهف: ٢٩.

وإضلاله يعني خذلانه لمن اختار طريق الباطل وسار عليه، وكلاهما - وكما قلنا - بعد بيان الحق وبيان الباطل لهما أتمّ البيان، وتعريفهما أوضح التعريف، وإتمام الحجة عليهما أبلغ الإتمام.

والسائر على الهدى - بعد وضوح الأمر - مستحق للمدد والتوفيق من الله، ولا ريب.

والسائر على الضلال - بعد وضوح الأمر - مستوجب للخذلان من الله، وإيكاله إلى نفسه، ولا شك، وهذا هو معنى الآيات الكريمة المسؤول عن معناها " مَنْ يَشَأْ اللَّهُ " وهو الذي اختار الضلالة بعد وضوح البيان وإقامة الحجة عليه " يُضِلُّهُ " فيؤكله إلى نفسه فتصل به إلى أبعد المهاموي من الضلال، " وَمَنْ يَشَأْ " وهو الذي اختار الهدى بعد وضوح البيان وإقامة الحجة " يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ " بمده بتوفيقه وبعونه فيرتقي في مسالك الهدى حتى يصل إلى الغاية.

ومثلها الآيات الكريمة الأخرى.

والتفويض :

وذهب القائلون بالتفويض إلى أن الإنسان حر تام الحرية، مختار تام الاختيار في أفعاله، ولا سلطان لأي أحد عليه، ولا على إرادته حتى الله خالقه، الذي كوّنه وبرّاه وصوّره.

وهذا القول - كما نراه - يتضمن سلب سلطان الله على عبده، وهي نتيجة معاكسة للقول بالجبر.

وكأنهم عرفوا من معنى الاختيار للإنسان أنه لا يكون إلا حين يسلب أي سلطان عنه، حتى سلطان خالقه العظيم.

وهذا القول يعادل الجبر في الشذوذ وفي البعد عن سمة الحق.

الأمر بين الأمرين :

والحق هو الاعتدال بين التفريط والإفراط: بين الجبر والتفويض، (فلا جبر ولا تفويض ولكن منزلة بين منزلتين).

إن الله خلق الإنسان وآتاه القدرة والخيرة، فهو يفعل -حين يفعل- مختاراً، ويترك -حين يترك- مختاراً ولا نقص في موازين اختياره أبداً. هذا من ناحية ..

ومن ناحية أخرى، فإن الله هو الذي خلق الإنسان، وهو الذي خلق له جهاز الاختيار، من عقل وتصميم وإرادة وقوى مختلفة، يوازن بها ويُصمّم ويختار ويفعل، وهو الذي يمدّه بالطاقة والنشاط طوال حياته وفي كل حركاته وسكونه، فهو لا يفكر، ولا يوازن، ولا يُصمّم، ولا يختار، ولا يعمل إلا بمدد من الله، ولو أن المدد انقطع عنه آنأماً لوقف كل ذلك.

فلا جبر ولا تفويض ولكن منزلة بين منزلتين، وهذا هو المعنى الذي تجتمع عليه آيات الكتاب ونصوص السنة، وهو الذي يقوم على أسس المنطق والبرهان الصحيح.

عرّفنا الله وإياكم معالم الحق وهدانا سواء السبيل وكفانا مزالق الفكر ومزالق النفس ومزالق القلب ومزالق الإرادة.. إنه سميع عليم.

مجالى العدل الإلهى

ما أسعدنى أيتها الأحياء!.. أقف بينكم لأحدثكم ببعض أحاديث الإسلام، وأحييكم بتحفة السلام وشعار الإسلام : (السلام عليكم).
ما أسعدنى!.. أقف بينكم لأذكر بعض محاسن دين الله العظيم، وأشير إلى بعض أسرارِهِ..

﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾^(١).
﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ، وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ: أَسْلِمْ، قَالَ: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾^(٢).
بلى —أيها الأحياء— « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ».

ومحاسن دين الله (تعالى) أسمى من أن يستوفيها حاسب، أو يحدها كاتب، وأسرار شريعة الله —سبحانه— أدقّ من أن يستبطنها عقل، أو يستنفدها مفكّر، ولكنها النور المشع، تقتبس الأفكار منه، كلّ حسب طاقته.

١- الحج: ٧٨.

٢- البقرة: ١٣٠-١٣٢.

والغيث الصيب تنهل الأحياء منه، كل بمقدار حاجته، وتأخذ الأواني منه كل بمقدار سعته.

إنها السعادة أو الشقاوة :

ما أسعدنا -أيها الأحباء- !! وما أكرمنا على الله !!... يصطفي بحكمته وبلطفه لنا دينه العظيم، ويضمن لنا السعادة والفوز والفلاح، إذا نحن اتبعنا مناهجه، وسرنا على هداه، وبلغنا إلى غاياته..

..إنها سعادة ليس فوقها منتهى، وإنها كرامة ليس وراءها منزلة، وإنها رفعة ليس بعدها مطمح.. أن يكون الله -سبحانه- هو الذي يختار لنا بحكمته ما يريد، وأن يكون رسوله الأعظم (ص) هو المرشد لنا إلى هذه الغاية، وأن يكون كتابه الأكبر هو الدليل لنا إلى السبيل:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ^(١)﴾.

ثم إنها الشقاوة التي ليس دونها درك، والمهانة التي ليس بعدها ضعة، والخزي الذي ليس منه منجى.. أن نجتنب هداية الله -سبحانه- ونتكبر سبيله، بعد أن بلغ المرشد، وأوضح الدليل.. أن نتخون هداية الله، ونستهجل حكمته، ونستصغر مقتنه، فنستبدل بدين الله ديناً، وبعبد الله مبدأً، وننظام الله

نظاماً:

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ^(١) ﴾ .
 وإِذَا الشَّقَاوَةُ وَالْمَهَانَةُ، وَالخِزْيُ الْكَبِيرُ، وَالْبَوَارُ الْعَظِيمُ، أَنْ نُوَزَّعَ شَرِيعَةَ
 اللَّهِ حَسَبَ أَهْوَائِنَا وَمَشْتَهَاتِنَا الَّتِي لَا تَقَرُّ عَلَى حَالٍ. فَنَأْخُذَ مِنْ أَحْكَامِ اللَّهِ
 (عِزٌّ وَجَلٌّ) مَا نُرِيدُ، وَنَتْرِكَ مِنْهَا مَا لَا نُرِيدُ.. كَمَنْ يَتَعَرَّضُ لِلسَّلْعِ الْمَعْرُوضَةِ
 فِي السُّوقِ، فَلَا يَتَنَاعَ مِنْهَا إِلَّا مَا يُوَافِقُ هَوَى نَفْسِهِ، أَوْ رَغْبَةَ ذَوِيهِ، ثُمَّ لَا
 يَتَنَاعَ مِنْهَا إِلَّا مَا يَخَفُّ عَلَيْهِ فِي السُّوْمِ:

﴿ أَفْتَوِمُنْونَ بِنَبِيٍّ مِّنَ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِنَبِيٍّ مِّنَ الْكِتَابِ، فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ
 مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ، وَمَا
 اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ، فَلَا يُخَفَّفُ
 عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ^(١) ﴾ .

أيها السادة:

ما أوضح حقائق الإسلام !! وما أرسى قواعده !! وما أجلى حكمته
 وما أسماها عن الحدود !! وما أيّن دلائله وما آباها عن الحصر !! .. إنها ملء
 الكون، وملء الأزمان، وبعدد ما في الأكوان والأزمان من ذرة وجسيمات
 ذرة، وطاقة ووحدات طاقة، وقانون وتجليات قانون.

ما أوضح حقائق الإسلام، وما أجلى حكمته، وما أيّن دلائله !! وما

١ _ المائدة: ٥٠.

٢ _ البقرة: ٨٥-٨٦.

أجهلنا -نحن المسلمين- بهذه الحقائق، وما أبعدنا عنها، وما أشد استغرابنا إياها حين تذكر لنا، كأنها لم تمتزج بعقولنا ونفوسنا، بل وبعواطفنا ومشاعرنا ولحومنا ودمائنا !!

حديث مع مهندس كبير :

تحدثت في ليلة من لياليّ في القطار إلى مهندس كبير كان يزاملني في المقصورة..

تحدثت إلى هذا الزميل عن عدل الله العظيم، الذي يظهر في كل منحى من مناحي هذا الكون، وفي كل موجود من موجوداته، والذي لا يزال العلم الحديث يكشف في كل يوم منه جوانب، ويطرّصد إلى جوانب أخرى لا تزال خفية، ثم هو يعترف أنّ ما كشفه من هذه الجوانب لا يزيد على مقدار قطرة صغيرة من محيط عظيم.

نعم لقد اعترف العلم التجريبي الحديث بكل ذلك، وسبّح بحمد ربه، وأحسنى رأسه للقدرة القاهرة، وللحكمة الباهرة، وللتدبير الحكيم، والعدل العظيم.

.. تحدّثت إليه عن مظاهر هذا العدل الكوني العظيم، ثم قلت له - في

مجرى الحديث:

والعدل في الإسلام -أيها الأخ- امتداد للعدل الأعظم في الكون، لأنّ الإسلام نظام من أنظمة الحياة، وواضع هذا النظام هو واضع أنظمة الكون.. وأخذت أشرح له أبعاد هذه الكلمة، وأبين بعض الشواهد الدالة عليها،

ولست أدري كم طال الحديث، فقد كنت راغباً في القول، وكان راغباً في الاستماع.

فقال متعجباً -بعد نهاية الحديث-: ما أغرب هذه الحقائق عنا ! وما أشد بلاهتنا إذا كانت صحيحة لا يتطرقها ريب !
فقلت له: يا صاحبي ليست هذه الحقائق هي الغريبة، ولكنكم أنتم الغرباء.

فوجم من قولي، ثم أطرق طويلاً، واسترشدني - بعد صمته - إلى بعض المصادر، واستوضح مني بعض المفاهيم، ولم أعلم بحاله بعد تلك الليلة.

العدل الإلهي في مجالي التكوين والتشريع :

نعم، -أيها السادة- العدل في مجال التكوين، والعدل في مجال التشريع.. كلاهما مظهر من مظاهر العدل الإلهي الأعلى؛ الذي أوجبه الحكمة المطلقة، والكمال المطلق، والغنى المطلق، والتنزّه المطلق عن الحاجة، والتقديس المطلق عن النقص.

وإذا قلت: الحكمة المطلقة، أو الكمال المطلق، أو أحد المفاهيم المتقدمة الأخرى، فأعني بها صفات الكمال الذاتية له (تعالى)، الأزلية، الأبدية، التي لا بداية لوجودها ولا نهاية، ولا حدّ تقف عنده، ولا علّة تؤثر فيها..

وقد جعل - سبحانه - في كتابه هذه الصفة : (صفة العدل) متممة لعقيدة التوحيد، إذ قال (عزّ منّ قائل):

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأَوَّلُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ، لَا إِلَهَ

إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ^(١)».

على هذه الركيزة يقوم الإسلام في عقيدته، وعليها يقوم في بناء مفاهيمه، وعليها يقوم في تأسيس شريعته وشمول نظريته.

العدل في التكوين ..

فلا يؤتي أي ذرة من أي عنصر إلا مقدار ما تفتقر إليه من الجسيمات، ولا يودعها إلا قدر ما تحتمله من الطاقة، ولا يضع لها إلا ما يدبرها من النظام، ولا ينقصها شيئاً مما تحتاج إليه في حال الانفراد، أو في حال التركب..

وهكذا في كل مركّب وفي كل بسيط، وفي كل حي، وفي كل جامد، وفي كل صغير، وفي كل كبير.. وما عسى أن يعدّ القائل من ذلك؟ وما عسى أن يذكر من الشواهد؟ وقد اعترف العلم أن هذه هي الظاهرة المحسوسة الملموسة في جميع محتويات هذا الكون الرّحب، ما استطاع كشفه منها وما لم يستطع.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ^(٢)﴾.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا^(٣)﴾.

١- آل عمران: ١٨.

٢- الحجر: ٢١.

٣- الفرقان: ٢.

والعدل في التشريع ..

فلا يضع الحكم إلا وفق ما تقتضيه النظرة المستوعبة في الركائز العميقة في الفرد، والركائز الأصيلة للمجتمع، والموازنة الدقيقة بين جميع المقتضيات والمؤثرات والبواعث والموانع والطاقات والضرورات والحقوق والواجبات، والملاحظة الشاملة للأفراد والأمم والأجيال والأزمان. فلا يؤتي ناحية من نواحي الفرد، ولا من نواحي المجتمع أكثر مما تستحق ولا يُنقصها شيئاً مما تستوجب.

على هذه السمة، وعلى هذه الركيزة تأسس الإسلام، وقامت جميع تشريعاته:

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ. إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ، وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ، يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ^(١) ۝ ﴾

بل وعلى هذه الركيزة، ومن أجل تحقيق هذه الغاية أرسل الله (تعالى) الرسل السابقين (ع)، وزوّدهم بالوحي:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ^(٢) ۝ ﴾

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ^(٣) ۝ ﴾

١- النحل: ٨٩-٩٠.

٢- الحديد: ٢٥.

٣- الأنعام: ١١٥.

وما أكثر الآيات التي ذكرت هذا الشأن، ووصفت دين الله بهذا الوصف، وحفّزت الناس إلى هذه الغاية، ودعتهم إلى هذه السعادة !!

هذا هو العدل الذي أرسل به محمد (ص) وأنزل به كتابه وأقيم به نظامه، وهذا هو العدل الذي أراده الله (تعالى) للمجتمع المسلم الذي أقام صلاته على الحب في الله (تعالى)، والتآخي في دينه، والتناصر في سبيله.

العدل الإسلامي في الحكم :

أما الحكم في الإسلام -أيها السادة- فإنه مشتق من هذا النظام، وقائم على هذه الركيزة، ومستمد من هذه الأسس.

الحكم في الإسلام قوامه عامة على المجتمع المسلم، وعلى التطبيق الكامل لعدل الإسلام، والرعاية اليقظة لكتاب الإسلام، والسعي الدائب لأهداف الإسلام.

وتمشياً مع هذه النتائج، فلا بد وأن يكون الحاكم الأعلى مثلاً شاخصاً للعدل الأعلى في الإسلام..

وهذه نتيجة لا يشكّ في صدقها من عرف أنظمة الإسلام، وتبين أهدافه، وعلم صفات مجتمعه..

وتطبيقاً لهذه النتيجة وجب أن يكون الحاكم الأول للمجتمع المسلم هو الرسول العظيم (ص) .

نعم - أيها الاخوة- وما قوله الرسول (ص) التي رواها المسلمون على

السواء: (علي مع القرآن والقرآن مع علي^(١)).

أو قولته الأخرى: (علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيث دار^(٢))..

.... ما هاتان الكلمتان وأخواتهما إلاّ شهادات نبويّة باستحقاق علي (ع) لهذا المقام الكريم بعد الرسول (ص).

وما شهادة القرآن لأهل البيت بالعصمة^(٣)، وما النصوص التي تواترت عن الرسول (ص) في حقّهم إلاّ وهي واردة في هذا الشأن.

أما أولياء هذه الزعامة بعد انتهاء أدوار المعصومين (ع) فهم تلاميذهم الأظهر الذين يرثون مقامهم بالعلم، ويمثّلون عدلهم الأعلى في العمل.

-
- ١- راجع المستدرک علی الصحيحین ج ٣ ص ١٢٤ للحاكم النيسابوري وقال بعد روايته للحديث عن أم سلمة: هذا حديث صحيح الإسناد، وراجع أيضاً المناوي في فيض القدير ج ٤ ص ٣٥٦، وكثر العمال ج ٦ ص ١٥٣، وجمع الزوائد ج ٩ ص ١٣٤، والصواعق المحرقة ص ٧٤، ونور الأبصار ص ٧٢.
 - ٢- يراجع صحيح الترمذي ج ٢ ص ٢٩٨، والحاكم في المستدرک ج ٣ ص ١٢٤ و١١٩، والخطيب في تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٣٢١، وجمع الزوائد للهيتمي ج ٧ ص ٢٣٥، وكثر العمال ج ٦ ص ١٥٧.
 - ٣- قال (تعالى): ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ (الأحزاب: ٣).

الإمامة والعصمة

الإمامة والعصمة في الإسلام

الإمامة والعصمة في الإسلام - وهي الفكرة التي أردت أن أتحدث لكم عنها في هذه الليلة المباركة - فكرة عريقة في القدم، عريقة في الأصالة، ارتبطت بالعقيدة والنظام والمنهج، ارتباطاً قوياً مكيناً حتى لا يمكن التفكيك ولا يمكن الفصل، وكيف يمكن فصل جزء من كله؟

وأقول: كيف يمكن أن ينفك أو ينفصل جزء من كله، ولا أعني الأجزاء التي يمكن الاستغناء عنها في بناء المركبات، فقد قلت: إنها مرتبطة بالعقيدة والنظام والمنهج، وأجزاء العقيدة والنظام والمنهج أجزاء مقومة لا يمكن الاستغناء عنها أبداً، وسأوضح أبعاد قولي هذا في غضون الحديث - إن شاء الله (تعالى) -.

ارتبطت بعقيدة الإسلام ونظامه ومنهجه في الحياة، وفي علاج المشكلات منذ أول نزوله من السماء في صورته الأولى على الأنبياء السالفين (ع). والإسلام هو الدين الذي أرسل به جميع الأنبياء سالفهم وخالفهم، فهو الدين الذي أرسل به أول رسول، وأنزل به أول كتاب، ووضعت له أولى شريعة.

وهو الدين الذي تتابع عليه الأنبياء (صلوات الله عليهم)، واتفقت عليه

دعواتهم، وبذل في بلاغه جهدهم.

فكانت الإمامة والعصمة جزءاً لا ينفصل من دعوة الإسلام في تأريخها المديد الناصع، فلا بدّ من الإمامة، ولا بدّ من العصمة في دور كل نبيّ وكلّ دعوة، ولا بدّ من إمام معصوم يتلقّى العهد من الله والنصّ من الرسول، والأدلة اليقينية التي تثبت لنا وجوب الإمامة ووجوب العصمة بعد الرسول الأعظم (ص) تثبت لنا -بذاتها- وجوب الإمامة ووجوب العصمة في كلّ دور وبعد كلّ رسول.

فهي فكرة الإسلام في كل نشأته وفي كل دعواته، وإن اختص بها مذهب أهل البيت (عليهم السلام) في ظاهر الحال. وليست هذه أول شيء اختص به مذهب الطاهرين (ع) من فكر الإسلام، وهذا أحد بواعث فخاره.

الإمامة في مجالها اللغوي:

وكلمة الإمامة في مجالها اللغوي تعني صفة الإمام، وهو المتقدم في القوم، وموضع قدوتهم، يقال: أمّ القوم. بمعنى تقدمهم، وصار لهم قدوة في عملهم، ويقال: ائتممت بفلان، أي جعلته إمامي وترسّمت خطاه في سبيلي، واقتديت بفعله أو رأيه في عملي، والإمام هو مَنْ يُقتدى به، ويُتبع عمله أو رأيه، والإمامة صفته، وبهذا الاعتبار أطلقت على إمام الجماعة، وموجّه القوم ومرشدهم.

والإمام: الطريق الجليّ الواضح الذي يُتبع، وبهذا المعنى قد يطلق على

القرآن وأخواته من كتب السماء، وفي القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً^(١)﴾.

وقوله (تعالى): ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ^(٢)﴾، بناء على تفسير الإمام في الآية الكريمة بالكتاب.

والإمامة: الرئاسة العامة؛ فالإمام رئيسهم العام، وبهذا الاعتبار أطلقت على بعض الرؤساء والملوك.

الإمامة في المصطلح الإسلامي:

والإمامة في المصطلح الإسلامي الخاص -وفي مذهب أهل البيت (ع) على الخصوص- هي الرئاسة العامة في أمور الدنيا والدين، وهذا المعنى هو الذي استقر عليه اصطلاح علماء الكلام من جميع فرق المسلمين.

والخليفة من يَخْلُفُ مَنْ قَبْلَهُ في موضعه ويقوم عند مقامه، والخلافة صفته، وفي القرآن الكريم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً^(٣)﴾.

والخليفة: الإمام الذي ليس فوقه إمام، وفي القرآن ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ^(٤)﴾.

والخلافة في المصطلح الخاص هي: النيابة عن الرسول (ص) في زعامته

١- الأحقاف: ١٢.

٢- يس: ١٢.

٣- البقرة: ٣٠.

٤- ص: ٢٦.

العامة للأمة في دينهم وديناهم.

وهي - بهذا المعنى - تصادق الإمامة في أكثر الموارد، والإمامة أعمّ منها بحسب المفهوم؛ فالرسول (ص) بذاته إمام وليس خليفة.
وفي القرآن الكريم عن نبيّ الله إبراهيم (ع): ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا^(١)﴾.

دور الإمامة في الإسلام:

وقد اتفقت كلمة المسلمين على أن الإسلام دين يحكم الحياة وينظمها، كما يوجّه الحياة الأخرى ويضمن سعادتها .. فلا بد في الإسلام من الرئيس الأعلى للحكم الذي يقوم باسم الإسلام، ولا بدّ من نصبه والخضوع لأمره.
ثم اختلفوا في من يجب عليه نصب هذا الرئيس الأعلى، وفي مدى مهمته التي يقوم بها.

فقالَت الجمهرة من المسلمين: إنها رئاسة دنيوية تنظّم شؤون الدنيا باسم الإسلام، ووفق تعاليمه، ولا دخالة لها في الدّين بأزيد من ذلك.
وعلى قولهم هذا فنصب الإمام شأن من شؤون الأُمّة، يقوم به أهل الحلّ والعقد منها على مبدأ الشورى، أو على مبدأ الانتخاب، فهو فرع من فروع الدين، ووجوبه وجوب تكليفي على المسلمين.

وقالَت الإمامية: إنها الرئاسة العامّة على الناس في جميع شؤونهم، ومرجعيتهم الكبرى في أمور دنياهم ودينهم، وزعامتهم المطلقة بعد فقد

زعيمهم الأعلى، ومرجعهم الأكبر الرسول العظيم (ص).
والإمام ينوب عن الرسول في كلّ ما له من وظيفة، وفي كلّ ما يقوم
به من مهمّة، وفي كلّ ما حمل من أعباء، باستثناء مهمّة الرسالة والتبوة،
فتلك خاصة لا يشاركه فيها أحد.

فإذا استثنينا مهمّة الرسالة والقوامة على الدين وعلى أحكامه في دور
التأسيس، فجميع مهمّات الرسول وواجباته الأخرى موكولة من بعده للإمام
ينوب عنه فيها، ويتحمّل أعباءها.

فالرسول هو الأمين الأول على الشريعة والحارس الأول للأحكام،
والقائم الأول على بلاغها وصيانتها، والإمام هو الأمين الثاني على الشريعة،
والحارس الثاني للأحكام، والقائم الثاني على بلاغها وصيانتها وتطبيقها ..
هو الأمين الحارس الدؤوب الذي يستلم أمانة السماء لأهل الأرض، ويقوم
على حفظها، ويرعاها حق الرعاية في أدوار بقائها.

والرسول هو المزكّي الأول لنفوس الأمة، والطبيب الأعلى لأمرائها،
يمدّها من زكاته ويميرها من طبّه ويشعّ عليها من روحه ومن رشدّه.
﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ
آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ^(١)﴾.

والرسول هو القدوة الأولى للأمة، والمثال الأعلى الذي برأه الله (تعالى)
لهم .. يصوغون عليه نفوسهم، ويقتفون أثره في خطاهم، ويقتدون به في

سلوكهم، والإمام هو المَرْكَبُ الثاني والطبيب الأعلى والقُدوة العظمى للأمة بعد فقدِ رسولها، تتبين فيه صفاته، ويتمثل فيه خلقه وسلوكه، ويشع منه رشدُه ونوره.

والرسول هو الزعيم الأول لحكومة الإسلام، والرئيس الأعلى للأمة وللمجتمع المسلم، وللمجتمع البشري كله -على أصدق التعابير وأوفائها بالمعنى وبالمهمة-، والقائد الأعظم لصفوفه، والمنظم الأول لحركته وحركة الحكم فيه، والعاقل الأول الذي يتجلى فيه عدل الله (سبحانه) في الأرض، ويتجسد فيه عدل الإسلام في الحكم، وعدل الرسالة في الصفات والخلال. والإمام هو الزعيم الثاني والممثل الصادق الكامل، الذي تتحقق فيه كل هذه السمات، وهذه المؤهلات سواء بسواء، دون نقص، ودون تفاوت.

ونتيجة لذلك؛ فالرسالة والإمامة كلاهما عهدٌ من الله (سبحانه)، ولن يكونا إلا بتعيين منه وجعل لمن يتحمل هذه الأعباء.

إنها أمانة الله ووديعته، فلا توضع إلا بيدٍ يأتمنها الله، ويعلم صدقها في القول والعمل.

والأمر في الرسالة ثابت لاخلاف فيه و ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(١). فالرسالة لا تكون إلا بجعل، والرسول لا يكون إلا بتعيين.

فإذا علمنا أن سبيل الإمامة هو سبيل الرسالة، وإذا علمنا أن الوظيفة مشتركة، أيقنا - دون شك - أن الإمامة كذلك لا تكون إلا بجعل، وأن

الإمام لا يكون إلا بتعيين.

ضرورة العلم والعصمة في الإمام:

وليس من المسلمين من يشك أن الشريعة أمانة الله لخلقه، فلا بد وأن تودع بيد رسول أمين معصوم، يتلقى الرسالة من الله كاملة لا نقص فيها ولا تحريف، ويسلمها إلى خلقه كاملة لا تنقص فيها ولا تحريف، والله (سبحانه) هو العليم بالسرائر المطلع على الحقائق، فلا بد وأن يختار لأمانته من هو أهل للأمانة، ومن تقوم على الخلق به الحجة.

والعباد -بدورهم- جاهلون، ومن أين لهم أن يعرفوا صحة الأمانة وصدق الأمين، إذا لم يعرفوا عصمته، ولم يستيقنوا بها؟

ومن طباعهم وخلائقهم: أنهم يقيسون الشيء بالشيء، ويحملون العمل على العمل؛ ولذلك فهم يرتابون في المبلغ، وفي صدق قوله لهم إذا وجدوا في بعض أقواله أو أفعاله ما يريب، أو ما يباين الدعوة والمناهج التي يدعوهم إليها.

ومن هذه الجهة؛ قال جمهور المسلمين بوجوب عصمة الرسول في التبليغ. والنظرة الصحيحة في الأسباب الآتفة الذكر، وفي غيرها، تحتم أن يكون الرسول معصوماً كاملاً العصمة في كل الحالات.

وليس من المسلمين من يشك أن نظام الحكم في الإسلام قائم على العدل الكامل الشامل الذي لا يحيف قيد شعرة ولا مثقال ذرة، ومن الواضح - أشد الواضوح - أن الضمان الأول والأكبر لتحقيق هذا العدل الشامل أن

يكون الرئيس الأعلى للحكم الإسلامي مثلاً شاخصاً للعدل الأعلى في نفسه، وفي خاصّته وعامّته.

وليس أدعى لانتقاص القانون، وامتهان حرمة من أن يكون القائم الأول عليه مخالفاً لنصوصه، ومن هذه الجهة وجب أن يكون الرسول(ص) هو رأس الحكم الإسلامي ما دامت حياته، لتوفّر هذا الضمان فيه.

فإذا أيقنّا أن الإمام هو الذي يستلم أمانة الله لخلقه بعد فقد الأمين الأول .. بعد فقد الرسول.

.. وإذا أيقنّا أن أهمية هذه الأمانة لاتزال هي أهميتها الأولى، وأن قدسيّتها لاتزال هي قدسيّتها - وإن انقضى دور التأسيس-، فيجب أداؤها للحاضرين والمستقبلين من الناس والأجيال، كما وجب أداؤها لمن سلف، وأن طباع الخلق وصفاتهم وخلائقيهم لاتزال هي الصفات.

.. وإذا علمنا أن زمام الحكم في الإسلام يستلمه الإمام بعد فقد الرسول، وأنه الرئيس الثاني للحكومة، والقائد الثاني للصفوف، والزعيم الثاني للحركة.

.. إذا علمنا ذلك، ثبت لدينا -دون شك- أن الإمام لابد فيه من العصمة التي تدعم حجته، وتثبت قوله، وتثبت حكمه، ولابد فيه من العلم الذي يستدّ حاجة العباد، ويكفي لسدادهم ورشادهم وتنظيم شؤونهم وتدبير أمرهم، وإلاّ لكان المنهج مختلاً، وكان التدبير ناقصاً، وتعالى الله، وتقدست شريعته، وعظم تدبيره عن سمات النقص واختلال المناهج.

لابد فيه من العلم والعصمة، وهذان هما الشرطان الأساس في فكرة الإمامة، أمّا بقية الشرائط التي يذكرها علماء العقائد فهي متمّمات ومكمّلات.

مصدر العلم والعصمة في الإمام:

لابد في الإمام من العلم، وإلّا لم تقم به حجة ولم تتحقق به غاية، ولا بد وأن يكون غير محتاج إلى غيره في ذلك، وإلّا كان ذلك الغير الذي احتاج هو إليه أحقّ منه بالإمامة، وفي القرآن الكريم:

﴿ أَمَّنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى، فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ (١) ﴾.

ولابد وأن يكون علمه غير مأخوذ عن تقليد ولا عن اجتهاد؛ لأنه إذا كان مقلّداً كان مرجعه أعلم منه، فهو أحقّ منه بالإمامة. وإذا كان مجتهداً؛ لم تجب طاعته على المجتهدين الآخرين الذين يخالفونه في الحكم، ولا على مقلّديهم، وهذا واضح أتمّ الوضوح، فلا بد وأن يكون علمه عن مصدر هو أرقى من الاجتهاد والتقليد.

إن الله الذي ارتضاه للحكم، وعيّنه للإمامة والزعامة، واختاره للأمانة، هو الذي يفيض عليه العلم ويمدّه بالعصمة. وفي القرآن يصف بعض العباد الذين شملتهم هذه العناية، يقول: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ

عِنْدَنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ^(١) ﴿

نتائج منطقية متسلسلة، يسلسلها العقل، ويقود إليها البرهان، ولا يشكّ فيها أحد يحترم فكره بعد أن يتبين معناها ويتحقق مبناها.
ولا يشكّ فيها أحد عرف الإسلام وعرف غايته وخبر استبطانه للأمر.

وفي القرآن الكريم:

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ، قَالَ: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا، قَالَ: وَمِنْ ذُرِّيَّتِي؟ قَالَ: لَإِنِّي آلُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ^(٢)﴾.

والآية الكريمة صريحة الدلالة على أن إمامة الناس جعل من الله (عز وجل)، وعهد يختص به من يشاء من عباده، ولعل في الآية إيماء خفية إلى أن الناس عبادٌ مربوبون لله، وهو - سبحانه - ربُّهم، ومدبّر أمرهم، فيكون نصب الإمام لهم حقاً خالصاً لله، لأنه (تعالى) وليّ أمرهم.

والآية صريحة الدلالة - كذلك - على أن هذا العهد المجعول من الله - سبحانه - لا ينال من كان ظالماً، أي ظلم كان، سواء أكان الظلم لغيره أم لنفسه، ومن يتعدّد حدّاً من حدود الله، أو واجباً من واجباته فقد ظلم نفسه؛ فلا يناله عهد الله.

والمعنى الصريح لذلك أن هذا العهد المجعول من الله لا ينال إلا المعصوم

١- الكهف: ٦٥.

٢- البقرة: ١٢٤.

الذي تصونه عصمته أن يرتكب ظلماً لغيره أو ظلماً لنفسه.

ومن المحال على حكمة الله (عز وجل) ومن الممتنع على شريعته أن يُسلّم قياد البشرية كلّها بيد من لا يُؤمّن أن يرتكب، أو يخون، أو يخالف بعض أحكام الله عامداً أو مخطئاً.

ومن المحال على حكمة الله (تعالى) ومن الممتنع على شريعته، أن يجعل قياد الأمة بيد من لا يُؤمّن عليه أن يرتكب أو يخون أو يخالف، ثم تفرض شريعة الله على الأمة طاعته ونحرّم الخروج عن أمره قيد شعرة، فإن ذلك تناقض صريح.

وإذا كان في الأمة من يسدّده إذا أخطأ كان أولى منه بالإمامة ووجوب الطاعة بنص الآية الكريمة المتقدمة:

﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى، فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ ﴾ .

إنها نتائج منطقية يسلسلها لنا العقل، ويقودنا إليها البرهان، واحدة واحدة، وثبتتها لنا الحجج الناصعة القاطعة، من الكتاب وأقوال الرسول (ص)؛ حتى لانشكّ، ولايجوم حولها ريب. وهذه النتائج المنطقية هي حصيلة مذهب أهل البيت (ع) في عقيدة الإمامة والعصمة.

لابد من نصب الإمام ومن وجوده بعد الرسول (ص) لحفظ الشريعة التي أسستها النبوة، وما دامت شريعة الله (تعالى) شريعة للعصور، ولايختص بها عصر الرسالة وحده، وحفظها وضمان غايتها، وبلاغها للناس واجب على الله (جلّت حكمته) في أدوار بقائها، كما هو واجب عليه في دور

تأسيسها.

ولا بد من نصب الإمام ومن وجوده بعد الرسول (ص) لتربية الأمة وتزكية نفوسها في جيلها المقبل، فإن غاية الرسالة من تزكية الناس وتطهير قلوبهم وأرواحهم لا تتأذى بتربية الناس في عصر الرسول (ص) وحده.

ولا بد من نصب الإمام ومن وجوده بعد الرسول (ص) ليتسلم أمانة الحكم في الإسلام، ويحقق العدل الأعلى بين الناس.

إن هذه الغايات وهذه الضرورات لا تتأذى إلا بنصب الإمام ووجوده بعد الرسول (ص)، فيكون نصبه وتعيينه ضرورة إسلامية لا بدّ منها.

ثم لا بد في الإمام المنصوب المعين من العلم، ولا بد فيه من العصمة، لأن تلك الغايات الإسلامية، وتلك الضرورات لا تتأذى إلا بهما، فهي ضمان إلهي لغايات الإسلام وضروراته، وهي عقيدة لا يسع الناس جهلها، ولا الانحراف عنها، ولا مكان فيها لاجتهاد ولا خيرة.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا^(١)﴾

معنى العصمة:

والعصمة هي الدرجة العظمى من العدل الإسلامي في الفرد، هذه الدرجة الكبرى التي توظف مشاعر المعصوم وركائزه، وتعتلي بدوافعه

وبواعثه، وتسمو بها نفسه وعقله وملكاته وأشواقه وإرادته، فلا يهبط، ولا ينحرف، ولا يشذ.

والعصمة - كما قلت في بعض أحاديثي - (رصيد نفساني كبير يتكون من تعادل جميع قوى الإنسان النفسانية وبلوغ كل واحدة منها أقصى درجة يمكن أن يبلغها الإنسان، ثم سيطرة القوة العقلية على جميع هذه القوى والغرائز والركائز سيطرة كاملة حتى لا تشذ عنها في أمر ولا تستقل دونها في عمل.

(هذه الحصانة الذاتية التي يرتفع بها الإنسان الأعلى عن الاتضاع في طبيعته، ويمتنع بها عن الانزلاق في إرادته، ثم عن الانحرافات والالتواءات التي ترسب في منطقة اللاشعور وتحول - كما يقول العلماء النفسانيون - عُقْدًا نفسية تتحكم في دوافع المرء وفي سلوكه، وفي اتجاهاته وملكاته، وتسوقه من حيث لا يريد إلى النشوز عن الحق والشرود عن العدل.

(هذه الحصانة الذاتية التي توقظ مشاعر الإنسان الكامل فلا يغفل، وتعتلي بملكاته وأشواقه فلا يزلق ولا يكبو، والتي تكفل له صحته النفسية من كل وجه، هذه هي العصمة التي يشترطها مذهب أهل البيت في الرئيس الأعلى لحكومة الإسلام^(١)).

العصمة هي الدرجة العظمى من العدل الإسلامي في الفرد.. هي الأثر الكامل الذي يتركه الالتزام الكامل بمناهج الإسلام وعقائده في نفس الفرد

وقواه ومشاعره.

إن الفرد قد يؤمن بالدين ويلتزم به التزاماً متوسطاً، فتتأثر به نفسه وقواه ومشاعره تأثيراً متوسطاً كذلك، وتأثره بإيمانه لا يمنع عليه أن يواقع الخطيئة، أو يخلّ بالواجب عامداً، فهو مؤمن مرتكب، وهذه هي حال الكثرة من الناس.

وإن الفرد قد يؤمن بالدين، ويلتزم به التزاماً قوياً بالغاً، فتتأثر به نفسه وقواه ومشاعره تأثيراً قوياً بالغاً كذلك، وهذا التأثير القوي البالغ يمنع عليه أن يواقع الخطيئة أو يخلّ بالواجب عامداً، وإذا طرأت عليه في بعض الأحيان طوارئ من الضعف الإنساني، فواقع الخطيئة أو أخلّ بالواجب فإنه سرعان ما ترجع إليه قوته الإيمانية فيسترد الموقف، ويبادر إلى التوبة، ويمحو بها الأثر الطارئ:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ^(١) ۝ ﴾

وهذه هي درجة التقوى، ومنزلة العدالة على تفاوت بين الناس في درجاتها.

أما الإنسان الأعلى.. أما الإنسان الكامل الإنسانية، فإنه يؤمن بالدين، ويلتزم به التزاماً كاملاً، وينصهر به انصهاراً شاملاً، حتى يصبح حقاً بجسداً، وعدلاً شاخصاً، وصدقاً ماثلاً، فلاميل، ولا ضعة، ولا نشوز، بل توازن

شامل كامل، ويقظة شاعرة حية، وسموّ في كل معنى، وفي كل اتّجاه، وهذه هي درجة العصمة، فالعصمة فيض إلهي يفيضه - سبحانه - على النفوس السامية التي تستوعب كلمة الله وتستوعب رشدّه، وفيضُ الله ومواهبه لاتعطى محابة، ولا تؤتى جزافاً دون مؤهّلات واستعدادات، والله أعلم حيث يضع هبته ويؤتي فيضه.

لا جبر في العصمة:

والعصمة حصانة نفسانية ذاتية - كما قدّمت - تُعدُّ لها مؤهّلات في نفس المعصوم، وتمهّد لها كمالات في ذاته، ثم يتمّها فيض الله (تعالى) وهبته لتلك النفس السامية الطيّعة، وهي لاتوجب للمعصوم جبراً على طاعة، ولا اقتساراً عن معصية، كما يظنّ بعض الناس، فيُشكلون ويستشكلون. ولكنّها نفس قدسيّة تسمو عن الضّعة، وعقل منير يجلّ عن الهبوط، وإرادة مهيّدة تعظم عن الانزلاق، وروح عظيمة تكبر عن الاتجاهات المنحرفة والغايات الصغيرة، وقلب متّقد الشعور والإحساس لاتجد الغفلة ولا النكسة ولا الخطأة إليه سبيلاً.

وكان الأمر قد التبس على هؤلاء الناس في ذلك من جهة القول بعصمة الملائكة، والعصمة فيهم قد تفيد معنى الجبر والقسر. وهذا المعنى في الملائكة آت من قبل خلوّ الملك في تكوينه من عوامل الشهوة والغضب والانفعالات والدوافع التي تدفع بالإنسان إلى الشر، فهي قوى مجبولة على الخير، ولا نزوع فيها إلى الشرّ، أقول: وهذا المعنى في الملائكة آت من هذه

الناحية، لا من جهة معنى العصمة.

إن معنى العصمة واحد، هو الحصانة عن الوقوع في الذنوب، والاختلاف إنما هو في الأسباب والمعطيات، ومرجعها الأول هو فيض الله الذي يمدّ كلاً بما يستحق.

الاعتقاد بالإمامة والأئمة:

هذه هي فكرة الإمامة والعصمة في الإسلام، نيرة بنور الإسلام، جليلة بجلاء حكمته، واضحة بوضوح مقاصده وغاياته، وعلى نور هذه الفكرة وجلاء أهدافها يجب أن نسير في بحث الإمامة، وفي عقيدتنا بالإمام وفي سلسلة الإمامة، فالإمام مَنْ عيّنه الله (تعالى)، وعَهَدَ إليه بنصٍّ صريحٍ واضحٍ، وَمَنْ استجمع شرائط التعيين، فهو المعصوم الذي ليس في الأمة أعلم منه، ولا أهدى للحق ولا أبرّ ولا أتقى.

وأول السلسلة الطاهرة هو علي (ع) الذي جعلته آية المباهلة نفس الرسول (ص)،^(١) ونفس المعصوم معصوم.

١- وهي قوله (تعالى): ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ: تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران: ٦١). أخرج مسلم في صحيحه في كتاب (فضائل الصحابة) باب (من فضائل علي بن أبي طالب (ع)) عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه - من حديث - ، ولما نزلت هذه الآية (قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم) دعا رسول الله (ص) علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: اللهم هؤلاء أهلي. ورواه الترمذي في صحيحه (ج ٢ ص ٣٠٠) وأحمد بن حنبل في مسنده (ج ١ ص ١٨٥) والسيوطي في الدر المنثور في تفسير آية المباهلة من سورة آل عمران، وقال أخرجه ابن المنذر والحاكم والبيهقي في سننه

وجعلته آية التصديق بالخاتم^(١) شريكاً للرسول (ص) في ولايته على الأمة.

وجعله حديث الغدير^(٢) مولى كل مؤمن ومؤمنة.
وجعلته أحاديث الرسول قرين الحق يدور معه حيثما دار^(٣) ،
وباب مدينة العلم أنى توجه^(٤) ، وبمنزلة هارون من موسى من

عن سعد بن أبي وقاص، كما روى القصة كثير من المفسرين وأئمة الحديث. راجع كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ١ ص ٢٤٤-٢٥٠.
١- وهي قوله (تعالى): ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ (المائدة: ٥٥).

قال السيوطي في (الدر المنثور): أخرج الخطيب في المتفق عن ابن عباس قال (تصدق علي (ع) بخاتمه وهو راعك فقال النبي (ص) للسائل: من أعطاك هذا الخاتم؟ قال: ذاك الراعي فأنزل الله ((إنما وليكم الله ورسوله)) . وروى القصة بطرق عديدة أخرى كما رواه غيره من الرواة والمفسرين. راجع كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ٢ ص ١٣ وما بعدها.

٢- حديث الغدير وقول الرسول (ص) فيه (من كنت مولاه فعلي مولاه) مما تواتر بين المسلمين ورواه من الصحابة مائة وعشرون -حسبما أحصاه صاحب كتاب الغدير- ومن التابعين أربعة ومثانيون ومن طبقات العلماء في مختلف القرون ٣٥٣؛ إذ رواه أحمد بن حنبل من أربعين طريقاً، والطبري من نيف وسبعين، وابن عقده من مائة وعشرين. يراجع كتاب الغدير ج ١ كله للوقوف على التفصيل.

٣- روى الحاكم في المستدرک على الصحيحين ج ٣ ص ١٢٤ عن النبي (ص) قال: (رحم الله علياً اللهم أدر الحق معه حيث دار) ورواه الترمذي في صحيحه كما روى الخطيب البغدادي في تاريخه ج ١٤ ص ٣٢١ بسنده عن أبي ثابت مولى أبي ذر قال: دخلت على أم سلمة فرأيتها تبكي وتذكر علياً (ع) وقالت: سمعت رسول الله (ص) يقول: (علي مع الحق والحق مع علي ولن يفترقا حتى يرثي علياً الحوض يوم القيامة).

٤- روى الحاكم في المستدرک على الصحيحين ج ٣ ص ١٢٦ بسنده عن مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول الله (ص): (أنسا مدينة العلم وعلي باهما، فمن أراد المدينة فليأت الباب). وقال الحاكم: هذا

الرسول (ص)^(١) وبقية السلسلة هم المعصومون (ع) الذين أجملتهم آية التطهير^(٢) ، وقرناء الكتاب لن يفترقا حتى يردا على النبي (ص) الحوض في حديث الثقلين^(٣) ، والذين فصلتهم السنة المطهرة، وعرفتهم وعرفت سماتهم

حديث صحيح الإسناد، ورواه بطرق أخرى كما رواه غيره من أئمة الحديث. يراجع كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ٢ ص ٢٥٠ وما بعدها.

١- حديث المنزلة الذي يقول فيه الرسول (ص) لعلي: (أنت مبي بمنزلة هارون من موسى)، حديث متواتر بين المسلمين ومن رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب (مناقب علي بن أبي طالب)، ومسلم في صحيحه. كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل علي بن أبي طالب، وابن ماجه في سننه ص ١٢ ، وأحمد بن حنبل في المسند ج ١ ص ١٧٤ وغيرهم .

٢- هي قوله (تعالى) في سورة الأحزاب (آية: ٣٣) ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾. روى الترمذي عن عمرو بن أبي سلمة ربيب النبي (ص) قال: لما نزلت هذه الآية على النبي (ص): (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) في بيت أم سلمة فدعا فاطمة وحسناً وحسيناً فجعلهم بكساء، وعلي خلف ظهره، ثم قال: (اللهم هؤلاء أهل فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. قالت أم سلمة وأنا معهم يا نبي الله؟ قال: أنت على مكانك وأنت إلى خير) صحيح الترمذي ج ٢ ص ٢٠٩ كما رواه غيره مثل مسلم في صحيحه والحاكم في المستدرک وصححه، والسيوطي في الدر المنثور وابن حجر في تهذيب التهذيب وغيرهم، راجع فضائل الخمسة ج ١ ص ٢٢٤ وما بعدها.

٣- روى الحاكم في المستدرک ج ٣ ص ١٠٩ بسنده عن زيد بن أرقم قال: لما رجع رسول الله (ص) من حجة الوداع ونزل غدیر خم، أمر بدوحات فقمم فقال: (كأني قد دعيت فأجبت، إني قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله وعترتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض. ثم قال (ص): إن الله (عز وجل) مولاي وأنا مولى كل مؤمن. ثم أخذ بيد علي (ع) فقال: من كنت مولاه فهذا وليه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه).. وذكر الحديث ثم قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، وروى حديث الثقلين جميع أئمة الحديث كمسلم في صحيحه وأحمد بن حنبل والبيهقي والدارمي والمتقي في كتر العمال وغيرهم، راجع كتاب فضائل الخمسة ج ٢ ص ٤٣ وما بعدها.

وأسماءهم وأعيانهم النصوص المتواترة التي لم تدع شكاً لذي شك، ولا جدالاً لذي جدال.

وآخريهم هو النور الذي تعاقدت الأديان على التبشير به، والحق الذي تواترت الأدلة على التعريف به، والعدل الذي تسالت الأمم على انتظاره.

هذه هي فكرة الإمامة والعصمة، وهذه هي السلسلة المطهرة نور من نور، وهدى من هدى، ودليل من دليل، وقبس من قبس، عرفنا الله حقهم، وثبتنا على ولائهم وغداًنا حبهم.

﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ^(١) ﴾ .
 ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، إِنَّكَ أَنْتَ
 الْوَهَّابُ ^(٢) ﴾

١_ آل عمران: ٥٣.

٢_ آل عمران: ٨.

دعونا يا أدياء^(١)

دعونا يا أدياء..

دعوا الإسلام يضمّد جراحه، ويؤلّف شتاته..

دعوا المسلمين يُجمعوا أمرهم، ويوحّدوا كلمتهم، ويثبّتوا أقدامهم..

دعونا يا أدياء..

دعوا دين الله يأسُ جراحه التي تركتها المناحرات الشديدة بين أبنائه،
والغارات اللئيمة من أعدائه.

دعوا الغيارى من أنصار الله ، وحملة الحقّ ، تُنبه الراقيدين، وتدعو
الشاردين، فقد هُدّد الحق، وأنذرت الكرامة، واقتحمت الحدود، ولم يبق
مساغ للغفلة، ولم يبق مجال للإبطاء.

دعوا أنصار الله الغيارى تُجمّع أوصال الأمة المتفرقة، وتؤلّف قواها
المبعثرة، وتسمعها - من جديد - قوله الله (تعالى) في كتابه العزيز:
﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ^(٢)﴾.

١- كتبت جواباً عما كتبه الجبهان في مجلة (راية الإسلام) التي تصدر في الرياض من التهجم على أئمة أهل البيت (ع) وشيعتهم.

٢- الأنفال: ٤٦.

دعوا المصلحين يسمعوا الأمة هذه القولة الكريمة، وأخواتها من آيات الله بلهجة جديدة وبلحن جديد ..

.. بلحن جديد هو لحن السماء يوم أنزلت هذه الآيات ، ولهجة جديدة هي لهجة الرسول (ص) يوم قرأها أول مرة على أسلافنا الصالحين من المؤمنين.

دعونا يا أدعياء..

إن الأمر أشدّ خطراً من أن نشتغل عنه بكم، أو نكثرث لأغاليطكم، وإن أقوالكم أتفه وأسفه من أن تصرف المسلمين عن عمل ، أو تؤيسهم من أمل..

دعونا، فلسنا بمبتعدين عن إخوان كرام أعزة علينا، مدّوا إلينا أيديهم، وصافونا بقلوبهم، وأيقنّا بصدق العزيمة فيهم .. لسنا بمبتعدين عنهم، وليسوا بمبتعدين عنا أبداً، وإن جُدعت أنوف، ووُغِرت صدور.

دعونا يا أدعياء ..

دعوا أمة القرآن تتعارف وتتآلف، وتتصافح كفاً بكفٍ، وتتلاثم فماً بفمٍ، فقد آن لها أن تفيد من عبّر الماضي ما يقبها أخطار الحاضر وأخطاء المستقبل، وقد آن لها أن يفهم بعضها بعضاً، وأن يشدّ بعضها أزر بعض، وآن لها أن تعي أن منابذة بعضها بعضاً إنما تعني هدم كيان الإسلام، ونسف هيكلة العام.

دعوا جنود الله تناصر، وكتائب الله تتآزر، ولا تشغلوها بهرير.. وعواء.. فقد عرف المسلمون - سنّيهم وشيعيّهم - قيمة القول الذي

تقولون، وضعف الهدف الذي تستهدفون.. نعم، وعرفوا القوى الدافعة والأيدي المحرّضة التي استخدمتكم لهذا الإفك ، وحرّضتكم على دسّ هذه السموم.

لقد عرف المسلمون أجمعون أكتعون، وعرفت حكومات الإسلام، وعرفت حكومتكم المسلمة قيمة ما تقولون، ولستم بالغبين -بعون الله ويقظة أنصاره- ما تأملون.

دعونا، فلستم مُلقين علينا حديثاً جديداً لم نسمعه منكم، كالحبوان يجترّ أخبث ما في أمعائه.

وما ضرّ المطهّرين من آل رسول الله (ص):؟ أن يجهل عليهم جاهل، أو ينال من قدسهم نائل، وهم وديعة النبوة وقرناء الكتاب - بنصّ الرسول (ص)، واعتراف جميع المسلمين - .

وما ضرّ علياً والميامين من أبنائه (ع):؟ أن تنالهم الفئة التي:

كُنْتُ عن النبي بآبن عمّه فهي تريد شتمه من شتمه

نعم، وما ضرّ الإمام جعفر بن محمد الصادق (صلوات الله وسلامه عليه)؟ وما ضرّ آباءه وأبنائه المصطفين (ع):؟ أن يفترى عليهم مفترٍ ، أو يمتري فيهم ممتري، فقد قال شائنون في جدهم الأعظم (ص): إنه ساحر كذاب ، وقالوا: إنه شاعر مجنون .

وقال ملحدون في الله - تبارك اسمه -: إنه وهمٌ اختلقه الإنسان..

وقالوا: إنه خدعة وضعها الإقطاع يمدّ بها نفوذه ويحرس حدوده..

وتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وقال المبشرون المعاصرون في الرسول (ص) ما هو أمضّ وأنكى.
 ولقد كان الاستعمار هو الدافع إلى هذا القول على ألسنة عملائه من
 المبشرين، فلا نستكثر على الاستعمار أن يقول في حفيد الرسول (ص)
 ما أوحى على ألسنة عملائه من...
 دعونا يا أدعياء ..

إن شيعة أهل البيت (ع) قد أمرهم كتاب ربهم -إذا مرّوا باللغو- أن
 يمرّوا كراماً، و -إذا خاطبهم الجاهلون- أن يقولوا سلاماً.
 بلى! لقد عودها القرآن الحكيم على هذا الخلق الكريم..
 .. الكتاب الحكيم العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من
 خلفه، والذي تستمسك به، وتدين الله بتحليل حلاله وتحريم حرامه.
 وتقول: إنه معجزة الله الخالدة لشريعة الله الخالدة، فلا تغيير فيه
 ولا تحريف.

هذه عقيدتها في القرآن، وهي مشروحة مثبتة في كتبها، فافهموا - إن
 شئتم تفهمون -، أو ارغموا - إن شئتم تُرغمون -.
 وإن الشيعة تؤمن إيماناً ثابتاً لا تزلزل فيه، ولا اضطراب معه، ولا التواء
 عنه، بأن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له في وجوب وجوده، ولا شريك له
 في كماله، ولا شريك له في ألوهيته، ولا شريك له في ربوبيته، ولا شريك له
 في تقديره وتدبيره، وهو أحد في الصفات وفي الأفعال، وهو منزّه عن
 الحدود، منزّه عن الحاجة، منزّه عن العلة، ليس بجسم، وليس كمثله
 شيء، ولا تدركه الأبصار وهو يُدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير.

وهي تشهد كما ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾^(١).

وتؤمن كما ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾^(٢).

هذه عقيدة الشيعة، وهي مشروحة مبسطة في كتبها، وقد عرفها فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر^(٣) ، وعرفها المسلمون أجمعون لما مدّوا أيديهم إلى الشيعة، وصافحوها مصافحة الأخوة، وحيّوها تحية الإيمان، فاجحدوا أنتم - إن شئتم الجحد - .

نعم، تقول الشيعة بالإمامة..

.. بإمامة علي (ع) من بعد الرسول (ص)، وإمامة الأحد عشر من أبنائه المطهّرين (ع) من بعده، نوراً بعد نور، وهادياً بعد هاد، وأدلتهم على هذه العقيدة مسطورة، وكتبهم فيها مشهورة ليس فيها اختفاء ولا التواء، فليقرأها من يشاء القراءة، وليتقدّها من يريد النقد .

١- آل عمران: ١٨-١٩.

٢- البقرة: ٢٨٥.

٣- المقصود هو فضيلة الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر ، وفنّاه المعروفة في اعتبار المذهب الشيعي الاثني عشري مذهباً خامساً للإسلام ، وتصحيح أتباعه والعمل به مع المذاهب الإسلامية الأربعة المعروفة.

ولا تقول الشيعة بتأليه بشر، وتبرأ ممن يجعل الله شريكاً في خلق أو رزق،
وتتحدّى الكاذبين أن يقيموا بينة على ما يقولون .

رَبَّنَا بَلِّغْنَا، هنا غلاة غلت في دينها غير الحق، وقد حكمت الشيعة الإمامية
الاثنا عشرية بكفر هذه الطائفة، وذرت شبهاتها واحدة واحدة.

وحُكِّمَهُمْ بكفر هذه الطائفة وبنجاستها موجود في كتب الفقه، معروف
عند المطلع، وأجوبتهم عن شبهاتها مذكورة في كتب التوحيد وفي كتب الفلسفة،
ميسورة لمن أراد التبين .

وليس عند الشيعة علوم باطنة تخفيها عن الناس، ولكنها تقول كما
قال الله (عز اسمه):

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ، مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ،
وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ. فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ
وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ، كُلٌّ
مِنْ عِنْدِ، وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (١)﴾.

أما الهراء والافتراء الذي شحنت به صدوركم وسطوركم، فإن الله -
وحده- هو الحسيب على الكاذبين، العليم بما في صدور العالمين .

دعونا يا أدياء..

فقد عرفنا هدفكم وهدف أسياذكم، ولن نمكّنكم - إن شاء الله - من
بلوغه أبداً، وسيكون - بإذن الله - سكوتنا عنكم هو الجواب الفاصل والسهم
القاتل.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

المجتمع في الإسلام

أود أن أفتح حديث الليلة عن المجتمع في الإسلام، وهو الموضوع الذي اقترح الأعضاء أن أتحدث إليكم عنه، وهو موضوع واسع الأطراف، كثير الشعب، لا يتسع له كتاب ضخمة، فضلاً عن حديث في موقف.
..أود أن أفتح حديث الليلة بملاحظة صغيرة حول هذا الإنسان:
..حول هذا الكائن الغريب الأطوار.

إن هذا المخلوق يأتي بالعجيب المدهش من النتائج إذا هو عرف السبيل إلى الفكرة، واستبان المعالم في الطريق، ثم هو يضل عن أوضح الواضحات، وأجلى الجليات في ميادين المعرفة، وليس بينه وبين النتيجة القطعية إلا نظرة يتجرد فيها عن مألوفاته.

الإنسان وما وراء المادة:

سار الإنسان مع المنطق المحسوس، ومع التجربة، ومع الملاحظة الدقيقة في ميادين المادة: ميادين العلم الحديث، فأتى بالعجائب المحيرة للعقول، والمعجزات المذهلة للألباب، وهو لا يزال يتقدم في طريقه هذا، ويأتي في كل يوم بالخير المذهل، وبالنتائج المبرورة المشكورة، لأن المنطق المحسوس والتجربة والملاحظة الدقيقة هي السبيل المضمون الصحة إلى النتيجة

الصحيحة في ميادين المادة .

وطلب هذا الإنسان أن يسير مع هذا المنطق المحسوس، ومع التجربة والملاحظة الحسية الدقيقة في معرفة ما وراء المادة، وكان من الضروري أن تقف الآلات والأدوات المادية في هذه الميادين، لأنها ليست من مجالها، ووقف هو لمّا وقفت أدواته وآلاته، وبقي يتخبط حائراً سادراً، ولو أنه أنصف في النظر، لعلم أن المنطق المادي لا سبيل له في غير المادة، وأن للمعرفة في هذه الميادين منطقاً آخر وأدوات غير هذه الأدوات.

إن مبضع الجراح، ومصهر الكيموي، وميزان الفيزيوي، ومنظار الفلكي، ومجهر المحلل، ومختبر العالم، لا يمكن لها أن تتناول غير المادة، وإن ضاعفنا قوتها مليون ضعف أو مائة مليون، وهذا واضح لا يشك فيه أحد من الناس.

وزاد الإنسان خطوة على ذلك فأنكر أن يكون للمعرفة طريق غير الحس والتجربة، وغير الأدوات التي يتخذها العلم المادي وسيلة لمعرفة الماديات، ونتيجة محتومة لذلك: أنكر وجود ما وراء المادة، وبقي حائراً في تعليل وجود هذا الكون ووجود الحياة .. يفترض الفروض ثم يُبطلها، ويتوجّه إلى جهة ثم ينصرف إلى سواها، فهو في ذنبه دائمة، وفي ظلمة قائمة.

واتهم العلم بأنه ينكر ما وراء المادة، والعلم بريء من هذا القول، براءة الذئب من دم يوسف - كما يقول القدماء-، لأن العلم لا يدّعي ماليس له، ولا يقول كلمته فيما يخرج عن اختصاصه، وإلاّ انقلب العلم جهلاً.

أرأيتم؟ .. هذه وجهة الإنسان في استجلاء هذه الحقيقة الواضحة، أضاع الوسيلة فأضاع النتيجة، وليس بينه وبين الواقع إلا أن يراجع حساب الأرقام فيعرف خطأه ويصحح نظره ويسير مع العقل الأمين.

الفلسفة الوضعية في الميزان:

وكانت هذه الفكرة مفتاحاً لسلسلة من الأفكار سُمّاها الفلسفة الوضعية، وبنّاها على إنكار كل شيء وراء المادة، والمنطق الصحيح يحاسبه على كل حلقة منها، وعلى كل نتيجة توصله إليها.

ومن البحوث التي أقامها على هذه الفكرة بحثه في الاجتماع، وفي الحياة، وفي الإنسان، وفي شؤونه وأخلاقه، فقد فسّرّها تفسيراً مادياً خالصاً لاصلة له بروح، ولا بغيرها من عالم ما وراء المادة، واستخلص على هذا البناء نتائجه ووضع أحكامه.

ولا أريد الإطالة في هذه الناحية، فقد استوفيت الكلام عنها في أحاديث أخرى خصّصتها في هذا الموضوع.

وحسبي أن أشير إلى أن هذه الناحية فرع من فروع النظرية الوضعية التي تنكر ما وراء الحسّ وما وراء المادة، فإذا بطل الأصل بطل الفرع.

وحسبي أن أقول: إن إنكار ما وراء الحسّ بذاته يهدم أساس الفلسفة الوضعية، لأنه لا يقوم على دليل محسوس.

وحسبي أن أكرر هنا ما قلته في بعض أبحاثي للموضوع.

(لماذا ينكرون أن يكون للمعرفة طريق غير الحسّ والتجربة؟! وهل من

الممكن أن تقوم فلسفة ما على الحس والتجربة وحدهما، وحتى إذا كانت تلك الفلسفة تعالج ناحية مادية خالصة؟!

(إن الإحساس لا يعدو أن يكون تصويراً للشيء المحسوس، وإن التجربة — في كثير من موارد — لا تتجاوز أن تكون تكراراً لهذا التصوير، ومقارنة بين ملامح الصور، أما مطابقة الصور لواقع الشيء ولصفاته الحقيقية فهي محتاجة إلى مصدر آخر هو أوثق — لدى العقل — من الحس ومن التجربة، وأما التجربة والتعميم، واستنباط حكم عام شامل من الموارد الخاصة التي أدركها الحس، ووقعت عليها التجربة، فهو مفتقر إلى عملية عقلية خالصة، وتدخل قوانين ضرورية لا يشك فيها إنسان ولا تفتقر إلى إثبات.

(وقاعدة: ” إن التجربة هي مصدر المعرفة الحقيقية “ .. هذه القاعدة التي غلا فيها التجريبيون، فأنكروا أن يكون للمعرفة طريق سواها، ثم أمعن الوضعيون منهم في الغلو، فأنكروا أي شيء لا يناله الحس، وأي حقيقة لا تخضع للتجربة.

(أقول: وهذه القاعدة ذاتها، أليس من حق الناقد الحر أن يسأل عن طريق إثباتها للإنسان؟

(أهى التجربة ذاتها؟

(إن الشيء لا يمكن أن يثبت نفسه!!

(وإذن فلا محيد للوضعيين من الاعتراف بأنها ضرورية لا تفتقر إلى

إثبات، ولا محيد لهم من الاعتراف بأن الإنسان يملك ضروريات أولية يرجع

إليها في إنشاء معرفته هي قبل التجربة، والتجربة إحدى نتائجها أو هي إحداها^(١)).

الإنسان والمادة:

أما حديث أن الإنسان مادة خالصة ولا شيء فيه غير المادة، فقد لخصته بقولي عنهم:

(الإنسان حيوان ..

(فهو ماديّ إذن ..

(ماديّ بلحمه ودمه وجميع قواه وأجهزة نشاطه. وهل للحيوان تأريخ غير تأريخ المادة. تأريخ القوت وضروب طلبه، والكدح الشديد فيه والتخاصم عليه، والتنافس في أمره، وملابسات ذلك وفروعه.

(ضعوا الإنسان في المختبر ليحلّله العلم، فهل يجد سوى الفسفور والآزوت والكبريت والنحاس والحديد والكالسيوم والمغنيسيوم وأخواتها من عناصر المادة؟

(فمسألة الإنسان الأولى مسألة مادة محض، ومسألة اقتصاد على الخصوص، وكلّ ما يجدّ سواها فإنما هي فروع، وإذا انتظم الاقتصاد انتظمت فروعه.

(هذا هو قولهم).

ثم قلت: (ويكفي لدحض هذه المزاعم أن يتصوروا أن الإنسان ليس حيواناً فقط.

(ويكفي لدحضها أن يتصوروا أنه ليس مادياً فقط.

(يقولون: ضعوا الإنسان في المختبر ليحلّله العلم، فماذا يضعون منه؟
(يضعون جسمه بعظمه ولحمه ومخه وعصبه، ومن يشكّ في أن هذه
مادية؟

(أفيضون في المختبر المادي نفسه وروحه وقواه المختلفة وإرادته
وعقله وتفكيره، وباقي مميزات إنسانيته؟
(أفيضون هذه في المختبر أيضاً؟! وماذا يحلّل المختبر منها وهو لا
يتناول غير المادة؟

(ليضعوا في المختبر إنساناً ميتاً، وليتبيّنوا ماذا نقص بموته من عناصره
الأولى يوم كان حياً، ثم ليبحثوا في ركام هذه المادة عن مصدر نشاطه الأول
وهموده الأخير.

(بل ليلتقطوا عناصر الإنسان الحرة الطليقة وهي موفورة في تراب
الأرض - كما يقول العلم- ليجعلوا من هذه العناصر العشرين مقاديرها
الموجودة في بدن الإنسان ثم ليقيموا منها هيكلأً إنسانياً كاملاً بأجهزته
ومقوماته وجميع خفاياه وخلاياه، وهو أمر غير شاقّ على العلم فيما أعتقد.

(بهذه التجربة وحدها سيجدون الفارق الأصيل بين الإنسان الطبيعي
المخلوق الضخم، وبين الإنسان المادّي الذي يخضع للمختبر، ويوزن بالكيلو
والغرام.

(وبهذه التجربة وحدها سيجدون الفارق الأصيل بين الأشياء الطبيعية التي تحمل سرّ الحياة وتنقله إلى أعقابها، وبين مشابهاها مما يصنعه الإنسان، وتنتجه معاملته، وإن اتفقت معها في المادة والتركيب والمقدار.)
(سيجدون أن المسألة مسألة تكوين وإحياء، وليست مسألة هندسة وبناء^(١)).

الإسلام والإنسان:

الإنسان جسد وروح..

هكذا يقول الإسلام، وهكذا يؤكد المنطق الصحيح، وهكذا تثبت موازين الحقائق.

نعم. الإنسان جسد وروح، جسد يتألف من ذرات المادة، وجُزئاتها، وروح من عالم ما وراء المادة:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ^(٢) 》.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ^(٣) 》， هذا هو نصيب الإنسان من المادة.

” فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي “ هذا هو نصيبه مما وراء المادة.

١- المصدر السابق: ص ٥٥ - ٥٦.

٢- ص: ٧١-٧٢.

٣- الحجر: ٢٨-٢٩.

ومن هذين الخليطين يتألف كيان الإنسان وتتقوّم وحدته، وعلى هذه الوحدة قام الكيان وقامت الحياة، كما اقتضت الحكمة الخالقة، لا استقلال لروح عن جسد، ولا غناء بجسد عن روح، ولا انفصال لأحدهما عن الآخر مادامت الحياة.

وعلى هذه الوحدة قامت نظرة الإسلام كما اقتضت الحكمة المشرّعة، فلم يفصل الإنسان جسداً عن روح أو روحاً عن جسد، ولم يعالجه مِرْقاً لاصلة بين أبعاضه - كما صنعه المشرّعون الآخرون -، وعلى هذه النظرة سار الإسلام في كل ما وضعه للإنسان من حكم، وما شرّعه للحياة من نظام، وما وصفه لأدوائه من علاج، وما جعله لمشكلاته من حلّ.

الإسلام وركائز الاجتماع الإنساني:

والاجتماع في الإسلام بعض نواحي الإنسان التي تناولها بالوصف والتحديد والتشريع على هذه النظرة الأصيلة التي لا يسوغ أن يحاد عنها ولا يمكن أن تحيد.

وركائز الاجتماع أصيلة في كيان الإنسان، عميقة الجذور في غرائزه وطباعه، وقد قال كثير من علماء النفس: الاجتماع غريزة مستقلة من غرائز الإنسان، ثابتة لعامة أفرادها، لازمة له في جميع أدواره، لم تنفصل عنه، ولم ينفصل عنها، حتى في عهود الغابات والوحشية، وإن كان أثرها ضعيفاً في تلك العهود.

وللإنسان - وراء ذلك - مجموعة من الركائز النفسية الاجتماعية،

تعمل على لفّ الإنسان بالإنسان، وضمّ بعض أفراده إلى بعض، وعلى هذا أسّس العلماء النفسانيون علم النفس الاجتماعي، وأقاموا أصوله، وقرّروا مناهجه ونبغ فيه المتخصصون.

ويمكن لنا أن نحكم حكماً لا تحفظ فيه، أن أكثر غرائز الإنسان دوافع تفرض عليه الاجتماع، وأكثر ضروراته حوافز تسوقه إليه، حتى مقومات خلقه، وحتى خصائص تركيبه.

لماذا منحه الله قدرة الكلام، وطاقة التأثير، وقوة الفهم، ومملكة التفهيم، إذا لم يكن الاجتماع ضرورة طبيعية من ضروراته؟!

هذه بعض ركائز الاجتماع في كيان الإنسان، أما ضرورات العيش والقوت، والتعاون لحفظ النفوس من العوادي، والتعاون لتحصيل القوت، فإنها تأتي في درجة متأخرة، ولها نسبة المؤكّدات لا المؤسسات.

الاجتماع ركيزة الوجود:

وركيزة الاجتماع في الإسلام - بعد كل أولئك - هي ركيزة الوجود والخلق، فهم جميعاً مخلوقون من مصدر واحد، ومن نفس واحدة، وهم - معاً - متجهون في سبيل واحد إلى غاية واحدة:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا. إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ^(١) ﴾.

« إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ »، هذا هو المصدر الواحد، « مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى » هذا هو النسب الواحد، « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » وهذه هي الغاية الواحدة.. إن الغاية هي التقوى، وبلوغ درجة الكمال بها، والسابق إلى الغاية التي من أجلها كان، وإليها سار، هو المستوجب للكرامة عند الله الذي بيده المبدأ والمصير.

﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾^(١).

والخطاب في هذه الآية الكريمة مع الرسل الذين أرسلهم الله إلى مختلف الشعوب والقوميات.

ففي سابق الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ. وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾^(١).
فالأمة الواحدة في الآية هي البشرية جمعاء.

وفي سورة النساء: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ. إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾^(٢).

والأمة الواحدة - لوحدة مصدرها ووحدة نسبها ووحدة غايتها - لا بد لها من وحدة في الاتجاه والتفكير، وإلا تفرقت كلمتها، وعمل في تمزيقها اختلاف الآراء، ومن أجل ذلك كانت بعثة الأنبياء (ع)، على مدار

١- المؤمنون: ٥٢.

٢- المؤمنون: ٥١-٥٢.

٣- النساء: ١.

التاريخ بدين واحد ووجهة واحدة:

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ^(١) ﴾.

أما الاختلاف بعد ذلك فمصدره هو البغي:

﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ^(٢) ﴾.

الأخوة المؤمنة:

وإذا كانت الأمة واحدة في المصدر، وواحدة في النسب، وواحدة في السبيل، وواحدة في الغاية، وواحدة في النظام، وواحدة في التفكير، استحقت صفة الأخوة بين جميع أفرادها.

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ^(٣) ﴾.

وأية كلمة أدل على معنى التساوي الكامل والاشتراك في المبدأ والغاية

من كلمة (إخوة)؟!

بل وأي كلمة تنقي القلوب من حقدّها وغلّها، وتغذيها بالحب

والحنان والعطف مثل كلمة (إخوة)؟!

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » وما أبعد الآفاق، وأعمق الأغوار التي يرمي إليها

هذا التعبير الكريم!!

١ _ البقرة: ٢١٣.

٢ _ البقرة: ٢١٣.

٣ _ المحرات: ١٠.

وما أبلغها كلمة تجمع -على اختصارها- أسمى علاقات الاجتماع، وأرق نظراته، وأنبى خفقات الحب، وأجمع معاني الاشتراك والمساواة!! وما أبأسنا مجتمعا تطرق هذه الكلمة أسماعنا فلا تجد طريقها إلى قلوبنا!! ولو كانت هذه النبرة من إيقاع غير الإسلام لأسكرتنا من الطرب، وعزمتنا على الشادي أن لا ينتهي من النشيد!!

أليس كذلك -أيها الأعزاء-؟ لنقلها صريحة دون حذر أو مواربة. إنه ضعف النفوس والقلوب، وميلها مع البارق من الألوان، والجديد من الأزياء.

على هذه الأسس أقام الإسلام المجتمع، أما حدوده فهي البشرية التي تَمَّحِي فيها الفوارق من أقاليم وألوان ولغات ، وتندمج فيها الجوامع من اقتصاد ومصالح، وأما صبغته فهي صبغة الإيمان.

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾^(١).

وأما نظامه فهي الشريعة التي لم يعرف المشترعون نظاماً في الدنيا يستطيع أن يقف معها على قدم.

التضامن الاجتماعي في الإسلام:

وأما التضامن الاجتماعي فيه فيظهر في عدة مبادئ وضعها الإسلام لهذه الغاية.

يظهر في مبدأ وجوب القيام بالقسط على الأمة وعلى الأفراد، وعلى رأسهم جميعاً حكومة الإسلام، فلا يُظلم أحد - فرداً أو أمة - حقاً من حقوقه، ولا يُبخس حظاً من حظوظه، ولا يُعتدى عليه أو على شأن محترم من شؤونه، بمنظر من المسلمين - أمة وأفراداً وحكومة -.

وعليهم أن يتخذوا الأهبة، ويعتدوا العدة لردّ العادين وأخذ الظلامة، وأخيراً لحسم الفتنة، وإن كان المعتدي أباً أو أخاً أو قريباً، بل وإن كان المعتدي هو الفرد نفسه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا، وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا^(١)﴾.

وفي سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعْدِلُوا. اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ^(٢)﴾.

أسمعتم - أيها الأعزة - إن القيام لله بالقسط واجب، حتى مع الأعداء، فلا يحمل المسلم عداؤه لأحد أن يوقعه في الجريمة فيرتكب معه ما يخالف العدل. وإن ألوى أو أعرض عن حكم الإسلام فلم يعدل، فإن رقابة الله محيطه به، وجزاءه الكامل مرصود له «إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ».

١- النساء: ١٣٥.

٢- المائدة: ٨.

وفي سورة الحجرات: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ، وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ^(١)﴾.
 هكذا يعدّ الله المسلمين إعداداً كاملاً للقيام بالقسط، ولحسم العدوان، وقمع الفتنة، وردّ الحقوق، وأي مرتقى للتضامن الاجتماعي هو أبلغ من ذلك؟!

ويظهر التضامن الاجتماعي في مبدأ وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد أكد الإسلام على هذا المبدأ العظيم أشد التأكيد، وأقام عليه نظام الإصلاح الفردي والاجتماعي العام، وجعله فريضة من أهم الفرائض، وعبادة من أسمى العبادات والقربات، وتوعّد الإنسان على مخالفته أو التقصير فيه بالعقاب الشديد، وجعل للمؤمن الولاية على أخيه في هذا السبيل.. يسدّده إذا أخطأ، ويقوّمه إذا زاغ، ويأخذ بيده إذا كبا، ويهديه سبيل الرشاد إذا ضل. وينقذه من الهاوية إذا تورّط، وشرّك الرجال والنساء في هذه المهمة: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ^(٢)﴾.

ويظهر التضامن الاجتماعي في مبدأ التعاون على البرّ والتقوى الذي

١ - الحجرات: ٩.

٢ - التوبة: ٧١.

قرّره بين المسلمين وذكره في عديد من الآيات وكثير من النصوص.

ويظهر التضامن الاجتماعي في مبدأ التواصي بالحق والتواصي بالصبر والثبات عليه، الذي جعله من مقومات الإيمان، ومن الشروط الأولى للنجاة من الخسر: ﴿وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ، وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾^(١).

ويظهر التضامن الاجتماعي في عدد كبير من مفردات الأحكام التي وضعتها شريعة الإسلام، وهي منتشرة في أبواب الفقه، ولاسيما في أبواب الضمانات والولايات.

وأتمنى لي ولكم الثبات على هذا الدين القويم والتواصي به والدعوة إليه. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ: إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٢).

وصدق الله العلي العظيم

١- سورة العصر.

٢- فصلت : ٣٣.

الأخلاق في الإسلام

أيها الإخوة الأعزة.. والأبناء النجباء..

سلام الله عليكم، وعلى الصلّة المقدسة التي وحدتكم، وجمعت شتاتكم، وشدّتكم، وشدّت إليكم كل قلب في هذا الكون ينبض بالإيمان، وكل نفس تشرق بالهدى، وكل فكر يؤمن بالحق..

وسلام على الغاية المباركة التي من أجلها تجتمعون، وفي سبيلها تعملون، ومن الله - سبحانه - أسأل أن يشدّ أزركم، ويبارك سعيكم، ويوفّقكم لنصرته، يأخذ بأيديكم لإعلاء كلمته..

أيها الأحباء..

سأتحدث إليكم في هذه الليلة حديثاً عابراً عن الأخلاق في الإسلام.. عن مناهج الصفات الرفيعة التي يجب أن يتحلّى بها المسلم، والأخرى الوضيعة التي يجب أن يتنزّه عنها.

.. عن أبرز مقوّمات الشخصية الإسلامية التي منها تتألف، وعليها تعتمد، وبها تسمو إلى الغاية، وتحقّق الفوز في كل مجال.

.. عن الغاية الجليلة التي عناها الرسول (ص) لمّا قال: «بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق».

.. عن المنفسح العظيم الذي أشار إليه حفيده وخليفته الإمام جعفر بن

محمد الصادق (ع) حين قال: "إن الله ارتضى لكم الإسلام ديناً فأحسنوا صحبته بالسخاء وحسن الخلق".

.. عن المزايا التي يكتمل بها إسلام المسلم، وتتجسّد بها عقيدته ويثمر إيمانه، ويعود لبنة صالحة لأن يتقوّم بها بناء المجتمع الكامل.. المجتمع المسلم.

.. عن الكنوز الثمينة التي فتحها أئمة الحقّ وأدلة الهدى لأتباعهم من المؤمنين، ليصوغوا منها نفوسهم، ويبينوا شخصياتهم، ويقوّموا طباعهم وضمائرهم، فيكون كل فرد منهم مثلاً صادقاً للإيمان الصادق، ونموذجاً صحيحاً للإسلام الصحيح..

.. عن السمات المشرقة التي تكمل وتشرق بها إنسانية الإنسان. بلى، وإن سوء الخلق قد يهوي به إلى أخط من طباع الحيوان، وأقل من قيمة النعم السائمة.

سأتحدث إليكم عن مناهج الأخلاق في الإسلام حديثاً عابراً مختصراً، فإنّ موضوع الأخلاق في الإسلام لا يستوعبه متحدث في موقف واحد، مهما رفده الفكر، ومهما واتاه البيان.. ومن الله - سبحانه - أسأل لي ولكم قلوباً واعية للاقتباس، ونفوساً طيّعة للتطبيق، وألسنة ناطقة للدعوة..

الجمال سمة عامة في المخلوقات:

أيها الأحبة:

لقد أنشأ الله - سبحانه - هذا الكون الفسيح الأرجاء، العظيم الآفاق والأنحاء، وأنشأ كل ما فيه من سماء وأرض وشمس وقمر ونجم وكوكب

وفلك وملك، وحيّ وجامد.. وكل ما فيه من شيء، عرفه الإنسان أو جهله، عقله أو عجز عن إدراكه، وصلّ العلم أو وقف دونه..

.. لقد أنشأ الله هذا الكون، وأنشأ كل ما فيه من أشياء وأحياء على أتم صورة وأوفرها زينة، وأوفاهها نضارة وبهاء، وأتمها بهجة وجمالاً..

فالجمال النضير موزّع على كل شيء.. وكل شيء من موجودات هذا الملكوت له قسطه من هذه الهبة الشاملة، وكل شيء من محتويات هذا الكون مظهر لجمال الله الأعلى ﴿الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾^(١).

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ، وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَبْنَيْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ. وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ. وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾^(٢).

جمال شامل، وبهاء وحسن نضير، وفي بعض الأمثال: "ليس في الإمكان أبدع مما كان".

وهذا الجمال المقسّم غير الإتقان في الصنع، والعمق في الحكمة التي يحار فيها العقل، ويدهش لها اللب.

والجمال في الخلق أحد الروائع التي تحدو بالإنسان أن ينظر، وتحثّ

١- السجدة: ٧.

٢- ق: ٦-١٠.

العقل على التفكير والتبصر.

وللجمال أخذته القوية، وتأثيراته المباشرة في هذا السيل، وما يكون للإنسان العاقل أن يكتفي بالمتعة في النظر إلى مباهج الكون ومفاته ثم لا يسترشد به إلى جمال المكون المدع.

وقد أعطى الله الإنسان من هذه الهبة حصته الوافرة، فأفرغه في أجمل

صورة:

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (١)﴾.

ولقد كان يكفيه في هذه الهبة وحدها ما يحتم عليه شكر المنعم، وأداء

حق الواهب، ولكن ﴿الْإِنْسَانُ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٢)﴾.

وللإنسان خلق وخلق، وسمات وصفات، وقد أكمل الله خلقه

بالجمال، وأراد له أن يتم أخلاقه بالكمال، ليلبغ الغاية الكريمة، ويرتفع في

الكرامة إلى أرفع مستوى.

الأخلاق:

والأخلاق -أيها الأحبة- صفات مختلفة، أصيلة ومكتسبة. ترسخ في

نفس الإنسان، وتمرن عليها إرادته، ويتوجه على موجبها عمله، ولا تكون

الصفة خلقاً حتى ترسخ في النفس وتعتادها الإرادة ويتجه معها السلوك.

١_ الانفطار: ٦-٨.

٢_ العاديات: ٦.

والخلق -مهما تأصل في النفس، ومهما ضرب في الطباع أو الغرائز أو الوراثة إلى جذر عميق- فإنه لا يستعصي على التعديل والتحويل، فيملك صاحب الخلق الوضع أن يجاهد نفسه، ويمرّن طباعه، ويعدّل من خلقه حتى يتسامى به إلى درجة رفيعة..

.. ويستطيع صاحب الخلق السامي أن يهمل نفسه، ويرغم ضميره، وينساق مع طباعه وغرائزه، ثم يعتاد ذلك حتى يهوي بخلقّه إلى أحطّ درك. ومن أجل ذلك احتاج تقويم الخلق، وتهذيب الطباع إلى مصابرة ومثابرة، ويقظة دائمة..

ومن أجل ذلك سُمّي جهاد النفس بالجهاد الأكبر في لسان الحديث الشريف^(١).

فمكارم الأخلاق -أيها الأحبة- صفات كريمة يلتزم بها الإنسان.. يقوم عليها نفسه، ويروّض عليها طباعه ويجري عليها عادته، ويمرّن عليها إرادته، حتى تصبح ملكات ثابتة يتّبعها في سيرته، ويجري عليها في جهره وسريته.

الاستقامة:

والخلق على قسمين: منحرف ومستقيم، فما مالت به النفس إلى

١- روى الشيخ الكليني (قده) بسنده عن أبي عبد الله الصادق (ع): (أن النبي (ص) بعث سرية فلما رجعوا قال: مرحباً بكم قضا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر. فقيل: يا رسول الله؛ ما الجهاد الأكبر؟ قال : جهاد النفس). وسائل الشيعة ج ١١ ص ١٢٢.

جانب الإفراط أو إلى جانب التفريط فهو رذيلة وانحراف، وما استقامت به على الحد الصحيح المعتدل دون ميل، ودون تعدٍّ فهو فضيلة واستقامة. فالأخلاق الرفيعة هي الأوساط من بين الصفات و (خير الأمور أوسطها) كما يقول الرسول الكريم (ص).

أما رذائل الأخلاق فهي الصفات النفسية التي يتنكب الإنسان فيها الحد الأوسط.. ويكتسبها ويذم على اكتسابها إذا فرط في الميزان أو أفرط. فالخلق الكريم هو فضيلة بين رذيلتين، واستقامة بين انحرافين.

فالكرم فضيلة بين البخل والتبذير، والصدق فضيلة بين الكذب والمبالغة، والشجاعة فضيلة بين الجبن والتهور، والعفة فضيلة بين الشهوة الطائشة والكبت، والحكمة فضيلة بين المكر والخمود.. وفي القرآن الكريم قال (تعالى):

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ^(١)﴾.

وفي آية كريمة أخرى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ^(٢)﴾.

والاستقامة هي سبيل الفطرة السوية الذي تتبعه في تقويم هذا المخلوق، وفي تقويم أي شيء يوجد في هذا الكون، فالشجرة -مثلاً- تنشأ بطبيعتها

١ - الإسراء: ٢٩.

٢ - الفرقان: ٦٧.

معتدلة مستقيمة، ولا تنحرف ولا تعوجّ إلاّ لعارض قويّ يرغمها على الميل والاعوجاج. والحيوان يلتزم السبيل الذي توجّه له الفطرة حتى يبلغ الغاية التي حدّدها له الحكمة الإلهية ولا ينحرف عنه إلاّ لطارئ غير عادي يطرأ له فيُرغمه على الانحراف.

والإنسان -في صورته الطبيعية- يجري على هذا القانون، فإنه يتّجه مستقيماً إلى الغاية التي حدّدها له الحكمة الخالقة، ولا يحد عن ذلك السبيل إلاّ لطارئ يقسره على الالتواء..

وكذلك الإنسان في عقيدته وفي أخلاقه وفي سلوكه، فإنه يجري مستقيماً مع الفطرة السويّة، ولا يلتوي ولا ينحرف إلاّ أن تعترضه أهواء ومؤثرات تمنعه عن الاستقامة وتجبره على الانحراف.

ومكارم الأخلاق وفضائلها هي التي سايرت الفطرة السليمة، وواكبتها فلم تحد عنها، ولم تنحرف نحو إفراط ولا تفريط..

هي الأوساط المعتدلة من الصفات والانعكاسات الثابتة التي تنطبع في نفس الإنسان وهو يطبّق أوامر الشريعة المطهّرة ونواهيها على عمله أتمّ التطبيق، ويأخذ نفسه وإرادته بها أتمّ الأخذ، وهذا هو المعنى الذي تدلّ عليه قوله الرسول (ص) السابقة الذكر: "بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق".

فالإسلام هو الدين الذي يتمّ مناهج الفطرة، ويكمل -في مجالات الدين- ما بدأ الله بتوجيهه في التكوين.

ومن أجل ذلك كان الإسلام دعوة الله إلى السمو على الإطلاق، وكانت محاسن الأخلاق -على وجه العموم- هي الصفات التي أمرت بها

الشرعية، وحثّت على التمسك بها، ومساوئ الأخلاق ومقابحها هي الصفات التي نمت عنها الشريعة وحذّرت منها. والمؤمن الحقّ الذي اتّبع هدى الله واقتفى مراهد دينه، فتمسك بالخلق الرفيع، وطبع نفسه عليه، واتّبعه في سيرته وسريته مع أوليائه وأعدائه، واجتنب الخلق الدنيء الوضيع، وحذر منه أشدّ الحذر، فلم ينحرف ولم يشذّ في سجيّة، ولا في قول ولا في عمل، وكان دائم المراقبة لله الذي يعلم السرّ والجهر ويعلم ما يكسبون.

هذه هي مقاييس الخلق الكريم، وهذه هي طريقة بنائه..

أن يجري الإنسان مع الفطرة السوية في صفاته، فلا يميل عنها ولا ينحرف ولا يشذ ولا يلتوي..

أن يجري في إرادته مع أحكام الشريعة إلى أبلغ حدّ.. يُحقّ ما أحقّت، ويُطل ما أبطلت.

هذه هي مقاييس الخلق الكريم، وهذه هي طريقة بنائه، وهذه هي مقاييس الخير والشر في نظر الإسلام .

تربية الضمير:

أما الركيزة المهمة للتربية الخلقية فهي تربية الضمير، وإيقاظه اليقظة الكاملة.

والضمير هو هذا الشعور الفطري الذي أودعه الله (تعالى) في طبيعة كل إنسان تحثّه على فعل الخير، وترتاح له وتسرّ معه -أتمّ السرور- إذا هو فعله، وتحذره من عمل الشر، وتؤبّه عليه -أشدّ التأنيب- إذا هو عمله.

إن الضمير قوة فطرية عظيمة الأثر كبيرة الوقع أودعها الله في نفس ابن آدم وفرضها عليه، وهي باب النفس إلى كل عمل صالح، ورقبه الذاتي عن أي عمل طالح. وطالما تسببت هذه القوة الفطرية إلى صلاح الإنسان بعد فساد، وإلى توبته إلى الله (تعالى) من عظيم الذنوب، وطالما استنقذته من أسار الجريمة بعد طول رقاده.

وقد مدّ الله - سبحانه - رقابة الضمير إلى أفعال غيره من بني الإنسان، فهو يُسرّ بكل فعل حسن يفعله الغير، ويلتذّ لكل باب يراه من أبواب الخير، وهو يستاء من فعل القبيح من أي عامل، ويشمئز لمراى أي سوء من الأسواء، وأي رذيلة من الرذائل..

مدّ الله رقابة الضمير إلى أفعال الآخرين من بني الإنسان، ففتح باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعله أحد الدعائم لصلاح الأفراد وصلاح المجتمع، وحذّر المسلمين من التقصير فيه وأوعد بالعقاب عليه.

وتربية الضمير هي في ظل تعاليم الإسلام، وتزويده منها بالمقاييس الصحيحة التي يميّز بها الخير من الشر، والصحيح من الفاسد وإيقاظه اليقظة الكاملة، فيكون دقيق النظرة، شديد الرقابة، لا يخادع ولا يستغفل ولا يتغاضى ولا يتغافل.

وقد زوّد الله - سبحانه - هذا الضمير بأحكام الشريعة، ليتعرف منها مقاييس العمل، ويستبين بها موارد الصحة من الزلل.

هذا الرقيب اليقظ الذي أقامه الله من نفس الإنسان على نفسه، يأمره وينهاه، ويثيبه ويعاقبه وإن أمن المطلّع من الناس الآخرين. هذا الرقيب

الداخلي هو الدعامة الأولى لإصلاح النفس، وتهذيب أخلاقها وتقويم طباعها.

ولعل القرآن الكريم قد أشار إلى هذه القوة الفطرية الوازنة للإنسان: قوة الضمير.. لعله أشار إليها بقوله:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا^(١)﴾.

رقابة الله (تعالى):

ولكن هذا الرقيب النفسي قد يقوى، وقد يضعف، بل وقد يموت لدى بعض الناس.

وسبب ضعفه هذا هو العكوف على المعصية، وقلة تعهده بالتزكية والتطهير، فإن المرء إذا أكبَّ على المخالفة سكت ضميره، وخفَّتْ صوته عن الحثِّ والتهذيب.

والسبيل إلى إحيائه بعد موته هو شعور المؤمن برقابة الله عليه وإحاطته به، وعلمه بمطويات صدره وما يخفيه، فرقابة الضمير تستمدُّ من رقابة الله العظيم، المطلع على كل سريرة، الحسيب على كل عمل المجازي على كل ظاهرة وخافية.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ^(٢)﴾.

١- الشمس: ٧-٨.

٢- ق: ١٦.

﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ^(١) ۝ ﴾ .

﴿ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ^(٢) ۝ ﴾ .

إنها رقابة عظيمة شديدة يستوي فيها السر والعلن، والقول والعمل، والحركة والسكون.

وإنه لعلم محيط، يستوي فيه الصغير والكبير، وما في السماوات وما في الأرض.

وإنها لقدرة شاملة يستوي فيها الموت والحياة، والابتداء والإعادة.
وإنه لحساب دقيق، تجد كل نفس فيه ما عملت من خير، وتلقى فيه ما عملت من سوء.

فإذا استشعر الإنسان رقابة ربه عليه، وإذا استيقن أنه مجزي على عمله.. إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كان يقظ الضمير، دائم الحراسة لنفسه، شديد الانتباه لأعمالها، شديد الحرص على إصلاحها، وتهذيب أخلاقها.

١ - الملك: ١٣-١٤.

٢ - آل عمران: ٢٩-٣٠.

من آداب الإسلام:

أيها الأحبة..

إن الإسلام يؤدب أبناءه بآدابه الفردية والاجتماعية، ليلبسهم أبراد الكمال، ويقىهم أخطار التدهور..

والمؤمن إذا تأدب بآداب الإسلام وأخلاقه لا تنزل له قدم، ولا يتضعع له ركن، ولا تخفّ له وزنة، ولا تنبو له كلمة.

إنه بروح الإسلام وعطائه يكون شديد النظرة، شديد الخطوة، حميد القول والفعل..

يقول الإسلام في تأديب المسلم عن خلة الكبر:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ^(١)﴾.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ، وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا^(٢)﴾.

ما هذه الضعة التي يسميها الناس كبراً، وما هذه الدالة في المتكبر التي يدعونها خيلاء، حتى يكاد يخرج من جسمه، وحتى يبدو أكبر من حجمه..

أفيريد أن يشعر الأرض بوجوده فهو يركّز عليها قدمه، أم يريد أن يسامي الجبال قامة فهو يرفع إليها صدره؟ وهيئات، إن الأرض لا تشعر به

١- لقمان: ١٨.

٢- الإسراء: ٣٧.

أكثر مما تشعر بالبعوضة الحقيرة، وإن الجبال لا تحسّ به أزيد مما تحسّ بالهباءة الصغيرة، وإنه لا يتكبر إلاّ من ضعة يجدها في نفسه، فهو يعوّض عن الحقيقة بالخيال، وعن الواقع بالوهم.

ويقول الإسلام في تأديب المسلم في مجلسه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا، يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ، وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا.. (١) ﴾.

ويقول في تأديب المسلم في رفع صوته:

﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشِيكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (٢) ﴾.

ليست المنزلة والمكانة برفع الصوت في المجلس، ولو كان الأمر كذلك لكان الحيوان أكبر منزلة من الإنسان.

ويقول في الجري مع الظنون والخواطر، والأقوال التي تفكك المجتمع، وتضعف العلاقات بين أبنائه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ، وَلَا تَحْسَسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا.. (٣) ﴾.

١ _ المجادلة: ١١.

٢ _ لقمان: ١٩.

٣ _ الحجرات: ١٢-١١.

ويقول في الحفاظ على المجتمع والإبقاء على سلامته وسلامه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ، وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ، وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ، وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ، بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ^(١)﴾.

إن المجتمع المسلم أرفع وأسمى من أن تدور فيه سخرية قوم من قوم، أو نساء من نساء، أو يقع فيه لمز أو نبز، وعلم الخير والشر، والصلاح والفساد عند الله الذي يعلم السر والجهر، فليتطهر المجتمع من هذه الأضرار فلا طهر بعد الإيمان « وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ».

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا: سَلَامًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا. وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا. إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا. وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا. وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يَزْنُونَ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ، وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا. وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا. وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا

لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا. أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا. خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا^(١) .

.. هذه بعض مناهج الله - سبحانه - في تأديب المسلم وصوغ نفسه، وطبعها على الخلال الحميدة، وتنقيتها من خلال السوء ورذائل الخلق..

.. هذه هي مناهج الأخلاق الحميدة في الإسلام، وهذه هي عقباها في القرآن، وهذه هي طريقة بنائها، يسيرة واضحة.. فهل نحن عاملون بها؟.

الخطوط العريضة في الإسلام^(١)

أيها الإخوة الأحباء..

سألني أحدكم قبل ليال عن الخطوط العريضة في الإسلام وقد رغبت أن يكون الجواب عنها موضوعاً لحديثي في هذه الذكرى..
في هذه الذكرى الكريمة التي يحبها الإسلام، ويعتزّ بها، ويجب تجديدها، ويجب تخليدها..

في هذه الذكرى القرنية لأحد بُناة الإسلام، وحملة لوائه، وسادس العترة الميامين، الذين اختصّهم الله بعهدده، واستحفظهم كتابه، واصطفاهم لقيادة البشرية بعد رسوله (ص)، قرناء الكتاب بنصّ الرسول (ص)، والمطهرين من الرجس بنصّ الوحي، ونُجوم الاهتداء بإجماع الأمة..
في ذكرى العظيم الذي وُلد للإسلام، وعاش للإسلام، ومات للإسلام..

وأقول: مات، جرياً مع المفاهيم التي يعتبرها الناس تفسيراً للموت.. أمّا في موازين الحقائق فإن هذا الصنف من القادة إنما يرتفعون من حياتهم الدّنيا إلى حياتهم العليا.

١- أُلقيت هذه المحاضرة في الذكرى القرنية لولادة الإمام الصادق (ع) سنة ١٣٨٣ للهجرة أي بمناسبة مرور ثلاثة عشر قرناً كاملة عليها.

.. في هذه الذكرى الحبيبة إلى الإسلام أحدثكم عن الخطوط العريضة في الإسلام، ومن أولى من ذكريات أهل البيت (ع) بأحاديث الإسلام؟.

الجمالي الإسلامية العامة:

أيها السادة:

قد نقول: الخطوط العريضة، ونعني بها الجمالي العامة التي يتخذها الإسلام في نفس الفرد المسلم، وفي نفسية المجتمع المسلم. والإسلام - في هيكله العام - يبدأ عقيدة، ثم يرتسم منهاجاً، ثم ينعكس دعوة.

الإسلام كله - من مبدئه إلى ختامه.. من أول حرف منه إلى آخر نقطة، بجميع مجملاته ومفصلاته - يبدأ في شكل عقيدة يتلقاها الفكر، ويطمئن إليها القلب، وتشرق بها الروح، وتمتلئ بها آفاق النفس.. عقيدة راسخة ثابتة بالله (عز وجل)، وبرسوله (ص) وكتابه، وبما أنزل على الرسول (ص) من حكمة، وما أنزل في الكتاب من حكم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ، وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا^(١)﴾ .

ثم يرتسم منهاجاً وافياً، يوجه الفكر، ويوجه الغريزة، ويوجه الضمير،

ويوجّه الإرادة، ويوجّه العاطفة ويوجّه الفرد، ويوجّه الأمة، ويوجّه الحياة، بل ويوجّه الكون.

﴿ أَفَعَيِّرَ دِينَ اللَّهِ يَعْذَرُونَ. وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ^(١) ﴾.

ثم ينعكس دعوة تُجند لتبليغها الألسنة والأقلام والطاقات والكفاءات، وتوضع لها المناهج والفنون والوسائل والأساليب، ويجاهد -لنشرها وإعلائها- بالأموال والقوى والنفوس:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ، أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُمْ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ، وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ^(٢) ﴾.

﴿ .. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ، وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ. إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً، وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ، لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(٣) ﴾.

نعم، هكذا -أيها السادة- يبدأ الإسلام عقيدة، واستجابة النفس المسلمة لهذه العقيدة إيمان..

١- آل عمران: ٨٣.

٢- البقرة: ١٥٩.

٣- التوبة: ١٢٠-١٢١.

ثم يرتسم منهجاً، واستجابة الإرادة لهذا المنهج عمل..
 ثم ينعكس دعوة، واستجابة الطاقة لهذه الدعوة جهاد.
 ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا، وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١)

وقد لمحت سورة العصر الكريمة إلى هذه المجالي الثلاثة التي يجب أن يأخذها الإسلام في نفس الفرد المسلم، وفي نفسية المجتمع المسلم :
 ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَالْعَصْرِ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ، وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾^(٢).
 ”إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا“ وهذه هي مرحلة العقيدة والإيمان..
 ”وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ“ وهذه هي مرحلة المنهاج والعمل.
 ”وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ. وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ“ وهذه هي مرحلة الدعوة والتبليغ.

وهذه هي الخطوط العريضة التي يتقوم منها هيكل الإسلام.

الاتجاهات الطبيعية للإسلام في بناء الفرد:

وقد نقول: الخطوط العريضة، ونريد بها الاتجاهات الطبيعية الرئيسية التي سلكها الإسلام في صناعة الفرد وفي بناء المجتمع، وفي شدّ الصلات، وتبيين الحدود وتنظيم الحقوق..

١- فصلت: ٣٣

٢- سورة العصر.

وأولى نقطة يتدئ منها الانطلاق، وأولى جهة يشرع منها التصميم هي العقيدة، عقيدة المسلم برّبه وبدينه.. بمبدئه هو وخاتمته.

نعم، كما ينشأ البناء من أسسه، وكما يُبتدأ الغرس بوضع بذرته كذلك يتدئ الدين بوضع عقيدته..

وأول شيء يتجّه إليه المفكر بالتفكير هي نفسه، ولا محيد له من أن يتساءل عن ذاته، ومن أين ابتداءً، وإلى أين ينتهي، فلا بد للدين الصحيح من أن يضع له الحل الصحيح لهذا التساؤل قبل أيّ انطلاق، وأيّ اتجاه.

ودين الإسلام لا يمضي بالإنسان بعيداً في هذا السبيل، ولا يُرهقه عُسراً، بل يلفته إلى ركائز الفطرة، وإلى أوليات البرهان، وإلى دلائل الكون، وشواهد الحكمة وآثار الرحمة..

.. إلى هذه البدائهِ التي تستقبله آتَى أتجّه، وآتَى انتقل، وآتَى قلب بصره، وآتَى مدّ فكره.

.. إلى هذه البدائهِ يلفته ليستخلص عقيدته صافية بصفاء الفطرة، راسخة برسوخ البرهان. نيرة بنور اليقين:

﴿ .. أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ^(١) 》 .

ثم يتجه الإسلام ليصوغ الفرد.. ليصوغ نفسه وعقله وقلبه وضميره وعواطفه ومشاعره.. بل ولحمه ودمه.. ليصوغه في القالب الذي يرغب،

والمنهج الذي يؤثر، ومن المقومات التي يريد.

فهو يهيئ للفرد المسلم -قبل تكوينه- المعدن الطاهر، تتألف منه عناصره، والمنبت الزكيّ توضع فيه بذرته، والمنهل السائغ الطيب يمدّه بالغذاء والنماء، وهو يعدّ له المناهج، ويتولّاه بالرعاية، وبالتدبير والتقويم حين حمّله، وحين وضعه، وفي رضاعه وفي فصّاله، وحين يدبّ، وحين يشبّ، وحين يصطلب عوده وتكتمل رجولته أو أنوثته..

.. المناهج القويمة التي لاتغادر نقصا، والرعاية الشاملة التي لاتدع حالاً، والتقويم الدائب الذي لايرك عوجاً.

هكذا يصنع الإسلام -أيها الأخوة- لينشئ من الفرد المسلم لبنةً سليمة العناصر، متينة التركيب، قويّة الانسجام مع المجتمع الفاضل الذي يبتغيه الإسلام.. تحتلّ مركزها من الحياة ومن المجتمع ومن الدّين بجدارة، وتؤدّي مهمّاتها بكفاءة، وتصل إلى غاياتها باستحقاق.

وهذا هو منهاج التربية في الإسلام.

اتجاهات الإسلام في بناء صلات الفرد بما حوله:

فإذا أتمّ صياغة الفرد، وأقام بناءه لفته إلى صلاته الكثيرة بمن حوله من الناس، وبما حوله من الأشياء.. إنها تستدعي حدوداً، وتتطلّب حقوقاً، وتحملّ مسؤوليات.

وأولى هذه الصلات جميعاً، وأشدّها وأعماقها، وأحقّها بالرعاية هي

صلته بربه.. ببارئه الذي خلقه، ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ^(١) ﴾، وفقهه وبصره، ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ^(٢) ﴾ .

.. إنها صلة معلول بعلة، ومربوب برب، ومملوك محتاج مؤمل بمالك غني، وهو مناط حاجته، ومعقد أمله، وعبودية خاضعة خاشعة، لائتمك لنفسها ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، بربوبية رحيمة كريمة قادرة قاهرة، تملك كل شيء، وتقدر على كل شيء، ولا يند عن أمرها شيء. ولا بدّ للمعلول من أن يخضع لعلته، ولا بدّ له من أن يؤدي شكر منعمه، ولا بدّ من أن يتقرب لينال الزلفى لديه.

وعلى هذا يتأسس منهاج العبادات في الإسلام.

وأدنى الناس إلى الفرد، وأوثقهم به صلة: الوالدان، اللذان تسببا له في الوجود، واستفتحاه له باب الحياة، وبذلا في تكوينه وتنميته وإسعاده الشيء الغالي الكثير، وحامته القريبة، وأرحامه الدانية، الذين يمتون إليه بوشيجة اللحم والدم..

إن هؤلاء مفاتيح سعادته، وينايع الخير له، فلا بد من النظر في أمورهم، ولا بدّ من إقامة هذه الوشائج على ركائز الرحمة، ووطائد البر والعطف..

وهذا هو نظام الأسرة في الإسلام.

وأخيراً صلته الوثيقة العامة بأفراد المجتمع المسلم، وبأفراد المجتمع

١- عبس: ١٩.

٢- عبس: ٢٠.

البشري.

والنظرة الاجتماعية في الإسلام لا تتوَلَّد في ميادين الاقتصاد، ولا تتلوَّن بلون الدم، ولا تقف عند حدود الزمان أو المكان.. فركيزة الاجتماع -في رأي الإسلام- أعمق من كل أولئك وأوسع..

.. إنها الحدود الذاتية العميقة التي تلفّ النوع البشري، بجميع لغاته وألوانه وأزمانه. نعم، وأسوده وأبيضه، وماضيه ومستقبله، وفصيحته وأعجمه.

(مجتمع واحد، يلفّ أقصاه بأقصاه نسب عريق، وتصله به آصرة مستحكمة، ووحدة مكيئة متينة: نسب البشرية قبل أي نسب، ووحدة المصدر والجُرى والمبتغى فوق كل وحدة.

(أجل، فهذه السيول البشرية المتدفقة تتفجر كلها من ينبوع واحد، ثم تجري في مسيل واحد، إلى مصب واحد.

(والغاية التي فطرت عليها هذه الخليقة، وشُحِنَتْ بها أكناف الأرض، وملئت بها مناكب الزمان.. إنها غاية واحدة كذلك.

(والعواطف التي تعقد الواحد بنوعه، وتغنيه بحفظه، بل وتفنيه في حدوده، والغرائز التي تعزّز فيه هذا التّزوع، وتمكّن لهذه الأغراض.. إنها ركائز المجتمع العام في نفوس الأفراد ^(١) .

وهذه هي حدود المجتمع في رأي الإسلام، وهذه هي ركائزه - كما

قلت- في كتاب (الإسلام) .

أما المجتمع المسلم فرباطته الوثقى التي يُحكم بها الإسلام أواصره، ويشدّ بها أركانه، ويساوي بين أفرادها، ويعادل بين حقوقه، هي (الأخوة) ..
.. الأخوة في دين الله، وركيزتها القوية التي لن تنزلزل، هي الحبّ في الله، وروافدها هي الولاية في الله، والتواصي في مرضاته، والتناصر في سبيله.
وأما مضمار السباق المفتوح لكل مسلم فهي (التقوى) .. ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾^(١).

وهذا هو نظام الاجتماع في الإسلام.

ويقوم المجتمع المسلم، فيفتقر إلى منهاج ينظم اقتصاده، وإلى دستور يؤسس عليه حكمه، وإلى أنظمة تقيم مناهج العدل فيه، وإلى قوانين في السياسة تتبعها حكومة الإسلام في اتجاهاتها.
ويتّجه الإسلام ليفي بكل أولئك، وبكل حاجات المجتمع وضماناته، وبكل حاجات الحياة وضماناتها.

الأصول الكبرى لمناهج الإسلام:

وقد نقول: الخطوط العريضة، ونعني بها الأصول الكبرى التي اتّبعها الإسلام في تخطيط مناهجه، وبناء تشريعه.
وللإسلام أصول عديدة ترسمها في وضع هذه المناهج، وأهمّها جميعاً -

على ما يبدو - أصلاً - هما:

مبدأ (الوحدة)، ومبدأ (العدل).

مبدأ (الوحدة).

فهذا الإنسان جزء لا يستطاع فصله من هذا الكون الفسيح، ومن هذه الطبيعة العاملة، ومن هذه الحياة المتحركة.. والقوانين التي تحكمه في مجموعه وفي أبعاضه، وفي أجزاء أجزائه وفي كل ذرة أو وحدة منه، إنما هي متممات للقوانين الكبرى التي تحكم الكون، وتسير الطبيعة، وتحرك الحياة، ولا يستطيع أن يوقف مسيرها، ويغير اتجاهها.

وإذن فـ قانون التشريع يجب أن يسير في هذا الاتجاه ذاته، وإلا تناقض الإنسان، وتناقض التشريع.

والإنسان ذاته وحدة متكاملة متداخلة الأجزاء، ليس لناحية منه استقلال عن ناحية، وليس لبعض انفصال عن بعض، وليس أكثر خطأ، ولا أشدّ خطراً من أن ينظر المشرّع إلى ناحية منه دون ناحية، وإلى بعض دون بعض، وإلى نشاط دون نشاط.

وليس أكثر خطأ ولا أشدّ خطراً من أن يعالجه مَرَقاً متفكّك الأجزاء، متوزّع النشاط.

والطبيب الذي ينظر في جهاز المريض ليعالجه، ثم لا يدخل في تفكيره حساب الأجهزة الأخرى يرتكب خطأ يئناً، ويوقع مريضه في خطر كبير.

ثم مبدأ (العدل).

.. النظرة الدقيقة المستوعبة العامة في جميع نواحي الفرد وحرّياته،
وجميع طاقاته وضروراته. وفي الطاقات والموارد الخاصة والعامة للمجتمع
والأفراد، والحقوق اللازمة لكل أولئك، ثم المعادلة التامة بين كل
أولئك، فلاحيّف ولاجور، ولانقص ولاتزيّد.

هذه هي الخطوط العريضة في الإسلام استعرضتها بإيجاز، أما تفصيل
هذا المجل، فأرجو من الله - سبحانه - أن يمدّني بتوفيقه، فأضع فيه بضع
حلقات من كتاب (الإسلام)، فمنه المدد وبه العون.

العبادة في الإسلام

باسم الإسلام العظيم، حبيب القلوب، وطبيب النفوس، وهدى البصائر، ونور الضمائر، ودليل العقول، ودين الحياة..

باسم هذا الدين أحييكم -أيها الأحبة- ويسعدني أن تتاح لي الفرصة لأتحدث إليكم، فأجد آذاناً مرهفة للسمع، وأذهاناً متفتحة للوعي، وقلوباً معدة للالتفات، وبصائر شيقة للهدى، وإرادات مطوّعة للتطبيق والعمل. إنها أصدااء الإيمان تتجاوب في نفوس المؤمنين، وتملأ آفاقهم، وتعبّد جوارحهم وجوانحهم..

وإنها جواذب الإسلام ومحبيّاته تفعل فعلها في قلوب المسلمين وتؤكّله مشاعرهم وضمائرهم، وتشدّهم بالعظماء من قاداته وأوليائه أمره. ومن الله أستمد لي ولكم مزيداً من التوفيق، ومزيداً من الإيمان، ومزيداً من هذا الحب الذي يعرفنا حلاوة الإسلام، وحلاوة الإخلاص فيه، وحلاوة العمل له.

ركيزة العبادة في الإسلام:

ولأمر -أجهل مآناه على وجه التحقيق- أُلقي في روعي أن أتحدث إليكم عن العبادة في الإسلام.

والعبادة في الإسلام موضوع عميق الجذور، فسيح النواحي، متشعب الوجوه والفروع.

والركيزة الأصلية التي يقوم عليها موضوع العبادة في الإسلام هي الركيزة الذاتية التي يقوم عليها وجود الإنسان، ووجود كل شيء يحتويه هذا الملكوت العظيم.

إن الإنسان ليؤمن - حق الإيمان -، ويوقن - حق اليقين - أنه - هو وجميع ما في هذه الطبيعة من حيٍّ، وجميع ما في هذا الكون من شيء - كائن حادث.. وإذن فلا بد له، ولجميع هذه المكوّنات من علة قادرة أوجدته بعد العدم، وأكملته بعد النقص، ورفعته بعد الضّعة:

﴿أَبَى اللّٰهُ شَكُّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (١)﴾.

إن الإنسان ليؤمن بذلك حق الإيمان، ولا يرتاب به ولا يجادل في ثبوته، إذا كان ممن يحترم عقله..

أمّا الذين يستخونون عقولهم، ويتنكّرون لفطرهم، فينكرون هذه البدهيات، فلا قيمة لهم في موازين العقول:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا، أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (٢)﴾ .

١- إبراهيم: ١٠.

٢- الأعراف: ١٧٩.

.. لا بد له ولجميع المكوّنات معه من علة موجدة، قادرة حكيمة
 عليمّة.. وهو وجميع الموجودات معه آثار لهذه العلة.. معلولون لها مربوبون،
 تُنشئهم كما تشاء، وتحييهم ثم تميتهم متى شئت وتفنيهم..
 عباد مربوبون مملوكون ينقادون لأمرها ويخضعون لتدبيرها ولاخيرة
 لهم معها ولا أمر، ولا نفع بأيديهم ولا ضرر.

هذه هي الركيزة الأصلية لموضوع العبادة في الإسلام.
 لا بدّ للإنسان أن يخضع، ولا يملك إلاّ أن يخضع ما دام عبداً مملوكاً
 لبارئه، لا يقدر على شيء إلاّ بإذنه، ولا يزداد ولا ينقص إلاّ بأمره.
 ولا بدّ للإنسان أن يخضع، ولا يملك إلاّ أن يخضع اعترافاً بآلاء ربه
 الذي أتمّ عليه النعمة، وظاهر عليه الرحمة..

هكذا يقول له العقل الواعي، وهكذا تقول له الفطرة السليمة..
 والعبادة لله ناموس كوني عام يخضع له كل شيء، ولا يفلت منه شيء:
 ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ
 وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ
 الْعَذَابُ﴾^(١).

هذا هو حكم العقل بوجوب العبادة، وهذا هو حكم الفطرة، ثم هذا
 هو حكم الطبيعة وقانونها الشامل الذي لا يشذ عنه شيء..
 فما بال بعض الناس يريد أن يخرج على النواميس الثابتة؟! وإلى أين يا

تُرى ينتهي به السُّرى؟!

العبادة وسيلة تربوية:

والعبادة في الإسلام وسيلة من وسائل التربية للإنسان، ومنهج من مناهج التهذيب لروحه وأخلاقه وطباعه.
نعم، وهي أقوى الوسائل فعلاً، وأبلغها أثراً إذا أُقيمت على وجهها الصحيح.

إنَّ الإنسان لن يصلح، ولن يستقيم، ثم لن يثبت على صلاحه واستقامته، إلّا إذا استشعر أنه دائم الصلّة بالله العظيم، دائم المثل بين يديه، وأن قوله وفعله وسرّه وجهه بعين الله، وتحت رقابته؛ لن يخلو منها لحظة أبداً، ولن يحتجب عنها بحجاب، وأن الله موفّيه حسابه على ذلك.
إنَّ الإنسان لن يصلح، ولن يستقيم إلّا إذا استشعر هذه الصلّة الدائمة بالله، وهذه الرقابة الشديدة منه، ليكون حيّ الضمير، شديد الرقابة على نفسه، دقيق المحاسبة لها على ما تقول وما تعمل، وما تأخذ وما تترك، وما تُسرّ وما تُعلن.

والعبادة في الإسلام هي النقاط التي تصل العبد بربه، وتشعره بالصلة الدائمة به، وتزوّد بالقوة المتصلة، والمدد المستمر منه، الذي يزوده عبر الطريق، وطوال الحياة..

.. هي النقاط التي يتصل بها الإنسان بمصدر الخير والقوة والعزة..
الذي لا ينقطع مدده، ولا يفنى عطاؤه، كما يتّصل المصباح المعتم بأحد

مفاتيح القوة الكهربائية، فيشع ويضيء، ويبقى مشعاً مضيئاً ما دام متصلاً بمبدأ النور، وما دام صالحاً مستعداً لقبول هذا العطاء.

محور العبادة في الإسلام:

﴿ قُلْ: إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ^(١) ﴾ .

هذا هو المحور الذي يدور عليه معنى العبادة في الإسلام، والأساس الذي يقوم عليه بناؤها، والنبع الذي يصدر عنه رواؤها، ويستمد منه صفاؤها. والشرط الذي تناط به صحتها، ويتوقف عليه عطاؤها..

.. أن يأتي العبد بالعمل لله رب العالمين، متقرباً إليه بامثال ما أمر، متحسباً له بالانتهاء عما زجر، مخلصاً له في العمل، مخلصاً له في القصد، مخلصاً له في التوجه..

﴿ قُلْ: إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ^(٢) ﴾ .

.. أن يأتي العبد بالعمل لله وحده وحده، ليؤدي بذلك وظيفة العبودية ويوفّي بعض حقوق الربوبية، وهذا معنى قول الفقهاء الأكابر (شرف الله مقامهم وأجزل كراماتهم): العبادة مشروطة بالقربة، فلا تصح إلا بقصدها، ولا تجدي إلا برفدها، ولا ترتفع إلا بمدّها.

١- الأنعام: ١٦٢.

٢- الزمر: ١١.

والآيَّان الكريمَتان قد جعلتا ذلك مبدأً عامًّا للمسلم، فالله وحده مقصده وغايته في كل عمل يُصدره، أو قول يفوه به، أو حركة يجريها.. حتى يحياه ومماته الله رب العالمين لاشريك له في شيء من ذلك.

مناهج الإسلام كلها عبادة:

ومعنى ذلك: أن الإسلام كله منهج عبادي من ألفه إلى يائه، بجميع تنظيماته وتشريعاته، تصل العبد بربه، وتُشعره برعايته ومدده، وترفده بعونه الذي لا ينقطع، وعطائه الذي لا ينفد.. لافرق بين منهج ومنهج..

فالمسلم لا يخطو خطوة، ولا يُعطي ولا يُمسك، ولا يسير ولا يقف إلا لله رب العالمين الذي شرع هذا الدين، وتَهَج هذا السبيل المبين.

فالعامل الذي يراقب الله في عمله، ويدين الله في كسبه، ويتقرب إلى الله في هذا العمل وهذا الكسب، لا يزال في عبادة مادام مشغولاً بذلك.

والزَّارع الذي يُطَبِّق حكم الله في فعله، ويراقبه في أمانته، ويمثل أمره في ذلك، لا يزال في عبادة ما دام مشغولاً بذلك.

والتاجر الذي يدير أمواله على مناهج الله، ويستدرّ أرباحها وفق تعاليمه، ويُخلص لله في عمله وفي نيّته، لا يزال في عبادة مادام كذلك.

وهكذا في كلّ عمل، وفي كلّ مجال، وفي كلّ حركة، وفي كل سكون، فمناهج الإسلام ونظمه التي أقامها لتنظيم الحياة، وتقويم الصلات كلها مناهج عبادة تصل العبد بربه، وتمدّه بعونه وترفده بعطائه، ولكن

العبادات هي النقاط الكبرى التي تضاعف المدد وتعزز القوة، وتقوي الصلة بالله (تعالى).

الوضوء:

إن العبد ليقوم إلى الصلاة، فيأمره الله بأن يغسل وجهه ويديه ويمسح برأسه وقدميه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ، وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ^(١) ﴾ .

إن الله - سبحانه - جعل الوضوء مدخلاً للصلاة.. وفي الحديث عن أبي عبد الله (ع) قال:

” قال رسول الله (ص): افتتاح الصلاة الوضوء وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم ^(٢) “.

فماذا تعني هذه الأفعال؟ وما جدواها وهو يتأهب للقيام بين يدي رب العالمين؟

إنّ الوضوء يتضمن من المعنى ما يؤقّله لأن يكون مدخلاً لهذا العمل العظيم.. إنه ليس مجرد غسل أعضاء ومسح أطراف، ولكنه إعداد روح وتهيئة نفس للدخول إلى حظيرة القدس..

١- المائدة: ٦.

٢- وسائل الشيعة ج ١ ص ٢٥٦.

إنه ليس مجرد تنظيف جوارح، ولكنه تطهير مشاعر وجوانح، والحضور بين يدي الله (جل وعلا) يفتقر إلى نفس نقيّة الباطن والمشاعر أكثر من حاجته إلى جسد طاهر الأعضاء والظواهر.

الوضوء إعداد روح وتهيئة نفس، للدخول إلى حظيرة القدس، كما هو طهارة بدنيّة يمثل العبد بها أمر خالقه، وتهيئاً لمناجاته.

وفي الأثر عن الإمام زين العابدين (ع)، كان إذا حضرت الصلاة وقام للوضوء اصفّر وجهه، وتغيّر حاله، وارتعدت فرائضه، فقليل له: ما لك يا بن رسول الله؟ فقال (ع): "إني أريد الوقوف بين يدي جبار السماوات والأرض (١)".

إن المؤمن إذا حضرت صلاته، وقام إلى وضوئه، وهمّ بغسل أعضائه تذكّر الذنوب التي اكتسبتها هذه الأعضاء فحجل، وألحّ عليه الخجل من الله فندم، وتذكّر قدرة الله (تعالى) عليه وحاجته الشديدة إليه فتأب.. فكان وضوؤه طهوراً لروحه كما هو طهور لبدنه.

.. إن المؤمن ليغسل وجهه، فيتذكّر الذنوب التي اكتسبتها عيناه ولسانه، وسائر الجوارح التي اشتمل عليها وجهه، فيستغفر الله - سبحانه - منها ويتوب.

ثم يغسل يديه فيتذكر ما اجتريحتاه من المآثم، وما ارتكبتاه من الجرائم، فيستغفر الله منها ويتوب.

ثم يمسح رأسه وقدميه فيتذكر خطايا سعى إليها بفكر، أو مشى نحوها
بقدم، فيستغفر الله منها ويتوب.

.. فيخرج من وضوئه طاهر الظاهر والباطن، نقيّ العلانية والسريّة.
طيب الجوارح والمشاعر، مستعداً للمثول بين يدي الله، والاقتراس من نوره.
والاقتباس من نفحاته.

.. هذا هو المعنى الكبير الذي أراده الشارع لَمَّا أوجب الوضوء
للصلاة، وجعله أهمّ الشرائط والمقدمات.

أَمَّا الصلاة:

والصلاة .. ما الصلاة ؟! ..

ما تعني بقيامها وقعودها وركوعها وسجودها وتلاوتها وأذكارها؟! ..
الصلاة هي فرد العبادة الأتمّ، ومثالها الأهمّ، وركنها الأعظم ..
وقد رُفعت في الإسلام مكاناً عليّاً، وحلّت بين عباداته وقرباته مقاماً
سنيّاً .. فكانت عمود الدين^(١)، وخير العمل^(٢)، وسبب الفلاح
والنجاح، ومعراج المؤمن، وقربان كل تقي^(٣)، وسلّم كل سعادة،
ومصدر كل خير، ومفتاح كل بر^(٤) وحطة كل خطيئة، وكفارة كل

١ - وسائل الشيعة ج ٢ ص ١٧ .

٢ - المصدر المتقدم ص ٢٥ .

٣ - م.ن ص ٣٠ .

٤ - م.ن ص ٢١ .

جريرة^(١)، وهي شفيعة الأعمال التي إن قبلت قبل ما سواها وإن ردت ردّ ما سواها^(٢).

إن الصلاة تعني أنها إسلام كامل لله (تعالى)، وخضوع شامل لإرادته وانقياد تامّ لأمره، فلا يأتي العبد إلاّ ما أمر، ولا يرتكب ما زجر، فأَي شيء يبقى من الصلاح والاستقامة إذا وفي العبد بعهدة؟..

الصلاة هي الوسيلة العظمى لتربية الروح، وترقية النفس، وطبعها على خلال الخير، ورفعها عن مهاوي السوء، وسقطات الهوى..
﴿وَأَنِصِرِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾^(٣).

أرأيتم -أيها الأحبة-؟ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأي معنى للاستقامة والتهديب غير اجتناب الفحشاء والمنكر؟..
وأي وسيلة للتربية والتهديب وتقويم الأخلاق والطباع أقوى من هذه الوسيلة إذا أقيمت على وجهها الصحيح؟!

حتى ورد في المنقول عن بعض أطباء العقول:
”إذا أردت أن تعلم أن صلاتك مقبولة عند الله أم لا، فانظر هل تهتك عن الفحشاء والمنكر أم لا“.

١- ن.م.ص ٢٢.

٢- ن.م.ص ٢٢.

٣- العنكبوت: ٤٥.

إنَّ قبولها عند الله مضمون لها إذا هي أدَّت وظيفتها، ونجحت في مهمَّتها، فهذَّبَت الروح، وأحيت الضمير، وأعلت النفس، وأيقظت المشاعر، وارتدع الإنسان معها أن يرتكب فحشاء أو يأتي منكراً، أو يصرَّ على إثم، وارتفع أن يقوده هوى، أو يُسلم زمامه إلى شهوة عابرة أو يمد يده في صفقة خاسرة.

وإنما تكون للصلاة هذه الخصائص إذا كانت -بحق- صلة للعبد بربِّه، يعيش بها في رحابه، ويقبس من نوره، ويتمتع بقربه ويلتذُّ بحبِّه، ويرتقي إلى ذلك الجو الطَّهور المليء بالقدس والنور..

وإنما تكون للصلاة هذه الخصائص إذا استكملت شرائطها وأفعالها كافة، واستوفت من السنن والآداب ميزانها، وأحرزت من الإخلاص لله والإقبال عليه ما يشدّها إليه.

وإنما تكون للصلاة هذه الخصائص إذا أمعن العبد يقبس من معانيها، واتخذها سلماً إلى الغاية الرفيعة التي يبتغيها.

إنَّ المؤمن ليرقى بصلاته إلى درجات المقرَّين، ويسمو إلى منازل الصَّديقين، والصلاة هي السِّلْم لهذا الرقيّ.. ألم يرد عن الطاهرين المطهرين(ع): إنها معراج المؤمن، وقربان كل تقيٍّ. ٨

إنَّها مضامير سبقٍ مفتوحة، وبعدها ربح أو خسارة، ونجاة أو بوار، وهزيمة أو انتصار، فطوبى للسابقين الذين أحرزوا الربح، وضمنوا لأنفسهم النجاة، وسجّلوا النصر، وفازوا بالفتح، وارتفعوا إلى الغايات.

فهل آن لنا أن نفيد من هذه المناهج التربوية العظيمة التي وُضعت
لإسعادنا؟

وهل آن لنا أن نؤدي عبادات الله (تعالى) كما أمر، ولا نأتي بها أفعالاً
مجردة من المعنى، وقالباً خالياً من الروح، وقشراً خاوياً من اللب، فتصبح
أعمالاً جامدة يؤتى بها للعادة، لأنسكاً حياً يؤتى به للعبادة ١٩
وهل آن لنا أن نفي لله بعهدنا ليفي لنا بما وعد؟..

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ،
فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١)﴾ .

هذه تساؤلات أترك الإجابة عليها لأعمالنا في المستقبل إن شاء الله
(تعالى).

ومن الله التوفيق.

الطهارة والتوبة

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾^(١) .

كانت هذه الآية الكريمة أولى خاطرة عرضت لي حين تناولت القلم لأبيّ دعوتكم - أيها الإخوة الكرام - .

« الله يحب التوابين » ... « والله يحب المتطهرين » ..

صنفان من الخلق يستحقان حبَّ الله (تعالى) ويستوجبان عظيم عنايته .. هذا هو مدلول الآية الكريمة لالبس فيه، ولكن ماهي الوحدة الجامعة بين هذين الصنفين لتجمعهما الآية في سياق، وتوحدتهما في الحكم وتقرنهما في المنزلة ؟

هذا ما أحببت أن أجعله مفتاحاً لحديثي معكم.

في أول الآية الكريمة ذكر للتطهير والتنزّه، وفيه أيضاً إشارة إلى الذنب، وذكر الذنب يمهد لذكر التوبة، فهل هذا وحده هو السبب في جمع التوابين والمتطهرين؟

نعم في أول الآية ما يدل على هذا وهذا.. لأنها تقول:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ،

وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ. إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ^(١) .
ولكن هذا بمفرده لست أظنه كافياً في ذلك.

الإسلام والإنسان:

برأ الله هذا الكون الفسيح الأرجاء البعيد الأغوار، وزحمه بهذه الكائنات المتنوعة العناصر، المتباينة الأشكال، وجرى في حكمته أن يجعل بعض الموجودات مادياً محضاً ليس للروح مدخل في تركيبه، وبعضها روحياً بحتاً ليس للمادة موضع في تكوينه، وجرى في حكمته - أيضاً - أن ينشئ هذا المخلوق العجيب: (الإنسان) فيجعله خلطاً من الروح والمادة.. يربطه بالكون الأعلى روحاً لها لطافة المجردات، ويشده إلى الكون الأدنى جسداً له كثافة الماديات، ثم ربط - سبحانه وتعالى - بين هذين الجزئين المتباعدين، حتى لا يستطيع أحدهما تصرفاً، ولا قبضاً ولا بسطاً، ولا أخذاً ولا رداً بغير مساعدة خليطه.

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ: إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ^(٢) 》 .
أيها الأعبة ..

هذه حقيقة الإنسان في رأي الإسلام، وفي نظر القرآن.. جسداً مخلوق

١- البقرة: ٢٢٢.

٢- ص: ٧١ - ٧٢.

من طين، وروح تنفخ من عليين..

جسد يتألف من تراب المادة ومائها، ويتكوّن من عناصرها وأجزائها، وينطبع بخصائصها وسماتها، ويخضع لقوانينها ومتطلباتها، وروح تسمو به إلى العالم الأعلى، وتنزع به إلى الصفات المعنوية المثلى .. فهو وحدة مركّبة من هذين الكيانين المختلفين، ومجموعة مؤلّفة من هاتين الجهتين المتمايزتين.

ليس مادة خالصة كما تراه المبادئ المادّية، وليس روحاً محضاً كما تراه الفلسفات والشرائع الروحية، فكلاهما قد انخرقا في طريقتهما، وحادا في الإنسان عن معرفة حقيقته، وقرّرا للإنسان مناهج وزعت كيانه، وأوجبت خلل سلوكه في الحياة ونقصانه.

ليس مادة خالصة لا علاقة لها بروح، ولا روحاً محضاً لا جدوى معها لمادة .. بل هو جسد وروح يحمل خصائص المادّة وخصائص ما وراء المادة .. من أجل ذلك كان على الدّين المصلح للإنسانية أن يرعى هذا التركيب؛ فلا يغالي في ترويض النفس وإرهاقها، وينسى أن له بدنأ مادياً يهوي به أصله إلى الطين ولا يبالغ بإرضاء الجسد وتدليله، ويغفل أن له نفساً عالية المطامح بعيدة الغايات؛ لا بدّ أن تُهذّب لتسمو وأن يؤخذ بيدها لتكمل.

نعم، هذه نظرة الإسلام في الإنسان، وعلى أساس هذه النظرة وضع للإنسان نظامه، وشرّع له مناهجه وأحكامه، فهو يتناوله بما هو روح وجسد، فيعطي كلاً من الناحيتين ما تستحقّ، ويوليها من العناية ما تستوجب..

لايكبت جسداً لحساب روح، ولا يُرهق روحاً لحساب جسد، ولايفصل جانباً عن جانب، ولا يُنقصه حظاً من الحظوظ ولا رغبة من الرغائب، بل يضع له التشريع الوافي والعلاج الشافي الذي لاينقص ولا يزيد، ولا ينحرف ولا يحيد.

هذه فطرة الإنسان وحقيقته، ثم هذه تنظيماته في الحياة وشريعته، ممتزجة مترابطة لا انفصال لجهة منها عن جهة، ولا انفكاك لنظام عن نظام، ولا بعد لغاية عن غاية .. كلّها من وضع الله العظيم العليم، خالق الإنسان ومقدّره، وبارئه ومصوّره .. وكلها أدلة قاطعة على عظمة الإسلام دين الفطرة، ومنظّم الإنسان في الجسد والروح والفكرة ..

﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١).

هذه تشريعات الإسلام لحياة الإنسان متشابكة مترابطة، لانفصال فيها لنظام روح عن نظام جسد، ولا لمنهاج عمل عن منهاج فكرة، ولا لقانون دنيا عن قانون آخرة، وكلها أنظمة تربية وتزكية، وإعلاء وترقية، وغايتها كلّها إنشاء الإنسان الكامل الإنسانية، الموفّي لربه حق العبودية .

إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين :

ومن أجل ذلك علمنا أن دين الإسلام وحده هو الدين الكامل الذي

يصلح للبشرية؛ لأنه وحده هو الدين الذي قام على هذه القاعدة ووفى بهذا الشرط .

.. علم أن للإنسان روحاً وجسداً، فهذب الروح والجسد معاً بما تحتمله الطاقة ويحفظ الوحدة .. نعم، الإسلام وحده هو الذي قام على هذه القاعدة ووفى بهذا الشرط، ولست أراي بحاجة إلى إقامة الدليل على ذلك، فقد علم المطلعون أن أديان الأرض كلها لم تلحظ في تشريعها وحدة أجزاء الإنسان في التكوين .. فككت بين أجزائه ففككت بين أحكامه، فكانت أحكامها بتراء لا تُصلح جسداً، ولا تهذب روحاً، ولا تسمو بمجموع.

الإسلام وحده قام على هذه القاعدة، وجرى في جميع تعاليمه على هذا المنهاج، والآية الكريمة المذكورة من شواهد هذه الدعوى :

« إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ».

للإنسان جسد وله روح، والجسد مظنة للتلوث بما يظهر عليه من داخله من الأقدار، وبما يسري إليه من خارجه من الأضرار؛ فكان هذا باعثاً لتشريع الطهارة في الإسلام ..

والروح كذلك مظنة للتدّس بما تستقيم به في باطنها من سيئ الطباع والأخلاق، وبما يتسرّى إليها من غيرها بالجاورة والاختلاط؛ فكان هذا سبباً لتشريع التوبة.

فالطهارة والتوبة توأمان في الدين يتشاهان في النشأة، ويتمثلان في الفائدة .. أولاهما لتنزيه البدن مما يتعلق به من أدران، وأخراهما لتركية النفس عما يطرأ عليها من ذنوب ..

والإنسان الزكي المتنزه، الذي يقرن طهارة ظاهره بطهارة باطنه، ونزاهة سرّه بنزاهة علانيته، ويترسم حدود الله في هذه وتلك، هو الذي يستحق عناية الله (جل شأنه) ومزيد لطفه، ويستوجب حب الله وعظيم توفيقه.

« إن الله يحب التوايين ويحب المتطهرين ».

الصلاة والصيام:

وعلى هذه القاعدة أيضاً بنى الإسلام تشريع الصلاة والصيام.. فالصلاة ركوع وسجود وقيام وقنوت، وهي حركات وأعمال يظهر فيها خضوع الجسد وانقياده لخالقه ومدبره، ولكن هذه المجموعة من الأعمال لا يتضح فيها مفهوم العبادة حتى تقترن بالنية والخلوص.. وهو المظهر الأعلى لخضوع الروح لهذا الخالق المدبر.

والصوم إمساك عن شهوات ولذائذ، وذلك تعبّد للجسد، ولكن لا يؤتي ثمرته الصحيحة حتى يقترن بالخضوع الروحي للأمر العظيم..

وليس أثر الصوم في الروح وأثر الصوم في الجسد هو هذا التطهير

المعنوي الصحيح.

نعم، ليست هذه فقط هي فائدة الصوم، فله فوائد بدنية يوضحها علم الطب، وله فوائد روحية كبيرة يشرحها علم الأخلاق.

.. بدن الإنسان مجمو من أجهزة متسلسلة الوظائف متضامنة الغايات يمهّد بعضها لبعض ويسند بعضها عمل بعض، وبانتظام هذه المجموعة تنتظم

الحياة لهذا المخلوق العجيب.

وبدن الإنسان مجموعة من الأنسجة والخلايا والمواد متزنة المقادير، دائبة العمل متجددة النشاط، وهذا العمل الدائب، والنشاط المتجدد، هو معنى الحياة، أو هو المظهر الملازم لصفة الحياة، ونشاط هذه المجموعة يتوقف - في درجته الأولى - على الوقود الذي تنتجه الأجهزة من الغذاء، يعوض به ما يُستهلك من الأنسجة، ويستبدل ما يُحرق من الخلايا، ويخلف ما يُستنفذ من المواد.

وفائدة الصوم الأولى هي راحة جهاز الهضم والامتصاص في فرصة الإمساك عن الطعام والشراب. والجهاز الذي يدأب على العمل طوال عامه يفتقر إلى الراحة والاستجمام فرصاً معينة في العام. أجهزة التغذية في بدن الإنسان تنتج من الوقود ما يزيد عن حاجة الإنسان، وذلك احتياط طبيعي للضرورة التي قد تحدث، ومن أجل الغذاء المدخر يتمكن الإنسان من العيش مدة طويلة، وإن انقطع عن الطعام، وذلك واضح في الطبّ وثابت في التجربة، وفائدة الصوم الثانية أن تتوجه أجهزة النشاط - على اختلافها - إلى الأغذية المخزونة، فتبرزها إلى دور العمل، ويكفي الجسم أذى الزيادات التي قد تخرجه عن التوازن، والسموم الضارة التي قد تتولد من تلك الزيادات.

والصوم - من وراء ذلك الاستجمام وهذا التطهير - عملية مهمة من عمليات النشاط والتجديد.. نشاط الحياة وتجديد الشباب، لأنه يتلف الخلايا والأنسجة القديمة ويستبدل عنها - بعد الإفطار - بعوضٍ جديد.

ومن أجل هذه الخاصة قد استخدم الصوم كثيرون من الأطباء في علاج كثير من الأمراض، فهو يستهلك الأجزاء الموبوءة ثم يعوض عنها بأخرى سليمة من الأوبئة.

هذه نظرية الطب الحديث والقديم عن الصوم..

الصيام وعلم الأخلاق:

أما علم الأخلاق فأراني —من وجهته— في غنى عن ذكر نظرية أو إطالة في تعليل.

فالصوم في بداءته صبر، وفي نهايته شكر، وهي إحدى عجائب التشريع التي يصنعها الإسلام أبو العجائب وصانع المعجزات.

الصوم في صورته التي يتدئ بها صبر: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ^(١)﴾.

وفي حقيقته التي ينتهي إليها شكر: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ^(٢)﴾ .

أسمعتم؟ .. هكذا يريد الإسلام أن نتسامى، وهكذا يريد منا أن نؤدي فرض الصوم العظيم.

الصوم في بداءة أمره صبر، وتدرج على السيادة والقيادة، يكون به المرء سيد نفسه ومالك زمامها، وماسك لجامها، وضابط نزواتها، وحاكم

١- البقرة: ١٨٩ .

٢- البقرة: ١٨٥ .

شهوآتها.

الضبط الكامل للنفس، والملك لزمَام الشهوة والغضب. فإذا عوَّده الصوم على مصابرة نفسه يوم الصبر وهو في الرخاء، كان أقدر على مصابرة العدو ومصابرة الحياة في البأساء والضراء.

وإذا انتصر على نفسه يوم الصوم فكفَّها عن الشر، وقادها إلى الخير، كان أجدر بالانتصار في جميع المواقف، وكان أحرى بالأمن من جميع المخاوف.

هذا هو الصوم في بداءته صبر يجرّ إلى صبر، ونصر يقود إلى نصر، وسيادة على النفس، وكفّ من غلوائها، وتسامٍ عن أهوائها وليس كبتاً وحرماناً كما يقول القائلون، ويزعم الزاعمون، الذين يبتغون للإسلام الغوائل ويطرصدون منه المقاتل.

هذا هو الصوم في بداءته، وهو إنما يمثل الهدف القريب من أهدافه، والمعنى الداني من معانيه، وهو دور الكفّ والانتهاء، ثم يأتي من بعده الدور الثاني للصوم، وهو دور الإنشاء والبناء، وهو في كلا دوريه سمو وارتقاء.

إن الصائم في دوره الأول إنما يسكت صوت الهوى، والأمر الأعظم في الصوم أن يكون ذلك تمكيناً لكلمة الحق والهدى، وهذا الأمر هو الذي عبر عنه القرآن بالتقوى، إذ قال (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١).

ثم عبر عنه بالشكر إذ قال في الآية السابقة: «وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». وبعد، فإن أثر الصوم في تزكية الخلق وتصفية النفس، وتقوية الذاكرة محسوس لا ينكره أحد.

وأينا يجهل أن الصوم عصام يمنع النفس أن تتردى في الشهوات، ويكبحها أن تنزلق في المهاوي؟

وأينا لا يشعر بهذه اليقظة الروحية التي تملك الصائم وهو يصوم، وهذه الإشراق التي تملأ جوانب نفسه وهو يفطر؟

وأينا لا يتحسس هذه الرقة التي تعمر قلوب الصائمين، والخشية التي تغمر نفوسهم.

كل هذه الآثار بيئة للصوم في تهذيب النفس، وإعلاء الصفات وتزكية الضمير.

ويعمضي الإسلام دين الإنسانية، ودين التهذيب في كل عباداته، وفي كل إرشاداته على هذا المنهاج القويم لا يشذ عنها شيء، ولا ينقص في مورد..

ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ^(١)﴾.

كانت الآية الأولى من هذه الآيات الكريمة مجالاً لحديث خاص كان لي مع بعض إخواني من الأساتذة الأدباء في البحرين، تعرّضت فيه لبعض أهداف الآية، وأشارت إلى بعض آفاقها.

وقد رغبت أن أتحدث إليكم -أيها الإخوة- عن بعض آفاقها الأخرى...

والقرآن بعيد الآفاق، عميق الأغوار لا ينتهي الباحث إلى غور منه إلا ويجد أن وراءه أغواراً أبعد، ولا يسمو إلى أفق إلا ويرى أن فوقه آفاقاً أسمى وأوسع وأعظم.

وتسمو آفاق الكتاب العزيز وتسمو، وتبعد أغواره وتعمق، وينقلب

البصر وهو حسير، ويرجع الفكر مبهوراً يسبح بعظمة القرآن، ويلهج بإكبار رسوله (صلى الله عليه وآله).

إعجاز في اللفظ، وإعجاز في المعنى، وإعجاز في الأسلوب، وإعجاز في البرهنة، وإعجاز في التشريع، وإعجاز في الحكمة، وإعجاز في استقصاء طبائع هذا الكائن وأدوائه، وإعجاز في علاجها، وإعجاز حتى في حصر وجوه الإعجاز.

درس بليغ في الدعوة إلى الله:

والآيات الأربع الكريمة تحوي درساً عالياً في الدعوة إلى الله - سبحانه، تبين فيه حدود الدعوة وتُحمل شرائطها، وترسم فيه صورة حياة شاخصة للداعية الحق، وتعين له خطته، ومنهجَه في الدعوة.

ولابدّ للأمة من تفهم هذا الدرس، ولا بدّ لها من العمل على الإفادة منه، ولا بدّ لها من صوغ أفرادها على هذه الصورة الفريدة، إذا رغبت في المنزلة التي أعدت لها في التكوين.

وليست المسألة مسألة رغبة وأمنية، فكل مسلم يجب أن يكون داعية من دعاة الله (جل شأنه) وشهيداً على الناس من شهادته، ولا عذر له أبداً في أن يتغاضى عن هذه المهمة، ولا ماساغ له في أن يتهاون بها. وصدق الله العظيم فإنه يقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ. إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا

وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١) ﴿

نعم، والظروف الراهنة للأمة من أشد الظروف إلزاماً عليها بأن تفهم هذا الدرس الرفيع، وأن تجهد في الإفادة منه.

المبدأ والغاية والحدود:

"ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين".

هذا هو مبدأ الدعوة وهذه هي غايتها، وهذه حدودها وأبعادها، ثم هذه شرائطها.

استسلام واثق لله، وانقياد خالص لأمره، فالله - سبحانه - هو مبدأ الدعوة وهو غايتها.

وفي نطاق شريعته، وفي إطار طاعته تنطلق الدعوة وتحدد، ولا تتجاوزها أبداً، ولا تقصر عنها، فهذه هي حدودها وأبعادها.

ثم هي تطابق كامل بين القول والعمل، وبين السرّ والجهر، وبين الدعوة والعقيدة . وهذه هي شرائطها ومؤهلاتها.

ثم .. هذه هي الخطوط الأولى التي يضعها كتاب الله - سبحانه - لصورة الداعية الحق.

إخلاص في الدعوة، وإخلاص في العمل، وإخلاص في الاعتقاد،

واستسلام كامل لله بحيث تذوب معه الشخصية، وتَمَّحِي الغايات ..
ولنتحاكم إلى الفطرة الواعية، وإلى العقل السليم في قيمة الدّعوة بعد
كل هذه الأرصدة، وهذه الضمانات .
"ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال : إنني من
المسلمين".

داعية الله والعقبات :

وتأتي الآية الثانية لتتم ملامح الصورة وتكمل مقوماتها:
"ولاتستوي الحسنة ولا السيئة".
وهذا الحكم كذلك بدّهي لا يمتري فيه عقل .. إن الحسنة والسيئة
لا تستويان خطراً، ولا تستويان أثراً.
وكما لا تستوي الحسنة والسيئة فكذلك لا يستوي فاعل هذه وفاعل
تلك.

وداعية الله هو الذي ترفع عن صغار الغايات، ومحض النصيحة، ومحض
الإخلاص، فجدير به أن يستكمل هذه الأشواط العظيمة إلى نهاياتها: أن يربأ
بنفسه وبدعوته وبإخلاصه من أن يقابل السيئة بمثلها.

..إنه سيصطدم في دعوته بأهواء يحرص المدعوون عليها، وهو يريد
تقويمها، وعبادات وتقاليد فاسدة هم يقدّسونها وهو يريد تحطيمها، وبأمور
كثيرة يمدّها الجهل، ويرفدها الغيّ وتقويها الشهوات والنزوات وهو يريد
إصلاحها .. وستثور النفوس الصغيرة، وتغضب لهذا التحدي، وتواجه دعوته

بالهزء، ونصيحته بالاستكبار، وتكيد له ماوسعها الكيد .. ستقابل الحسنة بالسيئة، وعلى الداعية في هذه المواقف أن يتحرّز من السقطة .. أن يبقى في أفق دعوته رفيعاً رفيعاً كالنجم يهدي الحائر، ويقيّل العائر.

"ولا تستوي الحسنة ولا السيئة".

إن العقول لا تمترى في هذه الحقيقة، وإن مردت النفوس، وإن شذّت، فعلى داعية الله أن يقابل السيئة بالحسنة، فإن ذلك الجامح الغاضب إذا رأى أن سيئته قوبلت بالصفح، وأن جهله غمر بالحلم انكسرت سورته، ولان جماحه، وخجل من نفسه، واستسلم طائعاً، واستبدل بالبغض حباً وبالعداء ولاء:

"ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم".

نعم، إنه حلم الحليم، وسماح الكريم .. إنها أخلاق الإسلام ينشئ عليها بنيه.. يقوم بها طباعهم، ويروض جماحهم، ليقيم بهم المجتمع الأسمى الذي يتغيه، ويحقق لهم الغاية الكبرى التي ينشدها ..

.. إنها أخلاق الإسلام التي تجعل كل فرد من أبنائه دليلاً شاخصاً على عظمة الإسلام، وعظمة أهدافه..

.. إنها أخلاق الإسلام التي لن يسمع بها أحد إلا أيقن بأهليّة هذا الدين لقيادة الدنيا .

إنها أخلاق الإسلام، وإضافتها إلى الإسلام دليل على أنها لا توهب لكل أحد، ولا تؤتى بغير ثمن.. إنها تفتقر إلى بذل، وتفتقر إلى جهاد نفس، وجهاد نزعات .. إنها منحة لا توهب دون أهلية ولا تلقى دون استحقاق .

"وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم".

الاعتصام بالله وحده:

ولكن نزعات النفس كثيرة العدد، ومسارها إلى غاياتها كثيرة الالتواء شديدة التعقيد، ولا يَأْمَنُ الداعية المؤمن أن تطغى عليه نزعة من هذه النزعات؛ فتتخذ سبيلها إلى قلبه، ويتدخل الشيطان فينزع، ويثير ليهوي بالداعية من أفقه الرفيع.

وحصنه العظيم من ذلك كله هو الاعتصام بالله من النزعات والنزعات:

"وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم".
اعتصم بالله وحده، فإنه الكافي وحده، وهو الذي بوأك هذه المنزلة وأمرك بالتعالى، وأرشدك إلى الاعتصام، وهو السميع لشكواك، العليم بحالك.. .

اعتصم بالله وكفى، فكل محاولة من أي ذي قوة ستزول إذا عذت بهذا الحصن العظيم.

هذا هو الدرس الذي نتلقاه خاشعين من الآيات الأربع الكريمة، وهذه هي الصورة الفريدة التي ترسمها أماننا للداعية الحق.. فهل نحن داعون؟ وهل نحن سامعون؟ ثم هل نحن عاملون؟

لابد للأمة من تفهم هذا الدرس، ولا بد لها من العمل على الإفادة الصحيحة منه، ولا بد لها من أن تصوغ أفرادها على هذه الصورة الفريدة إذا رغبت في المنزلة التي أعدها الله لها في التكوين. والظروف الراهنة من أشد

الظروف إلزاماً على الأمة بأن تفهّم، وأن تجهد في الإفادة.

مشكلة اليوم:

أيها السادة ..

وليست مشكلة اليوم للإسلام مشكلة مناهج ونظم، ومفاهيم وكفاءة للقوامة على الحياة، فقد أثبتت لغة الأرقام أن الإسلام أغنى الأديان والمبادئ والشرائع بهذه الأشياء، وأجدرها جميعاً بقيادة ركب الحياة.

وأقول: إن الإسلام أغناها جميعاً بهذه المؤهلات جرياً مع تصاريف اللغة، وقد تضيق هذه عن التعبير، وإلاّ فقد أوضحت لنا الحقائق - حتى لم نذر مكاناً للريب - أنّه لا غناء بغير دين الله.

ليست مشكلة اليوم للإسلام مشكلة مناهج ونظم تسير الحياة، ولكنها مشكلة من يحمل القبس المشع ليضيء الحياة..

مشكلة جيل واع رشيد، يفقه الإسلام ويحيا به، ويعيش له، ولا يجد السعادة إلّا في ظلاله.

وهي - قبل ذلك - مشكلة دعاة أبرار مخلصين يحملون المشعل، ويضيئون الدرب، ويتغلغلون إلى الفطر.. يطردون ما علق عليها من رين، وإلى الضمائر يقومون ما طرأ عليها من زيغ، وإلى العقول والمشاعر والأذهان والأخلاق يصلحون ما عرض لها من انحراف..

هذه هي مشكلة اليوم للإسلام..

مشكلة الأساس الذي لن ترسو القواعد، ولن تقوم الأضلاع، ولن

ينتهض البناء إلا بعد تثيته.

فهل نحن سامعون ؟ ثم هل نحن عاملون ؟

﴿ وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ. وَسَتُرَدُّونَ إِلَى

عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١) ﴾.

وصدق الله العظيم .

ذكرى القرآن

نعم، في ذكرى القرآن، ولكن لا على الحد الذي ألفه الناس من معنى الذكرى.

ليست حديثاً أو رمزاً يخلد به تأريخ، أو تمجّد به بطولة، أو يشاد به ذكر، فمقام القرآن فوق الأحاديث والرموز، وفوق التواريخ والبطولات، والقرآن كتاب العظمة بذاته، لا بإشادة ولا بإطراء، وهو كتاب الحياة وكتاب الخلود بذاته، لا بذكرى تقام، ولا بحديث يكتب أو يتلى.

صلة المسلم برّبه:

... في ذكرى القرآن، وهي تعهّد صلة لا تمّن ولا تخلق، ولا تضعف ولا تفتر، ولا تزيد على كرّ الليالي إلا قوة وثباتاً، وإلاً نماءً أو رواءاً !
صلة المسلم برّبه، ثم صلته بدينه: بالسبيل القويم الذي يعرفه برّبه ويبلّغه رضاه ويسعده بتقواه.

وإذا تعهّد المسلم صلته برّبه على ضوء القرآن، فقد تعهّد كل صلة له بالمجتمع المسلم، وبالمجتمع البشري الكبير، وبأفراد كلّ من هذين المجتمعين، من قرّب منهم في النسب ومن بعد فيه، ومن اجتمع معه في حدود الزمان والمكان ومن افترق، ومن شاركه في مصادر القوت وضرورات العيش ومن

استغنى، فكل هذه امتدادات لصلته الكبرى برّبه في رأي القرآن.
نعم، هذا هو المبدأ الأول الذي ينبثق منه المذهب الاجتماعي في دين الإسلام، وفي منهج القرآن، وهذا هو ينبوع الطاهر الزكي الذي تستقي منه كل صلة للمسلم في هذه الحياة فتزكو وتسمو.
والقبلة الحارة التي تضعها على فم ولدك أو على جبين أخيك إذا كانت للعاطفة الجردّة لا تجد فيها من اللذّة مثل ما تجده في هذه القبلة - ذاتها - وأنت موقن بأن صلّتك بالولد وبالأخ امتداد لصلّتك بالله، ولا يجد هو فيها من السعادة مثل ما يجده فيها وهو يشعر هذا الشعور.

تجديد لوثيقة العهد القديم:

... في ذكرى القرآن، وهي تجديد ميثاق قدم سبقت إليه الفطرة في بداءة تكوين الحياة، بل وفي بداءة تكوين الكون، ثم اعترف به الشعور، وصدّق الحس، وأقرّ العقل، وآمن القلب، واستجاب الضمير.
وسجّل القرآن وثيقة هذا العهد في آية من آياته، لتذكر الفطرة فلا تغفل، ويتنبّه الشعور فلا يضلّ، ويستيقن العقل فلا يرتاب، ويزداد القلب إيماناً، ويزداد الضمير اطمئناناً.

نعم. سجّل القرآن وثيقة هذا العهد في آية من آياته فقال:
﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ. أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى، شَهِدْنَا. أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ، أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ،

أَفْتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ؟ (١) ﴿

الهداية للتي هي أقوم:

... في ذكرى القرآن، وهذه هي الهداية الحكيمة الرشيدة للتي هي

أقوم، ثم الدعوة إليها بالتي هي أحسن.

الهداية للتي هي أقوم: للعدل الشامل الكامل، في كل وجهٍ دعا إليه هذا

الكتاب العزيز، وفي كل نهج قرّره وأمر الإنسانية أن تسير عليه.

لتي هي أكثر استقامة، وأعظم اعتدالاً، وأوفر حكمة، وأوفى رشداً،

وأكبر مطابقة لواقع الأشياء، ولواقع الحياة، ولواقع الإنسان، وللموازنة

الدقيقة بين طاقاته وضروراته، وبين حقوقه فرداً وحقوقه أمة، وحقوقه مجتمعاً

واحداً عاماً تفنى فيه الحدود، وتتساوى الصلات.

للعقيدة التي هي أقوم، وللملة التي هي أقوم، وللعبادة التي هي أقوم،

وللمناهج التي هي أقوم، ثم للعلاقات التي هي أقوم، وللحدود التي هي أقوم،

وللمفاهيم التي هي أقوم، وللمعارف الكونية التي هي أقوم.

ثم الدعوة إلى هذا العدل المطلق الشامل بالتي هي أحسن.

بأساليب القرآن الفريدة المعجزة التي تتبسّط مع الفطرة، وتتعمق مع

العقل، وتكون أكثر عمقاً وأبعد غوراً مع الفلسفة، ثم لا يشغلها شأن من

هذه عن شأن.

بأساليب القرآن التي أعجزت البلغاء عن تبين مدى الإعجاز فيها.

بيعة المسلم لله:

... في ذكرى القرآن وهي ببيعة المسلم لله، ويمينه التي أداها لما اختار الإسلام ديناً: أن يُحقَّ ما أحقَّ كتاب الله من مناهج ويطل ما أبطل، وأن يقطع ما قطع من الصلوات ويصل ما وصل، وأن يجاهد دون هذه الحقائق بنفسه وماله، وأن يصبر عليها ابتغاء وجه ربّه، مهما حالت الأحوال، وضائق المضائق، فلا تضطرب له قدم، ولا تضعف له عزيمة، ولا تختلف له علانية ولا سريرة.

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْفُضُونَ الْمِيثَاقَ، وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ. وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً، وَيَدْرُؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ، أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (١)﴾.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٢)﴾.

... في ذكرى القرآن، وهي هذه اليد الكريمة التي تمتد إلى الفرد الضعيف الذي لا يملك لنفسه نفعاً، ولا يهتدي إلى رشده سبيلاً.

اليد الرحيمة التي تمتد إلى هذا العاني فتملاً آفاقه بطاقات الخير، وتنفخ

١- الرعد: ٢٠-٢٢.

٢- المحجرات: ١٥.

في ضميره وفي جميع مشاعره حبّ الخير، وتبر لعينه ولبصيرته سبل الهدى، ثم تصل قوّته الضعيفة الواهنة المحدودة بقوة الله العظيمة التي لا تغالب ولا تنهاى، وبعزة الله التي لا تُضام، وبقدرته التي لا يمتنع منها شيء...

... بمدد الله الدائم الذي لا ينفد ولا ينقطع في كل مجال من مجالات الخير، وفي كل وجه من وجوه الهدى، وفي كل مظهر من مظاهر القوة والعزة والكرامة والنصرة.

وبعد أن تنشئه هذه التنشئة العالية وترتفع به إلى هذه الغاية، وبعد أن تكمل له هذه العدة تعرفه قيمته في المجتمع ومنزلته منه، ومهمته التي يجب أن يقوم بها في توجيهه وإسعاده: أن يكون لساناً من ألسنة الحق في الناس، وداعياً من دعاة القسط فيهم، وشهيداً من شهداء الله، وقيماً من قواميه على إنفاذ أحكامه، وبسط عدله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ، شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ. إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا. فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا، وَإِنْ تَلُوتُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا^(١)﴾.

غناء الإنسان في حاجته إلى نظام الحياة:

... في ذكرى القرآن، وهي هذه اليد المبرورة المشكورة التي أغنت

الإنسان أن يفكر في تقرير قاعدة ثابتة لحياته، وفي وضع مبدأ حكيم لاجتماعه، وفي تشريع دستور لحكومته، وفي سنّ أنظمة مفصلة عادلة لاقتصاده وسياسته ومعاملاته وحدوده وحقوقه، وفي إنشاء مناهج لتربيته وأخلاقه وسلوكه: أن يلتجئ في قوانين حياته إلى عقول محدودة، وأن يشتقّها من نظرات ضيقة وملابسات مخصوصة.

هذه اليد المشكورة التي أغنته في كل حقل من حقول التشريع، وفي كل وجه من وجوه التنظيم، أن يمد يده فيستجدي، أو يجرب موهبته فيخترع، أو ينظر في قوانين الدنيا يمينا ويساراً فيركب ويستنبط.

أغنته لو أنه فكر وأبصر، وسيفكر لا محالة ويُبصر، وسيعلم -حين ذاك- أنه الحق لا ريب فيه، ولكن بعد أن يدفع ثمن غفلته مضاعفاً، وبعد أن تمرّ به التجارب الطويلة، فتثبت له قصور هذه المحاولات كلها، وبعد أن يتنبّه المسلم لشأنه فيعلم أنه متناقض الرأي، متناقض السلوك تجاه كتاب ربّه.

ليلة القدر:

... في ذكرى القرآن، وللأيام قسط منها كما للنفوس، وللتاريخ تشريف وتكريم كما للإنسانية.

على أن القسط الذي تناله الأيام من هذه الذكرى. والشرف الذي يصيبه التاريخ يعودان آخر الأمر فيصحان حظاً من حظوظ الإنسان.

وشهر رمضان هو الشهر الذي ميّزته العناية بهذا القسط، وليلة القدر

منه هي التاريخ الذي اختصته الحكمة بهذا التشريف والتكريم.
 قد تكون هذه الليلة المباركة من هذا الشهر العظيم وقتاً لنزول القرآن
 جُملة على قلب الرسول (ص)، ثم تنزل - بعد ذلك - مفصلاً مرتلاً طيلة
 عهد الرسالة، فقد قال بهذا مفسرون وأولوا به أحاديث.
 وقد يكون هذا الشهر - وهذه الليلة منه على الخصوص - تاريخاً
 لنزول أول نجم من نجوم القرآن، فقد ذهب إليه ذاهبون من علماء التفسير
 أيضاً..

وعلى أي حال فلهذا الشهر ولهذه الليلة صلة وثيقة بنزول القرآن، وقد
 شهد بها القرآن وناط بها ذكرها، وأرخ بها نزولها، فقد قال في سورة البقرة:
 ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى
 وَالْفُرْقَانِ ^(١) 》.

وقال في سورة القدر: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ
 الْقَدْرِ؟ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ^(٢) 》.

شهر رمضان وليلة القدر هما مطلع هذا النور الإلهي الذي أضاء
 للإنسانية من ظلمة، وأنقذها من هلكة، وبصرها من عمى، وهداها من
 ضلالة، أفليساً جديرين إذن بالتكريم؟!

١ - البقرة: ١٨٥.

٢ - القدر: ١-٣.

أليس من الحق أن يكون لهما في الإسلام شأن لا يُجهل، ومنزلة لا تضيع ؟

أليس جديراً بهذا الشهر أن يكون موسم البرّ، ومضاعفة الأجر، وبهذه الليلة أن تكون خيراً من ألف شهر: أن يكون عمل البرّ فيها خيراً من عمله في ألف شهر كما نطقت به أحاديث أهل البيت (ع)، وفسرت به الآية الكريمة ؟

وفريضة الصوم هذه التي كتبها الله على الذين آمنوا لعلهم يتقون، أليست تكريماً لهذا الشهر، وذكرى للقرآن، وشكراً لنعمة نزوله ؟
إن الآية الكريمة السالف ذكرها قد تشير إلى ذلك، فإنها قالت: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ... ﴾ .

نعم، وهكذا يعود القسط الذي أصابه شهر الصوم من ذكرى القرآن والذي أصابته ليلة القدر ففضّلت به على ألف شهر، يعود فيصبح حظاً جديداً يسعد به الإنسان.

ذكرى ليلة القدر

قال لي الأعراء الذين دعوني للمشاركة في هذا الحفل: "إنها ذكرى ليلة القدر"، فأكبرتُ الذكرى، وأكبرتُ القصد.

اقتربت في خاطري مع هذا الاسم الكريم قوله الله (سبحانه) عن كتابه: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ^(١) 》.

وقوله (عز اسمه): ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ، إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ^(٢) 》.

اقتربت هاتان الآيتان في خاطري مع اسم ليلة القدر، كما يقترب الأليف بالأليف، وكما يجتمع الحبيب إلى الحبيب، ونزول القرآن في ليلة القدر -في ما يعتقد كل مسلم- أعظم حادث أوجب لها الفضل، وأكبر ما فرق فيها من أمر حكيم.

ذكرى القرآن والإسلام:

وإذن، فذكرى ليلة القدر إنما هي ذكرى القرآن كتاب الله الكريم، بل وذكرى الإسلام دين الله العظيم.
وإذن فهي ليست ذكرى بالمعنى الذي يعرفه الناس حين يُطلقون هذه

١- القدر: ١.

٢- الدخان: ٣.

الكلمة، وحين يقيمون الاحتفالات والذكريات، كما قلت في حديث كتبه عن ذكرى القرآن قبل عام.

إنها ليست ذكرى حادث مرّ وجوده، ومرّ تأريخه، وإنما تقام ذكراه لتُستبقى بعض آثاره.

ليست ذكرى شيء انتهى أمدّه من الوجود، لتبقى عظمته خالدة في القلوب.

ولكنها تعهد صلة، وتجديد ميثاق، وإحكام عهد.

إنها تعهد المؤمن صلته بالكتاب الذي صدّق، وبالدين الذي آمن، وإنها تجديد ميثاقه لربّه الذي أخذه عليه في عالم الميثاق، ثم انطبع في كيان هذا المخلوق، وفي أغوار نفسه، طاقة قويّة تستمدّ منها ركائز الفطرة، ونوراً هادياً تقتبس منه براهين الفكرة:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى، شَهِدْنَا. أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا: إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ^(١)﴾.

إنها تعهد صلة لم ترث ولم تخلّق، وتجديد ميثاق لم يهن ولم يتزلزل، وإحكام عهد لم ته رابطته، ولم يُنقض مُبرمه، ولم يتزعزع أسسه، ولكن هكذا يريد الله لعبده المسلم، أن لا تزداد صلته به إلا قوّة، وأن لا تزداد عقيدته

بتوحيده إلا رسوخاً وثباتاً، وأن لا يزداد إيمانه بدينه إلا إشعاعاً وانطلاقاً، وأن لا تزداد عزيمته في جهاده دون عقيدته ودون دينه إلا شدة ومضاءً، وأن لا يزداد صوته في الدعوة إلى الله والهداية إلى سبيله إلا علواً وارتفاعاً:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ^(١) ﴾ .
 ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ^(٢) ﴾ .

هذه هي ذكرى ليلة القدر -أيها الإخوة-، أو بالأحرى هذه هي ذكرى القرآن في ليلة القدر.

وليكن معنى نزول القرآن في ليلة القدر ما يكون، وليقل علماء الحديث وعلماء التفسير فيه ما يقولون.

ليكن معنى ذلك أن هذه الليلة المباركة أنزل فيها أول نجم من نجوم القرآن، كما يرى البعض، أو أن القرآن أنزل فيها جملة واحدة، وليكن ببعض مراتب النزول كما يراه آخرون.

ليكن معنى نزول الكتاب في هذه الليلة وفي هذا الشهر أي معنى، فإن الأمر يستوجب الاهتمام، ويستوجب التعظيم.

١ _ الحجرات: ١٥.

٢ _ المائدة: ٧.

نور وكتاب مبین:

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ^(١) ۞ ﴾

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ^(٢) ۞ ﴾

المعجزة الخالدة للشريعة الخالدة، والمنهاج الكامل للسعادة الكاملة، والروح الحي الذي يهب الحياة الطيبة، والنظام العدل لحكومة الحق العادلة، والدستور الثابت الباقي الذي لا عزّ إلا بامتثاله، ولا نصر إلا في ظلاله.

وإذا كان الإسلام دين الحياة ودين الأبد ودين القرون، وإذا كانت عقيدة الإسلام هي العقيدة التي لا يقبل الله غيرها، وإذا كانت شريعته هي الشريعة التي لا يرتضي سواها.

﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ^(٣) ۞ ﴾

.. إذا كان كل أولئك حقاً لا ريب فيه - وكل أولئك حق لا ريب فيه - أفليس من حق البشر كافة أن تقام لهم المعجزة الهادية الباقية التي تكشف الظنون وتخلد مع القرون ؟

١ - المائدة: ١٥-١٦.

٢ - الزمر: ٢٣.

٣ - آل عمران: ٨٥.

أوليس من حقهم كافة أن يعيّن لهم المنهاج الكامل للسعادة، والنظام العادل للحياة، والسبيل السويّ للخلق، والقاعدة المتينة للتربية، والقوانين الحكيمة للاجتماع والاقتصاد والحكم والسياسة والتدبير، وأن يتزلّ عليهم الكتاب الجامع المعصوم الذي يجمع كل هذه السمات وفيه بكل هذه الغايات ؟

بلى، وهكذا كان، ووفت الحكمة المشرّعة الهادية للخلق بما يريدون، وأنزلت ﴿ الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ: أَنْ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ^(١) 》.

إعجاز القرآن:

هذا هو السر الأكبر في إعجاز القرآن.

فهو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه في كل جهة من جهاته. وهو الذي لن تبلغه القدرة المحدودة في أي أفق من آفاقه. أما وجهة البلاغة فهي بعض وجوه الإعجاز فيه، وهي آخرها جميعاً، إذا ابتدأنا بالتعداد من أرفعها مكاناً.

والإعجاز -في واضح معناه- ظهور القدرة العليا في أثرٍ من آثارها، حتى يستبين جلياً للقدرة المحدودة أن الإتيان بمثله ليس من المستطاع. والإعجاز هي الظاهرة التي تختص بها قدرة الله (تعالى) في كل ما تصنع،

وفي كل ما توجد، فلا تصنع إلا معجزة، ولا توجد إلا آية ..

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ^(١) ﴾.

﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ^(٢) ﴾.

من هذا التراب الواطئ الحقيق الذي نستهيته ونطؤه بالأقدام، ونضرب بضعته الأمثال.

من هذا التراب أنشأت القدرة مخلوقاً فكبر الكون وسبحت الأشياء، وسجد الملائكة كلهم أجمعون.

ومن هذه الحروف الميسورة لنا أن نركب منها ما نريد، وندلّ بها على ما نريد، ونتفنّن في تركيبها، وفي الدلالة بها كما نريد.

من هذه الحروف التي نطق بها دون كلفة، ونتفاهم بها دون عسر، وتنافس في الإفصاح بها دون عناء.. من هذه الحروف يوحى الله كلاماً، وينزل كتاباً، فتطأطأ له الهام، وتخضع له الأعناق، وتذهل له الأبواب.

﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ^(٣) ﴾.

١- يوسف: ١٠٥.

٢- الرعد: ٣٨.

٣- الإسراء: ٨٨.

نحن وذكرى ليلة القدر

هذه هي ذكرى ليلة القدر -أيها الاخوة- وهذه هي ذكرى القرآن،
فما موقفنا نحن المسلمين منها ؟
فهل نكتفي بتعداد فضائل الليلة ووجوه إعجاز الكتاب، ثم نفرق وكأننا صنعنا لإيماننا
ولكتابنا ولدعوتنا كل شيء ؟!
إن كتابنا -أيها المسلمون- يدعونا للعمل فهل نحن عاملون ؟ وهل نحن جادّون أم
هازلون ؟

هل غملاً الفراغ العقائدي الذي تقاسيه ناشتتنا وشبابنا ... بل وشيوخنا وكهولنا ؟
وهل نطبّق مناهج الله (سبحانه) على واقعنا المؤسف، فنشفي بها عللاً ونصلح زللاً ؟!
هل نبّلع دعوة الله وهدى كتابه كل ذي سمع ممن حولنا، وكل ذي قلب ؟! أهّا أمانة
الله في رقابنا - أيها الاخوة - فهل نحن جادّون في أدائها أم متكاسلون ؟
﴿ وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ^(١)﴾.

وصدق الله العظيم.

القرآن والترجمة^(١)

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ
سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ^(٢) ۝ ﴾.

من الله نور وكتاب مبين

هذه الصيغة الالافتة، وبهذا التوصيف المغربي، يقدم الله كتابه إلى الناس
في هاتين الآيتين الكريمتين.

نورٌ يهدي من ظلام، وإبانةٌ تنقذ من حيرة، وهدايةٌ تبلغ بالمرء سبيل
السلامة ونهج الاستقامة.

من الله بارئ النور والظلام، وربّ الحرب والسلام... من الله -
سبحانه - مصدر هذا النور الهادي، ومنبع هذا الرواء الهائئ...

«من الله»... وهذا هو الضمان الأول لبلوغ القصد، وأي مدى
وضع الله - جل وعلا - الخطة لتنبئه فلم يُدرَك ولم يُستطع؟

«يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ»... وهذا هو الضمان الثاني للغاية.

١ - كتبت مقدمة لكتاب (القرآن والترجمة) للأستاذ عبد الرحيم محمد علي.

٢ - المائدة: ١٥-١٦.

ولو أنه أتى بضمير الفاعل في هذه الجملة لوفى كذلك بالمقصود، ولكنه يصرّح باسم الله تسجيلاً للضمان، وتطميناً للقلوب... فالضامن هو الله، والهادي هو الله أيضاً، ومن أحق من الله بأن يفي بما ضمن؟، ومن أملك منه بأن يُوصل إذا هدى؟!!

وهداية الله هذه التي يتكفل بها لخلقه لامدلة بها على المهتدي ولا مهانة، ولا جبر في معناها ولا اضطرار.

إنها ليست كدلالة الأعمى الذي لا يبصر، ولا كقيادة البهيمة التي لا تعقل، ولكنها هداية توجيه وتشريف، سبيلها الاختيار، ومنطقها التعقل والموازنة، وهدفها السلامة والكرامة.

”يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ“ ... هؤلاء هم الذين حقت لهم الهداية، الذين عرفوا ربهم، وتبينوا مناهج رضاه.. عرفوا ذلك بملاء شعورهم، وملاء عقولهم، ثم ساروا إلى تلك الغاية لا يألون جهداً، ولا يجيدون عن قصد.

سبل السلام:

”سبل السلام“ ... والسلام الذي يستهدفه الله في كتابه، ويهدي إليه من اتبع رضوانه هو هذا السلام المديد الشامل الذي يبدأ -أول ما يبدأ- بنفس المرء، فيشمل كل آفاقها وكل اتجاهاتها، ثم يرتقي صعوداً حتى يعم المجموعة الكونية التي تمدّ الإنسان بالحياة، وترفده بكل شؤونها.

هذا السلام المستوعب، المتراصف في مناهجه، المتداخل في حلقاته، الذي يتوجّه إلى عقل الإنسان -قبل أية ناحية منه- فيعمره بالعقيدة الصحيحة، ويثبته بالبرهنة الناصعة، ويملؤه بالسلام، فلا تردّد ولا حيرة، ولا غموض ولا اضطراب.

ثم إلى الضمير.. إلى هذه القوة الغريزية المسيطرة على أفعال المرء وسلوكه، والحاكمة على أخلاقه وصفاته...

ويمتدّ إلى غرائز النفس وقواها، وإلى اتجاهاتها ومنازعها، وإلى مبادئ الإرادة ومبادئ الخلق.

يمتد إلى هذه الأطراف كلها فيوفي حق كل ذي حق منها، ويصدّ عدوان كلّ ذي عدوان، ويرفع ألوية السلام، ويشيع روح الطمأنينة، فلا أثر ولا بغى.

وإذا أقام السلام في نفس الفرد على هذه الأسس وبهذا الشمول، فقد أقام السلام في المنزل، والسلام في الأسرة، والسلام بين الأفراد، ثم السلام في المجتمع المسلم، وفي المجتمع البشري، وأخيراً في المجتمع الكوني، وأي منحي من هذه المناحي لا يكون مجالاً للذبذبة والاضطراب إذا تدخلت في أمره أهواء الإنسان، وتحكّمت فيه مشتتهاته؟.. وأي منحي من هذه المناحي لا يفتقر في إصلاحه إلى تأسيس دعامة للسلام؟

وهذا السلام يفتقر إليه المجتمع البشري في شتى نواحيه، ويضطّر إليه في جميع اتجاهاته، يفتقر إليه أبداً مادام للشك منفذ يهدّد اليقين، وللذبذبة مدخل يزلزل السكينة، وللخوف مسربٌ يقلق الأمن، وللهوى غشاوة تلبس الحق.

وهذا السلام لا يملك وضع مناهجه وتمهيد سبله إلا الله... لا يملكها إلا الله بارئ الإنسان، ومنشئ غرائزه، ومدبر قواه، وعالم سرّه وعلايته... الله وحده يملك أن يضع مناهج هذا السلام، وهو وحده يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام.

يخرجهم من الظلمات إلى النور:

” وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ“. وهذان ضمانان آخران يحتويهما هذا القول الكريم، وهما نتيجتان طبيعتان لصفة الكتاب التي قدّمتها في أولى الآيتين.

” قد جاءكم من الله نور “ ... والنور يخرج متبعيه من الظلمة.. ونور الله هذا ليس محدود الأثر كالضوء، فلا يكشف إلا ظلمة الغسق، بل ينير الظلمات كلها.. ظلمات العقيدة الباطلة، وظلمات الهوى المضلّ، وظلمات العمل السيئ والخلق الردي، وظلمات الأثرة الخائنة والجور الظالم، وكل ظلمة تغشى العقل، وترين على القلب، وتعكّر صفو الحياة، وتوحش سبيل السلام.

وإذا كان القرآن نوراً يهدي من ظلمة، مُبيناً ينقذ من حيرة، فهو لا محالة مستقيم المسالك، مأمون العثار.

بهذه الصيغة المغربية وبهذا التوصيف اللافت يقَدِّمُ الله للناس كتابه الكريم في هاتين الآيتين.

ولم لا يكون كذلك ؟

أليس هو البرهان الخالد للشرعية الخالدة؟!

أليس هو النصّ الكامل للنظام الكامل؟!

ثم، أليس هو البقيّة الباقية من معاجز الأنبياء، والحجة القائمة من كتب السماء؟!

المعجزة الخالدة:

بلى، فقد شاءت الحكمة أن تقرن أتمّ شريعة بأتمّ معجزة، أتمّها في الوجه، وأجداها في الهداية، وأشملها في العموم، وأدومها في البقاء، وإذا كان الإسلام دين الله لا يقبل من أحدٍ ديناً سواه، فلا بد وأن تكون حجته بهذا الإشراف، وبهذه الهداية، وبهذا الشمول والخلود. لابدّ وأن تكون كذلك، وإلا لكانت حجة براء لا تفي بالحاجة، ولا تتفق والحكمة.

وإعجاز القرآن ليس في بلاغته فقط، ولو انحصر إعجازه بالبلاغة لما نهضت به حجة على غير أهل اللسان، إلا أن ينتقل العرب معه إلى كل قطر وإلى كل بيئة، يقرّون لهذا الكتاب بالإعجاز ويشهدون له بالتفوّق. والقرآن كتاب معنى وهداية قبل أن يكون كتاب بلاغة وبيان، ولو أننا حصرنا الإعجاز في بلاغته وحدها لكانا قد خصّصنا إعجاز القرآن في أدنى نواحيه، وصرفناه عن أعلاها.

والقرآن كتاب يحوي نظام الله الذي وضعه لتدبير حياة هذا الكائن، وشرعية الله التي جعلها لتعيين وتنظيم علاقته، والظاهرة الأولى لأنظمة الله في

جميع مصنوعاته، أنها تُعجز المجتمع البشري عن مجاراتها مهما أوتي من حول، ومهما تقدّمت به المعرفة.

إعجاز القرآن ليس في بلاغته فقط، ولكن البلاغة هي المدخل العام للقلوب التي كانت تحيط بدعوة القرآن حينذاك.

بلى، كانت بلاغة النص شيئاً تشاقه هذه القلوب، فكان من الحكمة أن تدخل عليها دعوة الإسلام من هذا الباب.

أقول: إعجاز القرآن ليس في بلاغته فحسب، ولكنه معجز في جوهر دعوته، ومعجز في طرائق عرضها، ومعجز في إقامة البرهنة عليها، ومعجز في وجوه الحكمة منها، ومعجز في أشياء كثيرة لا يحيط بها إحصاء، وإذا فات غير العربي نوع واحد منها فلن تفوته الأنواع الأخرى، أما تفاصيل هذا الجمل فلا يتسع له نطاق كلمة وإن أطنب فيها صاحبها.

الآراء في ترجمة القرآن:

وهذا الشموخ في بلاغة القرآن وهذه العظمة في أساليبه، هما السبب في تعارض الآراء حول ترجمته.

إذا كانت دعوة الإسلام شاملة لجميع الناس، وإذا كان القرآن هو لسان هذه الدعوة الناطق، وبرهانها المنير، ونظامها الجامع، فكيف لا تسوغ ترجمته لمن لا يفقه لغته من الناس؟ بل وكيف لا تجب؟

وإذا كان هذا الكتاب الكريم وراء الحدود الممكنة للبلاغة، وفوق الأساليب المقدورة في البيان، فكيف تملك أن تمثله ترجمة؟، وكيف يستطيع أن يحذّه مترجم؟

تعارضت الأقوال في ذلك ولكل وجهة هو موليها، ولا يهمني هنا أن أستعرض الآراء وأناقش الحجج، لا يهمني ذلك ما دامت هداية القرآن يمكن نقلها بالتفسير.

وإذا كانت الترجمة موضعاً للخلاف فإن التفسير غير العربي سائغ عند الجميع، والمفسر يحتفظ بنص الكتاب كاملاً من غير تصرف، ثم يدون ما يحيط به ذهنه من صنوف الهداية، وما يبلغه تتبّعه من ضروب التفسير، ووجوب الشرح.

وطبيعي أن المترجمين لا ينتظرون فصل هذه الخصومة بين الفقهاء . فقد عكفوا على الترجمة غير آبهين، وطبيعي كذلك أن تتنوع التراجم، وأن يتنوع المترجمون في النفسيات، وأن تتنوع الغايات التي يقصدونها من وراء هذا الجهد.

طبيعي أن يتصدّى لترجمة القرآن رجال مسلمون مختلفون في الإحاطة، ومختلفون كذلك في الفهم والآراء، فيهتمّ فريق بشؤون اللفظ، ويفوته الكثير أو الأكثر من بدائع المعاني، ويتجّه فريق إلى ناحية المعنى، فيهمل الخصائص المهمة التي توحى بها الألفاظ، والظلال الشفيفة التي ترسمها التراكيب والأساليب...

.. وأن يتصدى لترجمته رجال غير مسلمين، فينصف بعضهم دعوة الإسلام فيتحريّ الصحة، ويتوخّى الحقيقة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ويكيد لها آخرون فيدسّون ويحرّفون ويقولون ويتقولّون.

طبيعي أن يحدث كل هذا ما دامت للقرآن قدسيته عند هذه المجموعة الكبيرة من البشر، ومادام له هذا الأثر البالغ في ثقافتهم، وفي تلوين حياتهم، بل ومادام القرآن هو الكتاب الذي غير وجه التاريخ، وقلب أنظمة الحياة، وعدّل سلوك البشرية.

نعم؛ كثرت التراجم، وتنوّعت، وكثر المترجمون، وتنوّعوا، وموقف الفقهاء ما يزال هو موقفهم الأول في الاختلاف والحجاج، ونظراتهم لا ترح هي نظراتهم الأولى في الإباحة والمنع. لم يضعوا للأمر الواقع علاجاً، ولم يتخذوا له أهبة، ولئن كانت الترجمة محظورة لأن القاصرة منها محرمة، والكاملة مستحيلة.

أقول: لئن كانت الترجمة محظورة، فهلا نلجأ في نشر كتابنا إلى التفسير، إلى تفسيره بأي لغة نوّد ترجمته إليها ؟

أليس في هذه الطريقة ما يغنيا عن الترجمة؟ ويعدنا عن الإشكال؟!

القرآن والعلم والإيمان^(١)

في القرآن دعوة حثيثة إلى العلم يجدها القارئ المتدبر في آياته..
دعوة حثيثة إلى العلم بجميع فروعها، وبجميع اختصاصاته، وبشتى
اتجاهاته. وهو يفتن في أساليب هذه الدعوة، ويفتن في الحث عليها، ويكثر
من تكرارها، وتكرار الحث عليها حتى لا تكاد تخلو صفحة من صفحاته عن
ذكرها مرة واحدة على أقل التقادير.

وهو - في أكثر المواضع - يعقد ما بين خطوات العلم وعقائد الإسلام
الكبرى، ويتخذ من أقوال العلم الكوني - في شتى ميادينه - على ثبوت هذه
الحقائق أدلة قوية لا تقبل التشكيك.

فما معنى ذلك ؟ وما مدلوله ؟

أليس معنى ذلك أن الإسلام والقرآن يوقنان بأن العلم مؤمن لا ريب في
إيمانه، وداعية إلى الإيمان لا ريب في دعوته ؟: العلم الكوني بجميع شعبه
وجميع فروعها، لا فرق بين فرع وفرع، ولا بين اتجاه واتجاه.
بلى، هذا هو مدلوله الصريح لا خفاء فيه ولا لبس.

١- كتبت مقدمة لكتاب (القرآن والأحوال المناخية) للأستاذ محسن عبد الصاحب المظفر.

هل العلم ملحد ؟

وشاعت في الغرب وبين مقلّدة الغرب -من الشرقيين- قولة أخرى تخالف ذلك.

ومن الحقّ أن نقف عند هذه الشائعة؛ لنعرف مبلغها من الصواب.
.. قولة ترمي إلى أن العلم ملحد ولا ريب في إلحاده، وقد فشلت هذه الشائعة -على ما يبدو- منذ القرن التاسع عشر، وعند ظهور الفلسفة الوضعية التي أنكرت أن يكون للمعرفة الحقيقية سبب صحيح غير الحس وغير التجربة، وأنكرت -تبعاً لذلك- وجود أي شيء غير المادة، فكل ما وراء المادة في رأي هذه الفلسفة وهم وخداع.

وكان العلم الكوني قد اختطّ لنفسه نظير هذه الخطّة.. خطّة أن لا يؤمن -في مجالاته الكونية- إلا بما يُثبت الحسّ، وتشهد به التجربة.
اختطّ لنفسه هذه الخطّة لا لينكر وجود ما وراء الحس وما وراء المادة -كما صنّعت الفلسفة الوضعية-، بل لأن الأمانة العلمية تفرض عليه أن لا يؤمن بنتيجة ولا نظرية حتى تتخذ لديه صبغة اليقين، والسبيل الوحيد الذي لا ريب فيه ولا ترددّ بعده -في المجالات المادّية: في مجالات العلم الأصيلة- إنما هو الحسّ، وإنما هي التجربة.

وسار العلم على خطته هذه، شديد الخطي مأمون العثار.
ولم يبحث العلم فيما وراء المادة في يوم من الأيام، لأنه ليس من مجالاته، ولم يبحث فيه لأنه لا ينال بوسائله، ولا يدرك بمراصده ولا بمختبراته، والذي جحد ما وراء المادة هي الفلسفة الوضعية، والذين أصرّوا

على هذا الجحود وغلّوا فيه هم الفلاسفة الوضعيون، وبانتشار المذهب الوضعي انتشرت القولة الآنف ذكرها.

ومكّن لهذا القول، ومهّد لانتشاره حقد انطوى عليه الضمير الغربي على الكنيسة وعلى أعمال رجالها، ونقد تألّب عليه رجال العلم ورجال الفلسفة لمعارف الكنيسة وتعاليمها، فكانت نزعة الإلحاد، وكان شيوعها وانتشارها.

وعلى أي حال فلم يُلحد العلم في يوم من الأيام، ولكن الفلسفة الوضعية هي الملحدة.

.. لم يبحث العلم فيما وراء المادة - كما قلت فيما تقدم - لأن ما وراء المادة ليس من مجالاته، ولم يبحث فيه لأنه لا ينال بوسائله، ولا يُدرك بمراصده ولا بمختبراته، ولكن العلم لم يُلحد كذلك في يوم من الأيام، ولن يأتي اليوم الذي يلحد فيه أبداً.

ذلك أن العلم يملك -وراء أدواته ووسائله- فطرة سليمة، ويملك عقلاً جباراً..

وفطرته السليمة هي التي أوجبت عليه أن لا يؤمن حتى يستيقن.. وبفطرته السليمة أدرك أن التجربة الحسّية في شؤون المادة -وهي وحدها- سبيل اليقين. ولولا فطرته السليمة لم يهتد إلى إثبات ذلك، لأن الحسّ والتجربة لا يشتان ذاتهما.

وبالعقل الجبار الذي يملكه علم أنّ كل حادث لابدّ لوجوده من سبب، فلا شيء يحدث من لا شيء.. وبهاتين الوسيلتين -طريق التجربة وقانون

السببية- أحرز ما أحرز من فوز وأصاب ما أصاب من فتوح.
وبفطرته السليمة وعقله الجبار أدرك أن وراء كل موجود من أشياء هذا
الكون موجدًا، وأن وراء كل حركة فيه محرّكًا، وأن وراء كل حكمة من
الحِكم التي تشهد بها أنظمتها مدبّرًا.

وبفطرته وعقله أدرك أن لهذه الفطرة، ولهذا العقل، وهذا الذكاء،
والنزعة القوية للاستكمال، وقوة الجلد ودقة الملاحظة، وخلة المصابرة
والثابرة.. أن لهذا الرصيد النفسي الذي يملكه، ويعتزّ به، ويفتح به الكنوز،
ويذلّل به الصعاب، ويكشف به النقاب.. أدرك أن لهذا الرصيد النفسي واهبًا
منعمًا، يجب شكر نعمته.

وأنه حيثما اتّجه من أنحاء هذا الملكوت، وأينما نظر من هذه الآفاق،
وأياً اكتشف أو استنتج أو علّل من أسرار الوجود وظواهره، فهو إنما يتلو
آيات الموجد العظيم، ويتفهّم شواهد حكمته، ودلائل رحمته.
أدرك العلم كل أولئك فآمن ولم يرتب، ودعا إلى الإيمان ولم يتردد.
نعم، دعا إلى الإيمان كل ذي بصر وبصيرة.

أما أن يعتمد أحد فيفتح بصره ليرى آيات الملكوت، ثم يقفل بصيرته فلا
يعتبر بهذه الآيات، ولا يستمع لنطقها ولا يتدبّر دلالتها..
أما أن يرى الأثر ثم يقول: ليس لهذا الأثر عين..
أما هذا فلا حيلة للعلم ولا للعقل معه، وليس من المستحيل بل ولا من
الغريب أن يكون بعض الناس عالم الحسّ جاهل البصيرة.

ولكن موضع الغرابة أن يُلحد مثل هذا، فيقال: قد ألحد العلم !!

أزلية المادّة:

وفكرة الإلحاد إنما يقوم بها فرض واحد:

فرض أن تكون المادّة وقوانينها أزلية لا أوّل لوجودها، وأنها -من أجل أزليتها- مستغنية عن سبب موجد، ولنغضٍ -ها هنا- عما يقوله العقل في هذا السبيل.

هذا الفرض وحده هو الذي يقوم عليه بناء الإلحاد، وقد تعلّق به الملحدون، وتفنّنوا في تصويره.. فماذا قال لهم العلم في ذلك ؟ أثبت لهم أن قوانين (الديناميكا الحرارية تدلّ على أن مكوّنات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً، وأنها سائرة حتماً إلى يومٍ تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة، ولا مناص من حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقات عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق. بمضيّ الوقت ^(١) ..).

وإذن، فالمادّة ليست أزلية يقيناً، لأنها لو كانت أزلية لكانت الحرارة قد انخفضت، والطاقات قد انعدمت، والحياة قد استحالت منذ أمد بعيد. بمقتضى هذه القوانين.

ثمّ ماذا ؟

.. ثم اضطروا لإتمام هذا الفرض حتّى يقوم بناء هذا الكون، وحتى

يستقيم هيكل هذه الحياة..
 .. اضطروا إلى القول بالمصادفة، وإلى القول بالمصادفة أكثر من مرة..
 فماذا قال لهم العلم ؟
 أثبت لهم -بلغة الأرقام- أن بناء جزيء بروتيني واحد بطريق المصادفة
 -هذا الذي يشيرون إليه- من المحال.

فماذا وراء ذلك كله ؟..
 هذا العالم ليس أزلياً، لأن قوانين الديناميكا الحرارية تدلّ على
 حدوثه.. ولا مساع للمصادفة في حدوثه ولا في بنائه، فلغة الأرقام تشهد
 بأنه من المحال، ولا شئ يحدث من لا شئ . فمنطق الفطرة، ومنطق العقل،
 ومنطق العلم يثبت ذلك. وما من شئ في هذا الكون إلا وهو يشهد بحكمة،
 ويشهد بعلم، ويشهد بإحاطة قدرة وشمول رحمة .. وبكل هذا يعترف
 العلماء المستنيرون البصائر.

المناخ نبع من آيات التكوين:

والمناخ ملتقى لنتائج عديدة من مقررات علوم شتى.. نظر كل منها
 نظراته، وقرر نتيجته..

والستقت النتائج وتفاعلت على صعيد الأرض وفي طبقاتها، وفي الجو
 الذي يحيط بها، وفي الماء الذي يختزن في أعماقها، أو يجري على وجهها، أو
 ينزل من السماء عليها، فكان المناخ وكانت لوازمه وآثاره.

وكان التقاء هذه النتائج وتفاعلها نبأً جديداً من آيات الكون الدالة على الموجد القادر الحكيم، يتلوها العلم فيما يتلو من آيات، ويتفهمها فيما يتفهم من شواهد.

وقد ذكر القرآن أن هذا النوع من الآيات الكونية وحث على التدبر فيه، والاعتبار به، واستجلاء مواضع الحكمة منه، وتبين آثاره القدرة في صنعه.

﴿ سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ^(١) ۝ ﴾

نحن وذكرى الرسول (ص)

كلمة عاتبة:

أخذت اليراع بيدي لأملّي عليه من أحاديث الذكرى كما عودته
وكما عودتي، فانتفض من محاولتي واضطرب وقال: أمحابة في ذكرى
الرسول، ومجاملة مع الحق؟

فأسكتني لأنني علمت أن الحق ما يقول، وأقسم عليّ أن أرسلها كلمةً
عاتبةً موجّهة، تتضمن اعترافاً بالتقصير في الذكرى، وفي حقّ صاحبها
العظيم.

سنقول: إنها ذكرى النور، وسيردّ بعضنا قول أحمد شوقي:

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء

والحق هو ذلك، ولكن ماجدوانا -نحن- إذا كنا نُطبق أعيننا عن

النور لنسير في الظلام؟!!

وسنقول: إنها ذكرى الهدى الذي عمّ، والرشد الذي انتشر وشمل

الأقطار.

وإن الحق هو ذلك، ولكن ما انتفاعنا -نحن- إذا كنّا نوقر أسماعنا،

وننقل أفئدتنا لنعيش في تيه؟!!

وسنقول: إنها ذكرى الحق الذي وجّه الحياة، وقاد الركب، وأنقذهما

وأبعدهما من الأخطار، ووضع عنهما الآصار والأوزار.

وإنه الحق الذي لا ريب فيه، ولكن ما فائدتنا -نحن- إذا لم تُسلس
أزمتنا للقائد، ولم نساير الركب، ولم نتبع الرائد، ولم نكثرث للنذير، فانحرفنا
مع المنحرفين، أو قلنا كما قال الأولون: ﴿ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾^(١)؟؟!
أليست هذه سيرتنا -أيها الأعزاء-، لنقلها صريحة لانخداع فيها أنفسنا،
فإن الحق لا يخادع ولا يجامل. فما بالنا نجد الذكرى صورة، ولا نجددها
معنى؟؟!

ما بالنا نجد الذكرى وقد أخلقنا أثرها في قلوبنا، وعفينا على رسومها
في سلوكنا؟؟!

لنحاسب أنفسنا:

لنحاسب أنفسنا حساب الغريم، إذا كنا جادّين في القول، لتبين
الأخطاء، فإن تبين الأخطاء أول عمليات التصحيح.
ليحاسب كلّ فرد منا نفسه حساب الغريم، لتبين مدى التناقض بين ما
نعمل وما ندّعي، وما نسلك وما نزعّم، والمناقضة سبيل لا يرضاه عاقل
لنفسه، وهو يرى أنه من العقلاء.

ليحاسب كل فرد منا نفسه حساب الغريم ليصحح أخطائه، ويقوم
سيرته، ثم لنعتزّ بعد ذلك بأننا من أتباع محمد (ص)، ومن مجددي ذكراه،

ولنقول بحق وصدق متطابقين: إنها ذكرى الهدى الذي ائلق، والنور الذي انبثق، والمعين المبارك الذي طهر القلب، والروح المقدس الذي زكى النفوس، والبرهان المنير الذي جلى العقول، والرشد الذي خفف الآصار والأوزار. ولنفهم على هذه الطريقة العملية الواقعية، وعلى هذا التفسير العملي الرشيد قوله (تعالى):

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ^(١) 》.

وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ^(٢) 》.

لنرجع إلى قائمة أعمالنا فنعرضها واحداً واحداً على الميزان الذي جاء به محمد (ص)، فنشجب منها ما كان خفيفاً في ميزان الحق، ونثبت ما كان تام الوزن ثقيله، ألم يقل سبحانه: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ^(٣) 》.

١- آل عمران: ١٦٤.

٢- الأعراف: ١٥٧.

٣- الحديد: ٢٥.

فاعلية العقيدة:

وأول القائمة التي يجب أن نضعها في الميزان هي العقيدة..
 إن محمداً (ص)، وكتاب محمد، وميزان محمد -أيها الأعزاء- يريد أن
 تكون عقيدة المسلم حيّة قوية عاملة نابضة بالحياة، تدفعه إلى الخير دفعاً،
 وتصدّه عن الشر والسوء صدّاً..

إنه يريد من العقيدة أن تكون قوية فعّالة، تحاكم الإنسان في أعماله
 وسلوكه ومعاملاته، فما وافقها صحّحته، وما عارضها أبطلته وحكمت عليه
 بالعدم، وعلى إرادة المسلم أن تقوم بالتنفيذ، فهل لعقائدنا هذه الحياة وهذه
 الفاعليّة؟ أم أن عقائدنا ضعيفة واهنة قد أصيبت بالشلل، وعطّلت عن
 العمل، قد أصيبت بشلل النصف، أو بالشلل الكامل؟

لنقلها صريحة لا تخادع فيها أنفسنا، فإن الحق لا يجامل ولا يخادع.
 وأوقن -حق اليقين- أن الجواب لا يكون بالإيجاب.
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ،
 وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (١)﴾.

اتباعنا لمناهج محمد (ص):

وثاني الأمور التي يجب أن نضعها في الميزان هو حديث المناهج.
 إن محمداً (ص) -أيها الأعزاء- بعث بالدين الجامع الذي لم يدع

مشكلة ولا معضلة إلا وقد وضع لها حداً فاصلاً، وحلاً عادلاً، ولم يترك البشرية بحاجة إلى استجداء مناهج، واستسلاف نظم، ولم يدعها تتخبط في متاهة عمياء لا مناد فيها ولا دليل.

وكتاب محمد (ص) يقول: ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ^(١) 〉 .
ويقول في آية ثانية: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ^(٢) 〉 .
ويقول في نص ثالث: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ، وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ^(٣) 〉 .

وقد آمنا بمحمد (ص) وبكتاب محمد، فهل سرنا مع هذه الحقيقة إلى نهاية الشوط، أم وقفنا في منتصف الطريق، نستجدي المبادئ، ونتسول الأفكار بميئة أو يسارية، ورأسمالية أو اشتراكية؟

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ؟ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ. وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ^(٤) 〉 .

أقول هذا ولا أخصّ فئة معينة هنا أو هناك، ولكنه استفهام عن واقع، وتحديد لمسؤولية.

١- الأنعام: ٣٨.

٢- يوسف: ١١١.

٣- النحل: ٨٩.

٤- البقرة: ٨٥.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وثالثة الأثافي: حديث الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إن محمداً (ص) - أيها الأعراء - بُعث داعياً إلى الحق، آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً، وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً^(١)﴾.

وقد تلونا في آية آنفة الذكر في هذا الحديث قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ^(٢)﴾.

وقد جعل هذا المبدأ لازماً على أمته: المجتمع منها والأفراد، فريضة محتومة بل وشعاراً ثابتاً، وحذرها أشد التحذير من تركه أو التسامح فيه، وجعله أحد الرباطات التي تشد المجتمع على الحق، وتنشئ أفرادها على الهدى:

﴿وَلَسْتَ كُنْ مِنْكُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ^(٣)﴾.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ

١- الأحزاب: ٤٦.

٢- الأعراف: ١٥٧.

٣- آل عمران: ١٠٤.

وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ^(١) ﴿

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ^(٢)﴾.

ونصوص الإسلام في بيان هذا المبدأ والتأكيد عليه أكثر من أن تحصر في موقف واحد. وقد علم المسلمون ذلك، وأقرّوا به، وأثبتوه، ولم يختلفوا فيه على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم.

فهل وقفنا من هذا الواجب وقفة المسلم الصحيح القوي، الذي لا تمنعه عن قولة الحق غضبة غاضب، أو لومة لائم، أو اتّخذنا موقف الضعيف المداهن الذي يتطلّب الأعذار، ويستسلف الحجج؟!؟

إنني أوقن حق اليقين أن الجواب سوف لا يكون بالإيجاب، وإلاّ فلماذا انهار المجتمع المسلم، وسرت في أوصاله وأعضائه الموبقات والمنكرات سريان الجرائم في الجسم السليم، ولا وقاية ولا عناية؟!؟

القيام بالقسط:

والصدق في المعاملة والقيام بالقسط...

إن الله (سبحانه) ذكر لنا في كتابه: أن القيام بالقسط صفة من صفاته العظمى التي تمدّح بها لبرّيته، حيث قال (عز من قائل): ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ

١- آل عمران: ١١٠.

٢- التوبة: ٧١.

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ^(١) ﴿١﴾.

وأبان لنا أن القيام بالقسط هو الغاية التي من أجلها أرسل رسله، وأنزل كتبه، ووضع شرائعه، فقد تلونا في آية سابقة في هذا الحديث:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.

وقد جعل ذلك فريضة محتومة على الأمة وعلى الأفراد، وأكد عليه أبلغ التأكيد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا، وَإِنْ تُلُوتُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ^(١)﴾.

فعلى المؤمن أن يكون قائماً بالقسط، صادقاً في المعاملة، موفياً بالعهد والعقد، لا يخون، ولا يغش، ولا يخادع، ولا يظلم، ولا يغتاب، ولا يكون ذا وجهين وذا لسانين. وإلا فقد خان الله ونكث عهده وخان أمانته.

فما هو موقفنا من هذا التشريع الإلهي الحمدي الحكيم؟ أوقن حق اليقين أن الجواب سوف لا يكون بالإيجاب.

١- آل عمران: ١٨.

٢- النساء: ١٣٥.

الأخوة المؤمنة:

والرباط الإسلامي المقدس ...

إن دين محمد (ص) -أيها الأحباء- قد ارتقى بهذا الرباط إلى درجة الأخوة، وأثبتته على قاعدة الإيمان بالله وبدينه، ومدّه من معين الحبّ في الله، وشدّه شداً وثيقاً لا يحلّ ولا يُنكث، وجعل الوفاء به من تبّعات الإيمان ومن لوازمه، فقال:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ^(١) ﴾.

نعم، ولو علم الله أن كلمة أخرى أدلّ على معنى الارتباط، ومعنى الاشتراك، ومعنى التساوي من كلمة "إخوة" لجاء بها.

هذا هو الرباط الإسلامي المقدس ما بيننا، فما هو مدى استجابتنا، وانصياعنا مع هذا التكريم العظيم؟

هل استجبنا لهذه الأخوة المشرفة، وسرنا معها إلى أعماقها وأبعادها؟ وهل أدبنا لها واجباتها وحقوقها؟ أو هل أهّلنا أنفسنا لهذه الكرامة على أضعف التقادير؟ أم أننا ظلمنا التشريع، وظلمنا الأخوة وظلمنا أنفسنا في موقفنا النبائي الأسيف؟!

إن المرء منا يتجرّد من كل شيء قبل أن يجرّد أخاه لرغبة تقوده، أو لكلمة يتأولّها أو لوهم يتوهمه، ثم يسير لا يلوي، وإن حطّم دينه، وليعلمنّ نبأه بعد حين.

إنه موقف مؤسف لا يؤدي إلى خير.

الخلق الإسلامي:

والخلق الإسلامي الرفيع...

إن محمداً (ص) -أيها الأحباء- كان هو المثال المحسّد للخلق العظيم، وخلق محمد كان جزءاً مهماً للسبب في نجاح دعوته، وعلو كلمته، وانتشار دينه، وقد بعث (ص) ليتّم مكارم الأخلاق كما يقول هو (ص) في حديثه المعروف.

ونصوص الأخلاق الكريمة في الإسلام تزيد على الألوف، وفي القرآن الكريم آيات وافرة العدد تذكر لنا أرتالاً كثيرة من محاسن الأخلاق ومساوئها، تفرض علينا الحسن منها وتمنع القبيح، ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ (١)﴾.

فما قدر انطباعنا على هذه التعاليم، وما قدر ترويضنا أنفسنا وإرادتنا وضمائرنا عليها؟! أم هي الرغبات والشهوات قائمة وسائقة، فما حسنته فهو الحسن عندنا وما رفضته فهو القبيح؟!

لنحاسب أنفسنا حساب الغريم، فنصحح أخطاءنا ونقوم سيرتنا وأخلاقنا، ثم لنعتزّ بعد ذلك بأننا من أتباع محمد العظيم (ص)، ومن مجددي ذكره، ولنقول:

إنما ذكرى الهدى الذي أضاء النفوس، والمعين المبارك الذي طهر
القلوب، والبرهان الذي جلى العقول.

ولتكون ذكرى محمد (ص) وذكرى الطيبين من آله (ع) ملاكاً
لأفراحنا يوم يفرحون، ومناطاً لأحزاننا يوم يحزنون، ولنكون متطابقين السرّ
والعلانية، والدّعوى والبيّنة، والقول والعمل.

إنما مجال عمل -أيها الأحبة- فلا يحسن منا أن نكتفي بالقول،
وذكريات العظام عظام الذكريات، ولا تجد الذكرى عظمتها إلاّ حينما
نستعملها في هذا السبيل، فلنجد في العمل، ولنحقّق الغاية، والله معنا.

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ^(١) ﴾.

في ذكرى الرسول العظيم (ص)

من أحقّ بالتخليد من ذكراك؟

إذا كانت الذكرى لعظماء الرجال إشادة بما رسموا للأمم من مجد،
وتخليداً لما أسسوا وبنوا لهم من سؤدد، فمن أحقّ بالتخليد من ذكراك يا أبا
الأجداد، ويا مؤسس العظمت، ويا ملقّي العبقريات؟

وإذا كانت ذكريات العظماء، تسجيلاً من الأمة لفضلهم ووفاء منها
بحقّهم، فمن أولى من حقك بوجوب الوفاء، ومن أجدر من أياديك بوجوب
التسجيل؟ يا فاتح الخير، ويا قائد البركة، ويا رائد الرّحمة وخازن المغفرة.

وإذا كانت ذمة للحق، وأمانة للتأريخ، على البشرية أن تؤدّيها، وأن
تعتزّ بها، فمن أجدر بهذه الخصائص من ذكراك؟ يا دليل الحق، ويا مصدر
العزّ، ويا باني التأريخ.

وإذا كانت الذكرى تجديداً لميثاق الأمة لقائدها، وتوثيقاً لصلتها
برائدها، وتوكيداً لعهد الذي أخذه عليها أن تتّبع خطوه، وأن تلتزم هداها،
وتقتفي نهجه، فمن أخرى من ميثاقلك بأن يُجدّد، ومن أخرى من أمتك بأن
تشدّ صلتها بك؟ يا مصدر القوة ويا معدن العزة ويا رائد الكرامة.

وإذا كانت للاقتباس من سيرة بناء العظمة، والاقتداء بأعمالهم،

والاستمداد من أرواحهم، وقوة نفوسهم فمن أحق من سيرتك بأن تكون منهجاً للقدوة، وموضعاً للاقتباس؟ ومن أجدر من روحك الكبيرة الكبيرة، ونفسك العظيمة العظيمة، بأن تكون مصدراً للوحي، ومنبعاً للفيض، ومدداً للعطاء؟

ذكرى النور ينبثق بين شعاب مكة وبين هضابها، ثم يتألق ويستعلي، ويتألق ويستعلي، حتى يغمر مشارق الشمس، أو حتى يعم أرجاء الكون، وآفاق السماء والأرض.

من حجر آمنة .. من بيت عبد المطلب بن هاشم .. من غرة ذلك اليتيم العظيم.

من غرة ذلك اليتيم الذي افتخرت السماء أن تكسوه أول كسوة، وأن تقدم له أول تحية، وأن تُهبط لاستقباله أول وفد..

من غرة ذلك اليتيم العظيم الذي حنّ له الحجر، واهتزّ له الحجر، ومادت له قواعد البيت، وانحنت له أركانه.

من غرة ذلك اليتيم العظيم الذي تطلع له الكون، وتطاوالت نحوه الوهاد والهضاب، لترى الوجه الجميل الذي سيغير وجه التاريخ، وسيقلب نظام الدنيا، وسيوسع آفاق الإنسانية.

وامتدت يدا عبدالمطلب بن هاشم إلى نافلته، ورفعته إليه يتبين فيه نور ولده الفقيد الحبيب:

”إن بين عينيه نور عبد الله يا آمنة .. ألا تنظرين؟“ .

لا.. لا! إنه نور النبوة .. إنه طابع السماء على غرة النبي الكريم.

لا.. لا يا آمنة، لاتبكي .. إن هذا الوليد لا يستقبل بالدموع.

وفتح الطفل عينيه في وجه جده ثم ابتسم.

وانحنى الشيخ الوقور وفي عينيه دمة الذكرى، وعلى ثغره ابتسامة الحبّ، وفي قلبه خفقة الأمل، ثم طبع على فم حفيده قبة الأب اللهيف، وقال - وهو يكفكف دمة تغالبه-:

”بوركت في الولادة يا آمنة، وهنت بالمولود، وجُبرت من الكسر، وسعدت في الحياة“.

وخرج ومعه ولده أبو طالب، وعلى ذراعه وليده يطوف به حول البيت، ويلمسه الأركان، ويعرضه على شعاب مكة وهضابها، وكأنه يبشرها بقرب اليوم الموعود. ووجهه قرish تستقبله وتهنيه بالوليد الجديد، وعبدالمطلب باسم واجم يرى ما لا يرون، ويسمع ما لا يسمعون.

لم يكن عبد المطلب غريباً عن إرهاب النبوة، ولا بعيداً عن أسرارها، فقد عرف من أخبارها الشيء الكثير الغريب..

الذكرى القرنية للرسالة والقرآن:

أيها الإخوة الأعزة، والأبناء النجباء..

يتيح لي التوفيق فرصة الحديث إليكم في هذه المناسبة الكريمة التي أخذت الشرف من أطرافه، وجمعت من جميع آفاقه، فهي ذكرى الرسول العظيم (ص) في ليلة ميلاده..

وهي ذكرى الرسالة العظيمة لمرور أربعة عشر قرناً كاملة على ابتداء

نزوله..

فرسالة الرسول (ص)، ونزول القرآن قد ابتداء لثلاثة عشر عاماً قبل الهجرة، فإذا ضمنا ذلك إلى التاريخ الهجري للعام الحاضر كان ذلك أربعة عشر قرناً كاملة.. ومن أجل ذلك فجدير بالمسلمين أن يقيموا الاحتفالات العظيمة في شتى أقطار الأرض بهذه المناسبة الكبرى، وجدير بهم أن يجددوا ميثاقهم لرسولهم (ص) ولرسالتهم ولكتابهم.. وجدير بهم -وهم يعمرون بأدق المراحل- أن يقبسوا من رسولهم ورسالتهم وكتابهم رسوخاً في الإيمان، وثباتاً في القدم، ومضاء في العزيمة، ومدداً من القوة والعزة والنصرة.

ولن يفيدوا ذلك إلا إذا عادوا إلى دينهم، يتعرفون منه ما غفلوا، ويطبقون ما أهملوا.

هذا هو الداء، وهذا هو الدواء -أيها الأحباء- فهل نحن سامعون ؟
والليلة -بعد ذلك كله- ذكرى ميلاد سيد الأمة، وسادس الأئمة،
حفيد الرسول (ص)، وسادس خلفائه، الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد
الصادق (ع) عام ثلاثة وثمانين للهجرة المباركة.

والحديث في كل واحدة من هذه المناسبات متسع الآفاق ممتد
الأطراف، لا يستوفي حدوده لسان قائل، ولا قلم كاتب..

حَسْبُ مُحَمَّد (ص) عَظْمَة:

أيها الأعزة..

حَسْبُ مُحَمَّد (ص) عَظْمَة أن تختاره السماء لحمل أعظم دعوة، وأسمى

رسالة وأقوم شريعة، وأن تُنزل على قلبه أعظم كتاب، وأجلّ وحي.
وحسب محمد (ص) عظمة أن تختاره السماء رسولاً للناس أجمعين،
وإماماً للأنبياء المطهرين ..

حسب محمد أن يختاره الله -جل وعلا- لأعظم رسالة وأكبر دعوة..
بلى، وإن كبر الأمانة يدلّ على كبر الأمين، وعظم الاختيار يدلّ على عظمة
المختار ..

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً، وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ
وَسِرَاجاً مُنِيراً^(١)﴾.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو
عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي
ضَلَالٍ مُبِينٍ^(٢)﴾.

هذه هي وظائف الرسول (ص) ومهماته يوضّحها لنا الكتاب الكريم..
"شاهداً" على الأمة..على البشرية جميعها في حاضرها
ومستقبلها..في أعمالها وسلوكها.. في مبدئها وغايتها.. "شاهداً" مرضي
الشهادة غير مردود ولا مُتهم، على البشرية جمعاء، فهو إذن أفضلها وأسمأها
جمعاء..هكذا وصفته السماء وقلّدتَه هذه المنزلة و ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ
رِسَالَتَهُ^(٣)﴾.

١- الأحزاب: ٤٥-٤٦.

٢- آل عمران: ١٦٤.

٣- الأنعام: ١٢٤.

” ومبشراً ونذيراً “، والبشارة والنذارة سمتان للمرشد الحق، ما دام يحمل رسالة تُقبل في ظلها السعادة، وفي تركها البوار والخسار.

” وداعياً إلى الله بإذنه “، وإذن فدعوته مضمونة الصدق، مأمونة الهدى، لأنما بإذن الله (سبحانه)، والله لا يأذن في غيٍّ، ولا يأمر بضلال.

وهو داع معصوم من الريب فيما يقول وما يعمل، لأن الله لا يأذن له فيما هو محتمل للزيف، ومظنة للتغيير والتبديل.

” وسراجاً منيراً “ يُقتدى بفعله كما يُهتدى بقوله..

” سراجاً “ ينير كل ظلمة، ويبدد كل شك، فهو فوق الأوهام والأحلام، لا ترقى إلى أقواله شبهة، ولا تحوم حول أفعاله ريبة، مطهر بإذن الله من كل أولئك.

وهذه -بذاقها- هي الأبعاد التي أشارت إليها الآية الكريمة الثانية..

” لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة “ دعوة إلى الله -جل شأنه- بتلاوة آيات وتركية نفوس، وإعلاء صفات بترية وقدوة وتلقين مفاهيم، وتطبيق نظم ومناهج بتعليم كتاب وحكمة..

هذه هي وظائف الرسول الأولى، وما بعدها يرجع إليها.

حسب محمد عظمة أن يختاره الله للرسالة الكبرى.. رسالة الحياة الخالدة التي لا سعادة إلا بها، ولا كمال إلا في مناهجها.

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ،

وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ^(١) ﴿١﴾

﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ^(٢)﴾.

وحسب محمد عظمة أن ينزل الله على قلبه كتاب الخلود، الذي تبيد القرون، وتفنى الآباد، ولا تتغير جدته، ولا تقبط روعته، ولا تتضعضع منزلته:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ، ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ^(٣)﴾.

الكتاب الذي أعجز المخلوقين: أولهم وآخرهم - وإن اجتمعوا وتآزروا- أن يأتوا بسورة من مثله:

﴿قُلْ: لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ^(٤)﴾.

الكتاب الذي صدق الأنبياء، وأثبت نبوتهم، وأثبت صدق كتبهم ومعجزاتهم، ولولا القرآن لكانت جميع النبوات والمعجزات حقاً مخفياً، ونسياً منسياً، إذ لا دليل في أيدي الناس يعضدها غير هذا الكتاب العظيم.

١- الفتح: ٢٨.

٢- آل عمران: ٨٥.

٣- الزمر: ٢٣.

٤- الإسراء: ٨٨.

وحسب محمد عظمة أن يختاره الله لقيادة البشر أجمعين.. مَنْ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ
وَمَنْ تَأَخَّرَ.. زعيماً يخضع لأمره كل زعيم، ومُصلحاً يقبس من رُشده كل
مصلح، ومُشرعاً ينهل من عرفانه كل مشرّع، وعقلاً يمدّ بإشراقه كل عقل،
ونفساً تفيد من زكاتها وطهارتها كل نفس، وعبقريّة تستظل تحت جناحها كل
عبقريّة، وعظمة تفنى وتذوب في ساحتها كل عظمة، ورحمة يتفياً ظلالها كل
صغير وكبير.. فهو ملتقى كل كمال، ودليل كل هدى، وباب كل خير: ﴿لَقَدْ
جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ
رَحِيمٌ﴾^(١).

أمّا الإمام أبو عبدالله جعفر بن محمد الصادق (ع)، الذي تشرفّت
بولادته ليلتنا المباركة، وذكرانا السعيدة، فحسبه أن يكون هو الممثل الصادق
لعظمة جدّه (ص)، وأن يختار الله - سبحانه - سادساً لولاية عهده ..

.. أن يكون أحد الأمناء على وديعة محمد (ص)، وأحد المصطفين
لقيادة البشر: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى
الْعَالَمِينَ. ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢).
وصدق الله العظيم.

١- التوبة: ١٢٨.

٢- آل عمران: ٣٣.

ماذا يدركون من عظمة محمد (ص)؟!

الإنسان أعجز من أن يصف محمداً (ص):

طمع كثيرون من كُتّاب السير وأدباء التحليل أن يضعوا صورة جامعة تحيط بجوانب العظمة من شخصيّة الرسول (ص)، أو بأكثر الجوانب منها، وجهدوا أن تكون الصورة صادقة تمام الصدق، مطابقة كمال المطابقة، تخيل لمن قرأ أو استمع أنه يشاهد، وتبدي لمن غاب كأنه حاضر.

وظفّقوا يرسمون الخطوط، ويدققون الملامح، وينتقون الألوان، ويجمعون الشوارد والشواهد، مما يرون ومما يسمعون، ومما يخالون ويتصوّرون، والحقائق بمنأى عن هذا الجمع العامل الكادح، تعجب لهم أن يحاولوا تعريف مالا يعرفون، وتمثيل مالا يدركون.

ماذا يدركون من عظمة محمد (ص) إلّا بمقدار ما تدرك الأبصار من ضوء الشمس المنيرة، وبمقدار ما تقبس الأشياء والأحياء من إشعاعها وعطائها؟ تفيدهم من نورها، وتفيدهم من طاقاتها، وتفيدهم من حرارتها، وتمدّهم بسرّ الحياة، وشرط البقاء، أما سرّ العظمة في الشمس فهو فوق متناول الأيدي والعيون، وفوق مناط الأخيلة والظنون؟!

ماذا يُدرك من عظمة محمد (ص) إلّا قدر ما يشير الناقص إلى مصدر كماله، وحسب ما يتوجّه المضطر المحتاج إلى موضع ضرورته وسداد فاقتة؟

ماذا يدركون من عظمة محمد (ص) إذا كانت حدود هذه العظمة هي حدود الإنسانية العليا، ليس وراءها مرمى، وليس بعدها مرتقى؟
 ماذا يدركون من عظمة محمد (ص) إذا كان محمد هو المثل الصادق الكامل للإسلام. بمنهجه العظيم العظيم، وبغايته الرفيعة الرفيعة، وبعده الشامخ الأعلى؟

ماذا يدركون من عظمة محمد (ص) إذا كان هو المثل الأعلى الذي اختارته السماء لأهل الأرض كافة أن تقتبس من هديه، وأن تستمد من روحه، وأن تستضيء بنوره، وأن تستكمل من إيمانه، وأن تصوغ نفوسها وقلوبها على هداه، وأن تقتدي به في عمله وجهاده؟

ماذا يدركون من عظمة محمد (ص) ما دام محمد يرتفع ويرتفع كلما كشف الزمن جانباً جديداً من جوانب العظمة في دين محمد، وكلما صدّق العلم وصدّقت المشاهدات والملاحظات آية من كتاب محمد (ص) وكلما استبان للعالمين قصور نظم الدنيا كلها أمام نظام محمد؟
 ما أقصر الكلام أن تحيط بمن أوتي جوامع الكلم!!

وما أعجز الفكر أن ينفذ إلى الآفاق السحيقة من عظمة موجه الفكر!!
 وما أعجز الإنسانية أن تحدد جوانب الرفعة من منقذ الإنسانية!!

القرآن يصف محمداً إنساناً:

يقول رب محمد وخالقه، ليدلنا على بعض مكان السرّ في هذه العظمة المترامية الآفاق... يقول ليصف لنا محمداً إنساناً:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

والآية الكريمة تشير إلى مجلى واحد من مجالى عظمة الرسول (ص).. إلى الرحمة العميقة الواسعة الشاملة التي ينطوي عليها ذلك القلب الكبير.. إلى الرحمة الفائضة التي أطلت الإنسانية جمعاء، من ألفها إلى يائها ومن أدناها إلى أعلاها، فأوتهم إلى حصنها ودعتهم إلى أمنها.

إنني لأتلو الآية الكريمة فأكاد ألمس قلباً يتفتت حرصاً ويتضرّم أسىً على البشرية كلها أن يضلّ منها ضالّ، أو ينشز منها ناشز، وأحسّ قلباً من رحمة الله العظمى يطوف بهذا النوع المتباعد الأصناف والأكناف، يعزّ عليه أن يقع فرد من أفرادها في عنت، أو تحلّ به مرزأة.

”من أنفسكم“ وهذا مبدأ الإيحاء بعمق الرحمة وشمولها.

إن الذوق النافذ يدرك من هذه اللفظة ما لا يدرك من سواها، فكلمة ”منكم“ -مثلاً- لو استعملتها الآية لما عدت أنّ الرسول فرد من أبناء الأمة وخيرة من أوساطها، يشعر بشعورها، ويحسّ بآلامها، ويعرف مواضع حاجاتها، وقد استعمل القرآن هذه الكلمة لما أراد إيضاح بعض مهمّات الرسول (ص)، وتحديد بعض أهداف الرسالة، فقال في سورة الجمعة:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ

مُبِينٌ^(١).

أما الكلمة التي اختارها السياق الكريم هنا... أما كلمة "من أنفسكم" في هذا الموقع من الآية الكريمة فإنها تنفذ إلى أعماق مسرب من مسارب النفس، وتلمس أخفى وَتَرٍّ من أوتار القلب، وتتسع إلى أبعد حدٍّ من حدود الإنسانية.

إنها كلمة أضخم من الشرح وأوفى في مدلولها من التعليق.
 "عزيز عليه ما عنتم" عزيز عليه ما ينالكم من جهد، وما تتحملونه من كبد، عظيم على نفسه أن تُثقلكم آصار، وتبهضكم أوزار.
 "حريص عليكم" حريص على أن لا يتردى متردٍّ من الناس، ولا يهلك هالك، ويغوى غاوٍ من الناس أجمعين. مَنْ آمَن منهم بدعوته وَمَنْ صدف عنها.

إن هذا أضخم رصيد تملكه أمة في قلب قائدها الأمين.
 أما المؤمنون به .. المقتفون هديه، المتبعون منهجه فلهم منه الرحمة التي لن تضعف، ولن تنقطع ما دام للصفة الإنسانية مطمح، وما كان لها مرتقى...
 ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

ويصفه رسولاً:

ويقول ليصف محمداً رسولاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً، وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً^(١)﴾.

هذه بعض مهمّات الرسالة التي اختاره لها إله الكون، ووجده لها أهلاً
و ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ^(٢)﴾.

”شاهداً“ يقيم الحجّة، ويقطع المَعذرة، ويزيل اللبس، ويوضح
السبيل.

”ومبشّراً ونذيراً“ فللرشد مناهجه المشرقة، وغاياته الحميدة التي لا بد
للرسالة من التبشير بها والحثّ عليها، وللضلال مسالكه المظلمة، ونهاياته
المهلكة التي لا بدّ من الإنذار بها، والتحذير منها، والله (تعالى) قضاؤه وفصله
في أهل الرشد وأهل الضلالة، وجزاؤه العدل لهؤلاء وهؤلاء، ولا بدّ من بيان
ذلك وإعلانه ليتدبر متدبر، ويتنبه غافل، ويسترشد جاهل.

”وداعياً إلى الله بإذنه“ يصحّح أخطاء الناس في العقيدة، ويحدد لهم
المناهج في العمل، ويوضح لهم المفاهيم للمعرفة، ويعيّن لهم السبيل في
السلوك.

١ _ الأحزاب: ٤٦.

٢ _ الأنعام: ١٢٤.

« وسراجاً منيراً » يستضيئون به من الظلم، ويسترشدون بهديه من الحيرة، ويقتدون بقوله وعمله في كل صغيرة وكبيرة. وأحسب أن دلالة هذه الصفة الأخيرة « وسراجاً منيراً » على عصمة الرسول (ص) أرفع من أن يمتري فيها مسلم يعترف بالكتاب ويدرك معاني كلماته.

هذه بعض آفاق العظمة في شخصية الرسول (ص)، يذكرها لنا القرآن، ليعرفنا أن محمداً (ص) فوق متناول الألسنة والأقلام، وفوق مطمح الأخيلة والظنون ...

وصدق الله العظيم.

البعد التكويني لبعثة الرسول محمد (ص)

مجرى الحكمة الإلهية في المخلوقات:

وهكذا تألف جزيء ضئيل دقيق من جزيئات السديم الذي كان يملأ هذا الفضاء الواسع العظيم، جزيء دقيق يحمل شحنة كهربائية موجبة تألف مع جزيء آخر أو جزيئين أو أكثر يحمل مجموعها شحنة كهربية سالبة. وتعادلت القوة بين الشحنتين، **شدة** الجزيء الموجب على الجزيئات السالبة يجذبها إليه جذباً، وحاولت هذه **الإفلات** من قبضته فلم تقوَ، وكان من نتائج هذا التعادل أن يأخذ كل واحد من الجزيئات السالبة مداره حول الجزيء الموجب يطوف فيه، ولا يحمده **عنه**، ولا يتباطأ في حركته حوله ولا يختلف.

وقام كيان الذرة من هذه المجموعة، **ودأب** كلّ جزيء من جزيئاتها على عمله لا يلوي ولا يقف، ووجهته **الحكمة**، ووجهته اليد القديرة المدبرة يُسهم في بناء الكون، وفي بناء الحياة، **وفي** بناء الإنسان. ويُسهم في تحقيق الغاية الكبرى التي من أجلها بني الكون **وفُطِرَت** الحياة وخلق الإنسان.. وتنوّعت الذرّات، وتعدّدت أنواعها **بحسب** تعدّد الجزيئات التي يشتمل عليه كيانها، وكثّرت العناصر التي يتألف **منها** بناء الكون.

وتألفت ذرة صغيرة لا يدركها الطّرف، بل ولا يدركها المجهر من هذه الذرات التي تحمل تلك الطاقة، وتحتوي ذلك النظام وتلك القوة الكهربائية المتعادلة، تألفت إلى ذرة مثلها أو إلى ذرتين أو أكثر من عنصر واحد، أو من عناصر متعدّدة، وتفاعلت معها في التركيب، واتّحدت وإياها في الخاصّة، وقامت من هذا التركيب خلية حياة، أو خلية جسم حي، أو وحدة أخرى يتقوّم منها كيان موجود.

ودأبت كلّ ذرة دخلت في التركيب توفّي عملها الذي أنيط بها، لاتني ولا تحيد، ووجهتها الفطرة كذلك، ووجهتها الحكمة، ووجهتها اليد القديرة المدبّرة، تُسهم في البناء، وتسهم في الغاية.

تُسهم في بناء الكون والحياة والإنسان، وتسهم في الغاية التي من أجلها خلق كل أولئك.

واجتمعت وحدة إلى وحدة أو أكثر، من نوعها أو من نوع آخر، وتضامّت الأجزاء، وتضامّت الوحدات، وتفاعلت إذا كان الأمر يدعو إلى التفاعل، وتطوّرت إذا كان يستدعي التطوّر، وقام من المجموع كيان كامل مستقلّ لشيء من أشياء هذا الوجود، وساهم في البناء وساهم في الإعداد للغاية، وساهمت كل وحدة من وحداته تلك، ووجهته الفطرة، ووجهت كل جزء منه أن يدأب في عمله وفي وجهته.

وقام الكون، بناميه وجامده، وحيّه وميّته، وسماواته وأرضه، وحركاته ومداراته، وعناصره التي تقوّمه، وقوانينه التي تنظّمه، ووجهته الفطرة، ووجهته الحكمة، ووجهته اليد القديرة المدبّرة، ووجهت كلّ شيء فيه،

وكلّ جزء من أجزائه أن يسهم في البناء، ويسهم في الغاية، وأعدّت الحكمة كلّ ما في الكون لقيام الحياة .. ولقيام الإنسان أعلى نماذج الحياة.

الحكمة في الخلق الإنساني:

وانضمت خلية إلى خلية، خلية حياة إلى خلية حياة، وتلقّحت إحداها بالأخرى، وتطوّرت الخلية الموحّدة الملقّحة، وانشطرت وتكاثرت، وتدرّجت في النشو، وانضمت إليها من أغذيتها وحدات، واستحالت خلايا، وتصنّفت الخلايا وتساندت على بناء الهيكل، وتوزّعت العمل، وتوجّه كل صنف منها إلى إقامة جهاز، أو إقامة عضو، أو إقامة نسيج، وانصرف إلى أداء مهمّة، ووجّهت الفطرة واليد القديرة الحكيمة كلاً منها وجهته، وتعبّده بالمسير إلى غايته.

وقام الوجود الحيّ العاقل السميع البصير الذي أُعِدّ له الكون وسُخّر له الطبيعة، ووجّهته الفطرة، ووجّهته الحكمة أن يعمر الأرض ويحقّق الغاية. واهتدى كلّ شيء بفطرته إلى مبدئه وغايته، وخضع لقانونه، وتعبّد بخضوعه هذا لبارئه، لا يحد ولا يبي.

واهتدى الإنسان بالفطرة كذلك وخضع وتعبّد كسائر أشياء الكون. ولكن الإنسان عاقل مريد، وهذه هي أسمى ناحية فيه، فلا بدّ وأن يهتدي، ويخضع بعقله وإرادته، ولا بدّ وأن يصل إلى الغاية من هذه الناحية.

وللعفل فطرة كما لسائر الأشياء، وفطرته كفيلاً بهدايته لو انفرد إليها، ولكن الصوارف التي تراحم هذه الفطرة بخصوصها تربو على العدّ، ولا بد وأن يُحسب لها حساب.

فلا بدّ من الهداية التي تساند الفطرة، ولا بدّ من الشريعة التي تعين لها طريقها، وتصفوها عن المزاحمات.

الهدى الإلهي والإنسان:

وانضمّ إلى الإنسان إنسان، وأضيفت إلى الأسرة أسرة، وتشعبت عن القبيلة قبيلة، وتألّفت مع الأمة أمة، وارتقت معرفة الإنسان، وامتدّت نظرتة، وتطوّرت حياته الاجتماعية، والسماء تمدّه بالهداة التي تعضد الفطرة، وبالشرائع التي تحدّد له الطريق، وتعرّفه بالمعالم والغاية.

وارتقى الإنسان وتطوّر، وارتقت معه أساليب الهداية، وتطوّرت معه رسالات السماء، تشقّ له الطريق وتؤهّله للغاية. للغاية الكبرى التي من أجلها خلق، ومن أجلها أعدّ الكون، وأعدّت الحياة.

وتناقضته الهدايات والرسالات حتى وقفت به على الأبواب.

نعم، وقفت الإنسانية على الأبواب، فقد أعدّ الفرد، وأعدّ المجتمع، وأعدّ التاريخ.

أعدّ الفرد حتى في أدقّ ذراته، وأبطن غرائزه، وأمكن أشواقه.

وأعدّ المجتمع بالتمهيد للصلة العامة المقدسة، التي تنطمس فيها الحدود وتنسف السدود.

وأعدّ التاريخ بالحروب الطويلة الدامية التي أتعبت الإنسان وسحقت كبرياه وطامنت غروره.

وتطلّع الفرد، وتطلّع المجتمع، وتطلّع التاريخ للنقطة الحاسمة، والشرعية الخاتمة.

وبعث محمد (ص) ليحقق الأمنية لكل أولئك: للفرد، وللمجتمع، والتاريخ.

وبعث محمد (ص) ليحقق الغاية الكبرى التي أرادها الله من إحداث الكون وإيجاد الحياة، وإنشاء الإنسان.

وبعث محمد (ص) ليكون أعظم رسول بأعظم رسالة، وأكبر داعٍ إلى أكبر دعوة.

وبعث محمد (ص) ليصل الأرض بالسماء، وليتوّج إماماً للأنبياء.

وبعث الإنسان الأعلى لتنفيذ الإنسانية ظلاله، وترسم مثاله.

وأُنزل القرآن دستوراً للدولة، وقانوناً للحكم، ونظاماً للاجتماع، ومنهجاً للاقتصاد، وقاعدة للتربية، وسنناً للأخلاق، وشرعية للعمل، وحداً للحقوق، ولساناً للهداية، وبرهاناً للدعوة.

الإنسان وهدى محمد (ص):

ونظرت الفطرة فلم تشكّ، وفكر العقل فلم يمتز، وشهد البرهان فلم يرتب، وأبصر العلم فلم يتردد، وآمنت الفطرة، وآمن العقل، وآمن البرهان، وآمن العلم.

وروقت الأهواء فلم تُبصر، وتبدلت الغباوات فلم تهتد.
ورفع محمد (ص) قَبْساً بعد قبس من أشعة القرآن لِيُنِيرَ هذي النفوس
التي طبعت عليها الأهواء، ويحيي هذي الأذهان التي أَمَاتَهَا الغباء.
وكافح بالحجة، وكافح بالموعظة، وكافح بالنصيحة، وكافح بالخلق
الكريم والقلب الرحيم.

وطمعت بعض هذه النفوس في غير مَطْمَع، وجهدت أن توصل الأبواب
في وجه الدعوة، وأن تقطع السبل، ولم يُجَدِّ معها البرهان شيئاً، ولم تنفع
الذكرى فتيلاً.

واضطر محمد (ص) أن يحتكم مع هذه الفئة إلى القوة لفتح الأبواب
وتحلية السبيل، فناضل بالسيف، وناضل بالعزيمة، وهي أمضى حداً من
السيف، وناضل بمدد الله ونصره، وهي القوة التي تمدد السيف والعزيمة والجند
بالمضاء والصرامة.

ولم يزايل البرهنة في مواقفه تلك، ولم يترك النصيحة، ولم يفارق الخلق
الكريم والقلب الرحيم، وظهر أمر الله وهم كارهون، وعلت كلمة الله وهم
راغمون.

ودار الزمان، ودارت القرون..

وتراكمت الأهواء، وتكدّس الغباء..

واتخذت الأهواء في دورتها هذه صبغة الحضارة، وألبس الغباء لباس

المدنية.

ودعوة محمد (ص) لاتزال هي دعوته، وبيّناته هي بيناته.
هي تلك التي آمنت بها الفطرة، وآمن بها العقل، وآمن البرهان، وآمن العلم.

ووقفت الأهواء فلم تُبصر، وتبلّد الغباء فلم يَهتدِ.
ومُدّت الأيدي لتوصد الأبواب والسبل في وجه الدعوة.. لتصدّ الأذهان عن إدراكها، بل ولتوقر الآذان عن سماعها، ولتكمّ الأفواه عن الجهر بها.

فهل لنا أن نرفع القبس الذي رفعه محمد (ص) لنضيء للسادرين طرقهم وننقذ هالكهم؟
وهل هي أمنية أو تساؤل، أو هي فريضة محتومة سريعة لا مجال فيها للأمان، ولا وقت معها للإبطاء؟!

المثل الأعلى للإنسانية

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(١).

مع الحكمة في أبعد أشواطها، ومع الإتقان إلى أقصى حدوده، تجري هذه السنّة من الله في بعث أنبيائه، من وسط كل أمة يختار نبيّها، وإلى رجل منها يُسلم قيادها.

مع الحكمة ومع الإتقان في أدق مجرى منهما، وإلى أبعد غاية تجري هذه السنّة في بعث الأنبياء.

لأن الرسول حين يكون من خالص الأمة يكون أعرف بأساليبها في التفهيم، وأعلم بطرق إقناعها بالحجة، وأبصر بسيئ عاداتها في الأعمال، وبمكامن أدوائها في الأخلاق.

ولأن إنذار القريب ألمس للعاطفة، وأمسّ بالقلب، وأدنى إلى التأثير. ولأن الرسول هو المثل الذي يقدّمه الله للأمة لتصوّغ نفسها على منواله، وتقتدي بأعماله .. وواضح -جِدّ الوضوح- أن قرب هذا الرسول

من الأمة أدعى لها إلى القدوة، وأرجى لها في الحصول على الغاية..
من الأمة .. ومن أصرحها نسباً، وأنصعها غرة يصطفي الله رسوله
إليها، حتى إذا تمكّنت الدعوة، وضربت جذورها، ورسخت أصولها، ونمت
فروعها وآتت أكلها، ومدت أغصانها بعد ذلك إلى كل ناحية، ونشرت
ظلالها في كل جهة وعمّت بركاها من قُرب ومن بُعد.

” لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً “ يلقنهم سداد
الحكمة، وينهج بهم سبيل الرحمة، وقد كانت المنّة عظيمة جداً أن اختار
الرسول ” من أنفسهم “ وأن أنزل الكتاب بلسانهم، وأن جعل بيئتهم محضاً
لدعوة الله (تعالى) ومدرجاً لتشريعته.

ليتوّج محمد (ص) مليكاً للأنبياء:

أيها السادة، شئت العناية أن يكون الإسلام هو الدين الأخير، وأن
يكون رسوله هو الرسول الخاتم، وأن يكون قرآنه هو الكتاب الخالد، ونظامه
هو النظام الذي لا ينسخ.

وشئت العناية أن تختار محمداً (ص) مليكاً للأنبياء (ع)، وزعيماً
للأُمم.. ومن أحقّ بهذه المنزلة من محمد (ص)؟

محمد الذي كونه الله كما يحب، فكان له كما أحب.

ليكن للأقدار ما أرادت، وليتوّج محمد (ص) مليكاً على الأنبياء (ع)
فليس لهذا المقام الأعلى غير محمد .

أما الفقر واليتم فإنهما لا يقصّران بالمرء عن غاية، إذا كان من هذا

النمط الذي يتَّسم به محمد، ففقر محمد فقر كريم، ويُتمُّ محمد يتم شريف. ومن خصائص الفقر حين يكون كريماً، واليتم حين يكون شريفاً أنهما يؤهِّلان النفس لكبريات الغايات.

ليُتَوَجَّ محمد مليكاً على الأنبياء، وليكن تنويجه في السماء فإنَّ قيادته ستضمُّ السماء إلى الأرض، وستجمع الملائكة مع البشر.

وبعد، فالنبليون أحقُّ من يحتفل بيوم تاجه، والملائكة أول من يؤدِّي عيمين الطاعة، وربّ الملائكة والنبين هو صانع ذلك التاج، وعاقده ذلك اللواء. وليس عجيباً أن يعرج بمحمد ليتَّخذه حبيباً، فقد كان زينة للعرش منذ القدم، وقد كان نبياً وآدم بين الماء والطين.

لِنَسِرْ مع القرآن في طريق الحياة:

أيها السادة ..

تلتقي خطوط المثالية في شخصية محمد (ص)، وتجتمع القيم الإنسانية العليا في دين محمد، وهل للبشر ناحية لم تشملها عناية هذا الدين، وهل في الحياة جهة لم تحفل بها تعاليمه؟

دين محمد (ص) هو الذي يأخذ بيد الضعيف حتى يرفعه إلى مصافِّ الأقوياء، ويرعى الفقير حتى يجعله شريكاً في أموال الأغنياء.

ودين محمد هو الذي يوجّه العقل متى افتقر إلى التوجيه، ويهذّب الغريزة متى احتاجت إلى التهذيب، ويتمشى معهما حين يجدهما مصاحبين للحق، ملازمين للاستقامة.

أيها السادة..

من التناقض الواضح أن نقول: نحن مسلمون. ثم لانضع أيدينا في يد محمد (ص)، نقف حيث يقف، ونسير حيث يسير..
ومن الجهل الفاضح -بعد هذا- أن نقول: إنه لايسدّ حاجات البشر ولا يفي بضرورات الحياة.
نعجز نحن، ثم نتهم الدين بالعجز، ونتقاعد نحن ثم نصف الإسلام بالتقاعد.

لِنَسِرْ مع القرآن في طريق الحياة، ولنعالج بتعاليمه أمراضنا الاجتماعية والاقتصادية، ثم لننظر -بعد ذلك- هل يكفي الدين لحاجات البشر؟ وهل يفي بضرورات الحياة أم لا؟

لِنَسِرْ مع القرآن إلى حيث يريد فسيوصلنا -من غير شك- إلى ما نريد، ومن كان القرآن طريقه، وكان محمد دليله بلغ الغاية التي يأمل.

المسلم الأول

وليد الكعبة

واجتمعت قريشٌ حول البيت الحرام، وكان اجتماعها هذه المرة حافلاً شاملاً، فقد حضره حتى الشبان، وحتى الصبيان، وحتى بعض النساء والولائد، وكان الحديث همساً أو ما يُشبه الهمس، وكانت الأبصار شاخصة نحو البيت، ونحو باب البيت على الخصوص.

إنَّ باب البيت لا يزال موصداً، لم يفتح -بعدُ- عن السر الذي يحتويه. أتراه يفتح من تلقاء ذاته كما أوصد من تلقاء ذاته على فاطمة بنت أسد بن هاشم منذ ثلاثة أيام، أم يبقى موصداً عليها إلى الأبد؟ لقد احتجبت فاطمة في الكعبة، وأوصد رب البيت عليها باب البيت، حتى أعبى أمر فتحه على السدنة، وعلى الأشداء الأذكاء من بني هاشم وبني مخزوم.

أوصد الباب فلم يملك أحدٌ فتحه، وإذن ففي الأمر سرٌّ لعله ينكشف بعد قليل..

وأبو طالب مطرق متأمل، يستعرض الحادثة الغريبة، ويسير أغوارها، ويقلب وجوها..

فاطمة في جوف الكعبة منذ ثلاثة أيام، فهي في حاجة إلى الإغاثة،
ولكن كيف الوصول إليها وكيف السبيل؟..

وفاطمة حامل مقرب، فهي في ضرورة إلى نساء يسعدنها، ويلين من
أمرها، ولكن ما الحيلة؟

لقد سُدَّ باب الكعبة عليها فأعياى على الفاتحين.

هل يشاء ربّ البيت أن تضع فاطمة وليدها في البيت؟!

إن كانت هذه مشيئته فيا للعناية الكبيرة، ويا للشرف العظيم!

أم يشاء غير ذلك؟ فله المشيئة والأمر، وليس لنا إلاّ الخضوع والتسليم..

مطرق متأمل .. وحواله أقيال قريش وأسياد هاشم، مطرقون،

ومتأملون.. ينظرون، وينتظرون..

ومحمد بن عبد الله يطوف بالبيت، باسم الثغر، متهلّل الوجه، مشرق

الأسارير .. ينظر ما لا ينظره الجميع، ويأمل ما لا يأملون، ويفكر في ما

لا يفكرون!! ... وانفتح الباب..

وخرجت فاطمة بنت أسد بن هاشم تحمل على ذراعها وليدها

الميمون.

وازدحم الناس يهتّون فاطمة السلامة، ويباركون أبا طالب بالوليد،

ويتوسّمون في وجه الوليد شمائل العظمة، وسمات البطولة، ودلائل الخير.

واستقبل محمد علياً:

واستقبل محمد (ص) علياً (ع)، وابتسم النبي، وابتسم الوصي، وابتسم الكون، والتقت الشفاه الكريمة في قبلة حبيبة..

نعم، في فناء الله وفي ظلّ بيته كان لقاءهما الأول .. ها هنا ..

وفي فناء الله وفي ظلّ عرشه كان لقاءهما القديم ..

واحتمل محمد علياً بكلتا يديه، ورفعته عالياً عالياً يحّي به الوجود.

وما أسعد الوجود في هذا اليوم، يستقبل هذه البشرية العظيمة من فم

هذا البشير العظيم!!

رفعه عالياً بيديه ليري العالمين صنوه يوم ميلاده، وسيرفّعه عالياً بيديه

كذلك ليري العالمين وصيّّه يوم استخلافه!!

وأطلت شعاب مكة، وهضباتها، ومشاعرها، ومواقفها لتبصر كيف

اقترن السعد بالسعد، وكيف اتّحد النور بالنور، ومحمد قائم على مرقاة

الخطيم، وعلي مائل بين كفّي الرسول، يسمان لبعضهما البعض.

إذن فقد اقترب اليوم، وأشرف العهد.. يوم رسالة الحياة، وعهد تبديد

الظلمات.

نعم، لقد اقترب اليوم، وأشرف العهد، فليهنأ محمد، وليبارك علي،

وليسعد شيخ البطحاء بالوليد، وليُضيف مجدّاً طارفاً إلى مجد تليد.

لقد اقترب الوعد، وستكون هذه الهضاب، وهذه الشعاب، وهذا البيت

مشرق النور، ومبعث الدعوة، ومهبط الوحي، ومصدر الوعي، فلينتظر

العالم، وليستمع الكون، ولتزده الحياة..

ودعوة محمد (ص) مفتقرة منذ يومها الأول إلى ساعد شديد يحمل
السيف، وكفّ قويّ يرفع اللواء.

وماذا يصنع الحقّ إذا أراد الباطل أن يكتمّ فمه حتى لا يجهر بدعوة، وأن
يأخذ عليه سبيله حتى لا يبلغ إلى غاية؟

.. إذا أراد الباطل أن يُوقر الآذان، ويلبل الأذهان، فلا تلقى الدعوة إلى
الله سمعاً، ولا تنفذ إلى قلب..

.. إذا أراد الباطل أن يوبى التربة، حتّى لا تنمو فيها بذرة، ولا تخرج
منها ثمرة.

ماذا يصنع الحقّ إزاء ذلك إلّا أن يعتمد العلاجات الحاسمة التي تستأصل
الطفيليات، وتبيد الجراثيم؟!

هكذا.. نعم هكذا، لا بدّ للحق من قوّة يدافع بها عن نفسه، ويناضل
بها عن غايته، ولا بدّ لمحمد (ص) من عليّ، يشدّ أزره، ويشاركه أمره، ومن
أجل ذلك تأخرت دعوة الرسول ثلاثين عاماً حتى وُلد، ثم تأخّرت بعد ذلك
عشرة أعوام حتى نشط.

المسلم الأول:

وُبعث محمد بالرسالة، فكان عليّ أوّل من صدّق، وأوّل من آزر، وأوّل
من صلّى، وأوّل من اقترب، ولا أستحب أن أقول ما يقوله بعض علماء
الحديث وبعض علماء التأريخ: عليّ أول من أسلم.

إن عليّاً لم يكفر في يوم من الأيام ليقال فيه: عليّ أول من أسلم.

وكان علم الحديث، أو علم التاريخ، إنما يحاول أن يقول معي: علي هو المسلم الأول، وفارق كبير بين معنى هاتين الكلمتين.
علي هو المسلم الأول؛ بمعنى أنه الذي لم يسبقه إلى دين الله أحد ممن سبق.

وعلي هو المسلم الأول؛ بمعنى أنه الذي لم يضارعه في تطبيق مناهج الله أحد ممن أطاع.
وعلي هو المسلم الأول؛ بمعنى أنه الذي لم يدرك مداه في الإسلام لوجه الله أحد ممن أسلم.

علي هو المسلم الأول بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وبكل ما ترمز إليه من فضل، وكل ما تشير إليه من غاية، فهو السابق إلى كل مكرمة، والمستأثر بكل منقبة، والإسلام مجمع كل أولئك الفضائل.

نعم، بُعث محمد بدين الحق، وأنزلت معه شريعة الهدى، ووضعت أنظمة الحياة، ووجه الإنسان بهدي ذلك الدين، وبرشد تلك النظم، إلى كماله الأعلى، واصطفي محمد رسولاً يبلغ ديناً، وزعيماً يبيّن مجتمعاً ويؤسس دولة وقيم عدلاً، ومؤدباً يصوغ ضمائر وقلوباً وأخلاقاً، وفدوة حبيبة تقتدي الناس بأفعاله وتصوغ أنفسها على مثاله.

واستخلف محمد علياً على عهده، وأحلّه منزلته، واستودعه أمانته، وحمله أعباءه، وأقامه مثلاً صادقاً له، ولساناً ناطقاً عنه، وبرهاناً منيراً لدعوته، يقتدي به المسلمون في كل عمل، ويفزعون إليه في المُلَمّة، ويستضيئون برشده في الحيرة، وفي كل صغيرة وكبيرة.

واستخلف محمد (ص) وعلي (ع) أبناءهما الميامين (ع) هادياً بعد هاد،
ونوراً بعد نور، وصادقاً بعد صادق، أمثلة شاخصة للعدل، وأدلة معصومة
للحق، وبراهين نيرة للإسلام، وحفظة مأمونة للكتاب.
كانت كل هذه التهيئة لمبدأ الحق .. لمبدأ الإسلام، ولنشر معالمة،
وبسط سلطانه، ومدّ نفوذه.

ماذا قَبَسْنَا من الهدى الإلهي؟

وجئنا نحن في الأعقاب ..

جئنا بعد كل هذه التهيئة، وكل هذا الإعداد، وبعد أن أقام الله لنا اثني
عشر دليلاً معصوماً بعد رسوله العظيم ترشدنا إلى دينه القويم ..

فماذا أفدنا من هذا الإعداد؟

وماذا قَبَسْنَا من هذه الأنوار؟

وما هي حصيلتنا من هذه الجهود ومن هذا الجهاد؟

نعم، ما هي حصيلتنا نحن، فنحن المعنّون، ونحن المخاطبون ونحن
المسؤولون.

أكلّ حصيلتنا أننا أصبحنا إمعة تتلاقفنا المبادئ، وتصرفنا الأهواء؟!!

تتلاقفنا المبادئ الكافرة، وتصرفنا الأهواء الحائرة!

ما بهذا بُعث محمد (ص)، وما لهذا جاهد علي (ع)، وما لهذا ناضل

أبناءؤهما المعصومون (ع) ودعاة الحق أجمعون.

فهل لنا أن نقف عند حدودنا فنعترف بأننا ظالمون؟

لقد كَرَّمنا الله كرامة ليس فوقها من مزيد لَمَّا ارتضى لنا أفضل أديانه، وهدانا
أشرف سبله، واختصنا بسيد رسله وبأعظم كتبه، وميّزنا بساتات أوصيائه وخلفائه.
لقد كَرَّمنا الله بهذه الخيرة لنا كرامة ليس فوقها من مزيد، فما بالنا لا نرى أنفسنا
أهلاً لهذا التكریم؟!

ولماذا نستبدل بالرفعة هواناً وبالسعادة شقاءً وخساراً.

﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ^(١) .

آن لنا أن نقف لنصلح أخطائنا، وتلافي ما فاتنا، ونصحح باتباع رسالته ما فسد
من أوضاعنا وأعمالنا، ثم نحمل دعوة الله نبليها من حولنا من الأمم.

إن الأمم ممن حولنا تنتظر دعوة الله التي حملنا محمد (ص) أعباءها، وأوضح لنا
علي (ع) مناهجها، وأبان لنا المعصومون من أبناء علي (ع) أسرارها .. إنهم ينتظرون
هذه الدعوة المنقذة المشرقة تصل إليهم من أفواهنا وبأقلامنا وأعمالنا: ﴿ وَقُلْ اْعْمَلُوا
فَسِيرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ^(٢) 〉 .

صدق الله العظيم

١- آل عمران: ٨٥.

٢- التوبة: ١٠٥.

المسلم الأول (٢)

﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ. رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ^(١)﴾.

في بيت الله .. وبين أركان كعبته وُلِدَ هذه هي البداية.

وفي بيت الله .. وبين أركان صلاته وصيامه. وفي غمرات ذكره وخشوعه استشهد. هذه هي الخاتمة.

ومع القرآن. ومع الحق ، يدور معهما حيثما دارا - كما يقول الرسول الكريم- عاش وجاهد، وقال وفعل، وخاصم وسالم هذه هي الحياة بين ذلك المبدأ وتلك الخاتمة.

هذا هو علي في مبدئه وخاتمته، وفي حياته ومماته. في ظل الله ولد، وفي ظل الله نشأ، وفي أحضان رسوله تربى ودرج، ومع كتاب الله وتبرّ منهاجه عاش وحكم، وجاهد وناضل، وقال وفعل، وفي ظلّ الله وفي سبيله وبين أذكار صلاته وخشوع عباداته استشهد. أُرِيتُم أكبر من هذه الصلة، وأشد من هذا القرب، وأكرم من هذا المقام!؟

المسلم الأول حين يُذكر السابقون، والصادق الأول إذ يُعدُّ الصادقون، والمصلي الأول، والمجاهد الأول، والعدل الأول، والداعية الأول للإسلام، والمطبق الأول لرسائله، والممثل الأول لرسوله، والقرين الأول لكتابه، ألم يجعله القرآن نفس النبي في آية المباهلة؟! ألم يقل الرسول (ص) فيه قوله التي رواها المسلمون على السواء: "علي مع القرآن، والقرآن مع علي، يدور معه حيثما دار".

هذا هو علي في صفاته وسماته التي استوجب بها التقدم، واستحق بموجبها التفضيل، ومن أجل هذه المؤهلات التي جمعها علي اصطفاه الرسول له أخصاً، ثم اختاره الله له خليفة، فما كان الرسول ليحابي في أخوته قريباً، وهو الذي عصمه الله أن يفعل أو ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى، وما كان الله ليصانع في عهده أحداً، وهو الذي يقول في كتابه: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (١).

هذه بعض الآفاق الممتدة من عظمة علي، وبعض الملامح الواضحة من شخصيته، على الباحث أن يقف عندها ملياً: يتقصى آفاقها، وقيس أبعادها وأغوارها، ويتأمل في مقتضياتها ومعطياتها، إذا أراد أن يعرف المقياس الأعلى لفكرة الإمامة في الإسلام.

إذا حاول أن يلج بحثاً في مقارنة، أو تحديداً لحق، أو دراسة لتأريخ يتعلق بهذا الإمام العظيم.

لقد وصف الكتاب المُحدَثون علياً بأنه عبقرى، ثم راحوا يضعون الحدود لهذه العبقرية في ضوء ما يفهمون وما يعرفون، وما أحوج الألفاظ حين يُفتَحَم بها غير حدودها، ويُحْشَر فيها أعظم من آفاقها، وتُفسر على الدلالة على أكبر من معانيها.

إن علياً عبقرى إذا ارتفعنا بهذه الكلمة عالياً عالياً، فدللنا بها على عبقرية العبقریات، المدد الذي يقبس منه كل عبقرى وكل عظيم وكل ملهم في الحياة.

الممثل الصادق للرسالة، والمثال الأول للرسول، والقرين الأول للكتاب، والقدوة الثانية للأمة، وكفى بذلك توصيفاً، وكفى بذلك تحديداً لعبقرية علي نصفه بالعبقرية، وحين تخرج الألفاظ، وتضيق الكلمات أن تحدد هذا المقام.

وللحكم في ظل الإسلام طابع فريد، يختص به نظامه، ويتميز به مجتمعه، وتنهض به ركائزه ودعائمه.

النظام الإلهي الذي وضعته السماء، ونهجت أصوله، وقررت مواده، وصانته أن يأتيه الباطل من بين يديه، أو يلحقه الريب من خلفه، تزييل من حكيم حميد.

والمجتمع المسلم المؤمن الذي تقوم الصلوات فيه على الحب في الله، والأخوة في دينه، والتكافل في بلوغ مرضاته، وتقواه حق تقاته، وتأسس الحقوق والواجبات فيه على أساس العدل الشامل بين الآحاد، والموازنة الكاملة بين الحريات، والملاحظة الدقيقة المستقصية للطاقت والضرورات.

والركائز الأصلية العميقة في كيان الإنسان الفرد، وفي كيان الإنسان الأمة، الغرائز والترعات والضرورات الذاتية التي لا تختلف في بيئة، والحاجات والمصالح الأخرى التي تملئها الحياة وتخضع للمؤثرات.

الضرورات الفردية والضرورات الاجتماعية، التي لا يسوغ أن يهدر شيء منها لشيء أو يحاف على جانب لحساب جانب، أو يضيع حق بإزاء حق.

هذا العدل الذي أرسل به محمد، وأنزل به كتابه: ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان^(١)﴾، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا، لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ^(٢)﴾، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ. إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ^(٣)﴾، وما أكثر الآيات التي ذكرت هذا الشأن، ووصفت دين الله بهذه الصفة، وحفزت الناس إلى هذه الغاية، ودعتهم إلى هذه السعادة.

هذا العدل الذي أرسل به محمد، وأنزل به كتابه، وأقيم عليه نظامه، والذي أراده الله للمجتمع المسلم الذي أقام صلاته على الحب في الله، والتآخي في دينه، والتناصر في سبيله.

والحكم في الإسلام -أيها السادة- مشتق من هذا النظام، وقائم على

١- الشورى: ١٧.

٢- الأنعام: ١١٥.

٣- النحل: ٨٩ - ٩٠.

هذه الركيزة، ومستمد من هذه الأسس.

الحكم في الإسلام قوامة عامة على المجتمع، وعلى التطبيق الكامل لعدل الإسلام، والرعاية اليقظة لكتاب الإسلام، والسعي الدائب لأهداف الإسلام. وتمشيا مع هذه النتائج: فلا بد وأن يكون الحاكم الأعلى مثالا شاخصا للعدل الأعلى في الإسلام، وتطبيقا لهذه القاعدة: وجب أن يكون الرسول في زمانه هو الحاكم الأعلى لحكومة الإسلام، وفي غيقيتي أن هذه نتيجة لا يشك فيها من عرف أنظمة الإسلام، وتبين أهدافه، وعلم صفات مجتمعه.

نعم - أيها السادة -، وما الأثر الشريف الذي ذكرته في أول كلمتي: "علي مع القرآن والقرآن مع علي"، والأثر الثاني: "علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار": ما هاتان الكلمتان وأخواتهما إلا تعريفات نبوية بمن يستحق هذا المقام الكريم.

هذه بعض مقاييس الإسلام التي يقيس بها الرجال..

وهذه بعض المثل العليا التي يقدمها لنا للقدوة..

وهذه بعض الغايات التي يضعها لنا الإسلام للسعي..

وهذه بعض المناهج التي يخططها لنا للعمل. فهل نحن مقتدون، وهل نحن عاملون، وهل نرى أنفسنا أهلا للكرامة التي أَرادها لنا، والسعادة التي أعدنا لها، والعزة التي اختصنا بها، والفتح القريب الذي وعدنا إياه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ؟. تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ
اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ. وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١) ﴿

صدق الله العلي العظيم.

لبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً

أصحاب الرسالات الحية لا يموتون:

قال لي رجل رأيَ أعدّ حديثاً مثل هذه الذكرى: أذكرى مولد بعد موت وليده بعدد من القرون؟!!

فابتسمت لمحدثي ثم قلت: لقد التويت يا صاحبي في وجه القياس؛ إن أصحاب الرسالات الحية لا يموتون. وكيف ينالهم موتٌ وعلى مبادئهم تقوم دعائم الحياة؟؟

لم يمِت علي (ع) ما دام مبدؤه يعمر مئات الملايين من نفوس المسلمين، ولم يمِت محمد (ص) ما دامت حياته مصدراً يشعّ الحياة للخُمس من هذه البشرية، تنبض بها قلوبهم، وتندفق بها دماؤهم، وتحيا وتنفس بها أرواحهم، وتتكيف وتنبعث بتوجيهها أشواقهم وأعمالهم.

لم يمِت محمد ولم يمِت علي ما داما قِبلة للبشرية، تتجه إليها في كل سلوك حقّ، وفي كل خُلُق سام، وفي كل عقيدة صواب، وفي كل تشريع حكيم، وما داما قِبلة للبشرية كلها، نعم، كلها.. مَنْ عرف محمداً وعلياً من أبنائها ومَنْ جهلها.

أليس كل بشري يتجه بطبيعته وجهة الحق والخير والجمال؟

أولست هذه المعاني هي ذات محمد أو ذات علي حين تتجسد في شخص؟!

أولست هذه المعاني هي مبدأ محمد وعلي حين تتمثل في مبدأ؟
نعم يا صاحبي، وستدرك البشرية رشدًا يوم تعي هذه الحقيقة، فتسير كلها في ركابهما، وتحيا بحياتهما وتتفيا ظلالهما.
ستدرك البشرية رشدًا، وستنال هداها يومها ذاك، وما هو منها بعيد.

العلم والعقل مؤمنان لا محالة:

لقد سار الركب مع العلم وسار مع العقل، والعلم والعقل مؤمنان لا محالة، وإن طال بهما الطريق. وأقول: هما مؤمنان لا محالة، وأريد بذلك إيمانهما العلني الصريح؛ فإن العلم والعقل لم يزالا مؤمنين منذ يومهما الأول، ولن يزالا مؤمنين كذلك حتى يومهما الأخير..

لقد سار الركب مع العلم، وسار العلم مع التجربة ومع المشاهدة، ومع الملاحظة الدقيقة العميقة، ولم تبق إلا لفظة واحدة يدرك بها حقيقة الحقائق، ونتيجة النتائج.

أجل، لقد سار العلم، وتقدمت تجاربه، ومُنحت تجاربه، فقال البسطاء من الناس: لقد تباعد العلم والدين، وقالت الحقائق: لقد تقاربا جدًّا، وسيلتقيان، وسيعلن الواقع كلمته الحاسمة في يوم جدّ قريب.

أما قولة الله في ذلك فقد أنزلها قبل ألف ومئات من السنين:

﴿ سُرِّبَهُمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ، أَوَلَمْ

يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ؟ (١) ﴿

ما أروع الذكرى تقام في الأفئدة:

ما أروع الذكرى تقام في الأفئدة قبل أن تقام في الأندية، وتعدد مجالسها للقدوة قبل أن تُعقد للثناء.

ذكرى الإسلام بذكرى بطله الثاني، وإذا عرفنا الإسلام ما هو؛ فقد عرفنا من هو بطله وما هي ذكراه.

ما أروع الذكرى تقام في ضمير كل فرد مسلم ليعرف قيمته في هذا الدين، ويعرف حدوده في المجتمع المسلم، ويعرف واجباته التي ترتفع له بتلك القيمة وتصون له تلك الحدود.

وتقام في حفل الجماعة لتعرف الرباط الذي يجعل منها وحدة لن تفلّ، والمدد الذي يكون لها قوة لن تذلل.

لتعرف الإسلام، وإذا عرفت الإسلام فقد عرفت وجودها، وحياتها، وقوتها، وحضارتها، وأبجدها الماضية، وذخيرتها الباقية، ومدارج رقيها في الحياة، ومراقي سعادتها فيما بعد الحياة .. إذا عرفت الإسلام فقد عرفت عن ذلك كل شيء..

إن هذا الرباط المقدس الذي يشدّ المسلم إلى كبراء الدعوة في الإسلام، ثم إلى كل فردٍ من حَمَلَةِ العقيدة وأتباع الهدى .. هذا الولاء الوثيق العميق

الذي يخفق به القلب المسلم حين تعنّ له هذه الذكرى، هو الذي يعرف المسلم قيمته ويوضّح له حدوده، ويعيّن له واجباته.

ما أروع الذكرى تعقد للاقتباس من العلم، وللإقتداء في العمل، أجل لقد تعالى علي (ع) وتمجدت ذكراه عن أن تكون لفظاً يزوّق، وحديثاً ينسّق، ثم لايمكث له أثر ولا ظلّ عدى ما يعقب الأدب من هزة في الروح، وما يترك الحديث من متعة في النفس.

قيمة المسلم في سوق الحقائق:

يقول علي (ع) وليد الكعبة، وربّي محمد (ص) وسمير القرآن، ونصير الإسلام، يقول المسلم الأول ليعرّف المسلم الصحيح قيمته في سوق الحقائق:

”لبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً“.

هذه الدنيا كلها بما فيها من عَرَض ومتاع، ومن نامٍ وجامدٍ، ومن خزائن ودفائن، لن تتطاوّل لأن تكون ثمناً لنفس هذا الكائن إذا هو اعتقد الحق، وراضٍ نفسه به، ووقفها عند حدوده، وسار بها على نهجه، فإن هو رضي بالدنيا عن نفسه ثمناً فقد اتّجر بثس المتجر، كذا يقول سيد نقدة الحقائق.

أجل، إنما تكون له هذه القيمة إذا هو اعتقد الحق، ووقف عند حدوده، وما هذا الكائن لولا هذا السرّ.. لولا هذه الروح؟

حثوة من تراب هذه الأرض لا تختلف عن سائر ترابها في عنصر، وحفنة من ذرّات هذا الفضاء لا تفضل باقي ذراته في جزئيات ولا تركيب .. ولكنه

السّرّ، ولكنه الروح، ولكنه المعنى الذي يرتفع بالجواهر فيعليه عن الحصى، والمعدن فيه هو المعدن، والعنصر هو العنصر.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(١) ﴾.

إجمع ما في هذا الكون الرحيب من معنى للعدل، ومن مسمّى للصدق ومن مدلول للرحمة، ومن مفهوم للإخلاص، ومن حدّ للعزة والكرامة، ومن مغزى للشجاعة والبطولة، ومن رسم لكل صفة رضية وسَمْتٍ كريم.

إجمع كل هذه المعاني العظيمة النبيلة في إطار، ثم اطر كل هذه المفاهيم في مفهوم، فإنك لن ترى لفظاً يحكيه -أصدق الحكاية- غير لفظ (الإسلام)، ولن تلقى مظهراً يطابقه -أتمّ المطابقة- غير (الفرد المسلم) ولن تجد قلباً تنطبع فيه كل هذه الحالات، وترسم فيه كل هذه الظلال غير (القلب المسلم).

أفتطمع الدنيا -إذن- أن تكون لنفسه ثمناً؟

وماذا في الدنيا بعد هذا الاستثناء من غناء؟

هذا هو المسلم الحق، وهذه حدوده وغاياته، في كلمة قصيرة من كلمات المسلم الأول.

وهذا هو الإسلام بروحه ومعناه، ومجمله الذي يغني عن التفصيل ..

لفظ يجمع كل فضيلة، وطبّ يُصلح كل دخيلة..

أما بعد هذا وذاك فاطمح ببصرك جيداً.. إلى فوق .. إلى القمة من هذا
البناء الشامخ الرفيع..

إلى البطولة التي تضمّ البطولات .. والعبقريّة التي تضمّ العبقريّات..

إلى الإسلام في صورته الصادقة الناطقة..

فإنك سترى محمداً (ص) يتلو قرآنه .. وعلياً (ع) يلقي نهج بلاغته.

في بيعة الغدير

موقف الغدير:

« من كنت مولاه فهذا علي مولاه »..

هذا هو التاج الذي وضعه محمد (ص) **علي** مفرق علي (ع) في ظهيرة يوم الغدير.

وهذا الميثاق الذي قطعه رسول السماء **علي** أهل الأرض كافة في حجة الوداع.

وهذا هو النصّ القاطع الذي أنبأ الله رسوله أنه إن لم يؤدّه فما بلّغ رسالته.

وهذه هي العزيمة التي تمهّل الرسول (ص) في تبليغها للأمة حتى ضمنت له العصمة من الناس.

وما كان الرسول (ص) ليتباطأ في بلاغ أمر، وما كان ليتمهّل في إنفاذ عزيمة، ولكنه يطلب من السماء مدداً لنفسه وتسديداً لأمره.

إنه يطلب من الله العصمة من الناس لنفسه؛ فلا يُكذّب ولا يُتهم، ويطلب القوة لأمره؛ فلا تضعف تحت ثقل هذا الأمر، ولا تضلّ.

وأمر الإمامة شبيه الملامح بأمر النبوة، لا تحتمله ضعاف النفوس، ولا مرضى القلوب، ولقد جاهد الرسول (ص) من أجل النبوة طويلاً من السنين،

وهو يوقن أن تثبيت الإمامة يقتضيه مثل هذا الجهاد، ومثل هذا البلاء، بل ويحذر أن يسري الريب في نفوس بعض الناس إلى ذات الرسالة، وقد يتعدى إلى ركيزة التوحيد، فهو من أجل ذلك يطلب من الله أن يعصمه من الناس، وإنه ليعلم -حق العلم- أن الله عاصمه منهم، ولكنه يريد نزول آية من الكتاب صريحة بذلك ليعرف الناس عظم الحادث، وعظم المراد. وتحقق للرسول (ص) ما تمنى، وأنزلت الآية تضمن له العصمة من الناس كما أراد:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ^(١)﴾.

فلم يبق إلا أن يصدع بالأمر، ولم يبق إلا أن يبلغ الوحي، وليهلك - بعد ذلك - من يهلك عن بيّنة، وليحي من يحيا عن بيّنة.

وأذن مؤذن الرسول (ص) بالناس لينزلوا صحراء الغدير، في رمضاء المحجير، وتهاشم الناس فيما بينهم: أن لات حين نزول؟ إنه موضع لا يصلح للاجتماع، وإنه زمان لا يصلح للقول، صحراء قاحلة، وظهيرة متوهجة، ولا ظل يمنع من حرّ الشمس، ولا جبل يقي من لفق السموم، ولكن الرسول يأمر بالنزول، ويأمر بالاجتماع، وإذن ففي الأمر سرّ، وفي الأمر اهتمام، ولا بد من أن يطاع أمر الرسول.

وردّ المتقدم من الناس، وحبس التالي، واحتشد الجمع، وارتقى

الرسول (ص) منيراً أقيم له من الأحداج والأكوار، ودعا علياً (ع) ليرتقي معه، وإذن فاهيئة - ذاتها - توضح الأمر، وتكشف اللبس، وتزيل المرء، وإذن فالمعنى الصريح لذلك أن يرتقي عليٌّ منبر النبي، وأن يخلفه على وديعته.

وتطلّعت الجماهير للرسول العظيم (ص) وهو على منبر التأريخ يلقي عهد الله لوليّه، ويأخذ على الناس بيعة الله لخليفته فليسمع كلّ ذي سمع، وليبلغ الشاهد الغائب، والوالد الولد إلى يوم القيامة.

وإذن فهاهنا عهد، وهاهنا بيعة، وعاقده هذه البيعة هو الله الذي عقد بيعة العقبة وبيعة الرضوان، والخطيب في تبليغها هو محمد (ص) الذي علموا - من الكتاب - أنه أولى بهم من أنفسهم، محمد الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحّيّ يوحى..

.. وتطلّعت الجماهير للرسول العظيم (ص) وهو على منبر التأريخ يهتف بالجماهير: "أست أولى بكم من أنفسكم؟ أستم المؤمنين أيها الناس؟ ألم يقل الله في كتابه: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (١) ؟".

أولست هذه هي ولاية الله التي جعلها لنبيه على الناس أجمعين؟ لا يشكّ في ذلك مسلم يؤمن بالرسالة، ويؤمن بالقرآن.

وإذن فبأمر الله وأمر رسوله وأمر كتابه: "من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه".

يقول هذا وهو يرفع علياً يمينه حتى يبين للناس بياض إبطيهما.

لاغموض في الموقف:

هذه حادثة النصّ، وهذا مدلولها ومعناها، ليس في اقتضائها غموض، ولا في معناها خفاء، ولا في سندها ريبة.

والإمامة امتداد وضعي لعمر النبوة، وسيرة الإمام تكملة لسيرة النبي من حيث تنقطع، وصلة لها من حيث تنتهي، فلا بدّ وأن تكون للخليفة منزلة الرسول في الأمة، ولا بد للرسول أن يوضح ذلك للأمة في موقف كموقف الغدير فيقول: «من كنت مولاه فعلي مولاه».

وأمر الرسول (ص) من حضر من المسلمين أن يبادروا إلى بيعة الله ورسوله، وأن يعلنوا تسليمهم لولاية الله وعهده، نعم، وشهد سكّان السماء سكّان الأرض وهم يُظهرون الطاعة، ويؤدّون عليها الميثاق.

واستقبل التاريخ يوماً من أيام الامتحان، تقول فيه الأمة ما لاتعمل وتعترف بما لا تؤمن، وتقسم على ما لا تفي، وتبعد وهي تريد القرب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا^(١)﴾.

القرآن ومواقف الرسول (ص) في النص على علي (ع):

ولم يكن يوم الغدير أوّل يوم جهر فيه النبي (ص) بالنص على علي (ع) بالإمامة، وشهد له بالتقدمة، فقد قال له في يوم تبوك: «أنت مني بمنزلة

هارون من موسى «.

وقال له في يوم آخر: «عليّ مع الحق والحق مع عليّ يدور معه حيثما دار».

و «عليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ يدور معه حيثما دار».. وقال في مواقف أخرى كلمات كثيرة لا يأتي عليها الإحصاء، وذكر الجمهور منها نصوصاً غفيرة لاتبقى مجالاً للشك...

وأُنزل الله سبحانه في يوم الصدقة بالخاتم: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ^(١) 》.

وأُنزل في سورة الأحزاب: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ^(٢) 》.

وجعل علياً نفس الرسول (ص) في آية المباهلة.

وأُنزل آيات أخرى كثيرة يذكرها علماء الكلام وعلماء التفسير.

بل وذكرها الرسول (ص) لبني عبدالمطلب يوم أنزل قوله (تعالى): ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ^(٣) 》 على ما ذكره المؤرخون ^(٤) .

لم يكن الغدير أول موقفٍ أوضح الرسول (ص) فيه أمر الإمامة ولكنه اليوم الذي أعلن فيه النصّ وفرض فيه البيعة.

١- المائدة: ٥٥.

٢- الأحزاب: ٣٣.

٣- الشعراء: ١٤.

٤- سبق أن مرت مصادر بعض الأحاديث السابقة في هوامش البحوث المتقدمة. فلترجع.

نص الغدير وموقف البعض منه:

يذكر المسلمون جميعهم حديث الغدير على السواء، ويتفقون على لفظه في الأكثر، ثم يذكر بعضهم له تأويلات متنافرة، ترسم عليها الأغراض، وتبين فيها الغايات...

يقولون: إن (المولى) في الحديث بمعنى الناصر، أو بمعنى المعتق.

أسمعت أعجب من هذا؟!

يجمع محمد سبعين ألفاً من المسلمين في حرّ الهجير، وفي رمضاء الغدير .. يجمع هذا الحشد العظيم، في هذا الزمان، وفي هذا المكان .. يستوقف الأول من الركب، ويستلحق الآخر .. يجمعهم في صعيد واحد، ثم يرقى المنبر التاريخي، ويصعد علماً معه، ويرفعه يمينه حتى يبين للناس بياض إبطيهما، يصنع محمد كل هذا، ليقول: من كنت ناصره فعليّ ناصره، أو من كنت معتقه فعليّ معتقه!!

إنها مهزلة من المهازل أو منقصة من النقائص، يريدون أن ينحوا علماً عن إمامته فيطعنون محمداً في حكمته.

رحمك اللهم، ماذا تفعل الأغراض وإلى أي حد توصل؟!

ليتناوّل المتأوّلون في معنى الحديث، ولينكره المنكرون إذا شأؤوا، فإنّ العهد قد كمل، وإن الميثاق قد قطع، وقد سجّل الوحي في صحائفه إلى اليوم الأخير:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيتُ لَكُمُ

الإسلام ديناً^(١)﴾.

والإلتزام بأئمة الهدى ليس قولاً بإمامتهم فحسب، ولكنه اعتراف
يستتبعه إيمان، وتسليم يتبعه عمل، وحب يتبعه اقتداء واهتداء، فهل نحن
مقتدون بما سلكوا، مقتفون لما رسموا؟

وهل تصدق أعمالنا ما نجهر به من دعوى الحب، وما نفخر به من
دعوى الولاء، أم هو القول الفارغ الذي يكذبه العمل، والدعوى العريضة
التي يُعوزها البرهان؟!

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ،
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ^(٢)﴾.

صدق الله العظيم.

١- المائدة: ٣.

٢- آل عمران: ٣١.

وليد العصمة

لأيام الإنسان الأولى أثرها البالغ في نشأة الإنسان، وفي غرس طباعه، ولأحداث تلك الأيام عملها الكبير في إتمام شخصيته وإثمار صفاته.

بلى -أيها السادة-، لدور الطفولة آثار بعيدة الغور، عميقة الجذور، ولحوادث ذلك العهد ظلال شديدة الانطباع، قوية التأثير .. آثار بعيدة الغور في خلق ذلك الإنسان الطفل رجلاً نابهاً من الرجال، أو إحالته وحشاً ضارياً من الوحوش، أو -على أدنى التقادير- تجميده على أسبق أدواره طفلاً ساذجاً من الأطفال.

فما مشارف العظمة في الرجل العظيم، ولا مهاوي الحقارة في الرجل الحقير، بل ولا مخائل السعادة في السعيد، ولا الشقاوة في الشقي إلاّ نهايات محتومة لتلك المبادئ، وارتسامات كاملة لتلك الظلال.

تمرّ الكلمة التافهة العابرة على مسمع الطفل .. العابرة التي لم نعرها - حين تكلمنا بها- اهتماماً، التافهة التي لم نقم لها -حين سمعناها- وزناً ... تمر هذه الكلمة على مسمع الطفل.. فتعلق في شعوره خاطرة بسيطة، ثم تتركز في عقله فكرة ثابتة، ثم تتحوّل في نفسه ركيزة مكيّنة، وخلقاً لازماً.

وتجري الحادثة أمام ناظره فيقبسها منهاجاً لما يستقبله من الحوادث، ومبدأ فيما يجد له من الأمور، وتركز كل هاتيك الأشياء في نفس الطفل قوة لاشعورية هائلة، تصرف إرادته في العمل، وتركز غرائزه في السلوك. هكذا يقول علماء النفس، وهكذا يرى علماء التربية، وهكذا يقرر علماء الشريعة..

نعم، ومن هذا يأمرنا علماء الشريعة أن لا نحدث الطفل، ولا نتحدث عنده إلا صادقين، وأن لا نعامله ولا نتعامل أمامه إلا جادين.. ومن أجل ذلك يأمرنا علماء النفس، وعلماء التربية، وعلماء الشريعة، أن نعدّ للطفل منبتاً مفعماً بالسعادة، وجواً مليئاً بالطهر، ومحضاً عامراً بالحنان..

يأمرنا هؤلاء كلهم، ويأمرنا الدين الإسلامي المقدس بذلك أيضاً، لأننا نصوغ للطفل ضميراً، ونطبع له أخلاقاً، وننشئ له شخصية، فلا يباح لنا أن نصوغ له ضميراً يستمرئ الكذب، ولا يباح لنا أن نطبع له أخلاقاً تجنح إلى الهزل، أو تستلذّ الخيانة، ولا يباح لنا أن نكون له شخصية قلقة ملتوية، تنعدم فيها عناصر الرحمة، أو تقلّ فيها ركائز الخير.

ألسنا نحن المسؤولين عن سقوط ناشئتنا إذا نحن أهملنا هذه الحقائق؟

أولسنا ظالمين إذا طلبنا الصلاح من ناشئ قد زودناه بجهاز فاسد؟

بلى —أيها السادة— هذه قواعد التربية الحكيمة التي وضعها الإسلام، ولقد كان الرسول (ص) أعلى طرازاً من هؤلاء المربين.

احتضن (ص) ولده حسناً (ع)، والرسول (ص) هو منبع الخلق الأعلى، فكانت هذه الحضانة هي السبب الأول -بعد الاصطفاء الإلهي- في تنشئة هذا الوليد..

وحنّت عليه فاطمة (ع) فكان هذا الحنو هو السبب الثاني في غرس صفاته.

وحذب عليه علي (ع) فكان هذا الحذب هو السبب الأخير.. وكان لهذه البيئة الطاهرة طابعها الخالص في التفاني في الله -سبحانه- والتضحية في سبيله، فماذا يُنتظر -إذن- من هذا الريب؟.

آثرت هذه الأسرة بقوتها ثلاثة أيام فأطعمته -كما يقول الله (تعالى)- مسكيناً ويتيماً وأسيراً، لوجه الله لا تريد منهم جزاء ولا شكوراً.

نعم، آثرت بقوتها، وطوت صائمة، وقصّ الله (عز وجل) حديث هذا الإيثار في كتابه، وكان الحسن (ع) في أحضان هذه الأسرة، وكان أحد المؤثرين بقوته في الله، فكانت هذه الحادثة تمريناً عملياً على التضحية في الله، والفناء في سبيله.

وألّف الرسول (ص) وفده لمباهلة نصارى نجران، فكان هذا الطفل الدارج أحد الأربعة الذين جمعهم (ص) لهذا الشأن، والمباهلة -بمعناها الواضح- هي المحاكمة إلى الله، والمباهلون هم الفداء الذين قدّمهم الرسول (ص) لهذه الغاية.

فكانت هذه الحادثة تمريناً آخر على التضحية والفداء.

وانعكست هذه التمارين في نفس الوليد ظلالاً، ثم انطبعت فيها خلافاً،
ثم اختلطت بها مزاجاً لا يستقل، واستحالت جزءاً لا ينفصل.
وما صلح سابط الذي قام به سيد شباب أهل الجنة إلا ثمرة لذلك
المراس، وأثر لذلك الطبع.

نظرية الأوساط في هدى أهل البيت (ع)

الأوساط في المجال الهندسي:

إذا أخذنا ورقة بيضاء ، ووضعنا عليها نقطتين متقابلتين، ثم أردنا أن نصل بينهما بخطّ، وجدنا أن بإمكاننا أن نرسم خطوطاً كثيرة تصل بين النقطتين، ولكنّا إذا طلبنا أن يكون الوصل بينهما بخطّ مستقيم، لم نستطيع أن نرسم أكثر من خطّ واحد، هو الوسط الحقيقي بين جميع تلك الخطوط. أو هو - كما يقول الهندسي - أقصر خطّ يكون بين النقطتين، فالمعتدل هو الوسط الحقيقي بين الخطوط المنحرفة. والاعتدال هو التوسط الدقيق بين مجموعة الانحرافات.

هذه هي نظرية الأوساط -أيها السّادة- ومبدؤها بدهي لاشبهة فيه، وبرهانها يقيني لاربية معه، فإذا نقلنا الفكرة من الورقة البيضاء التي بين أيدينا إلى النفس الإنسانية: رأينا أن الفكرة لاتزال هي الفكرة، والمبدأ هو المبدأ، والنتيجة هي النتيجة، لم تختلف بجوهر، وإن اختلفت بأعراض.

الأوساط في النفس الإنسانية:

للنفس الإنسانية قوى كثيرة، وغرائز جمّة، ولها رغبات ونزعات وأحاسيس وانفعالات.

وكلّ أولئك أمور قد تطفئ في الإنسان لتأخذ أكثر مما تستحق. وهذا نشوز يجب أن تُردّ عاديته وأن يحدّ من فوّته.

وقد تهبّط في المرء حتى تتساهل في أقلّ ما يجب، وهذا خنوع يجب أن يُترقّع عنه، وأن يُؤنف من ضعفه.

وقد تتزن في المرء، وتقف على حدودها الصحيحة فلا تأخذ إلا بقدر، ولا تترك إلا بقدر.. تأخذ بقدر ما تستحقّ، وتترك ما لاتستحق، وهذا هو الاعتدال الذي يجب أن يكون، ولا يسوغ إلّا أن يكون.

بلى، هكذا نجد أن الفكرة بذاتها هي الفكرة، ومبدؤها البدهي بنفسه هو المبدأ، وبرهانها القوي بعينه هو البرهان، لم تختلف بشيء يذكر، ولم تتخلف في نتيجة تلمس، والفارق الأصيل أن الورقة البيضاء فرضت لنا أن الخطوط مجتمعة في النهاية كما هي مجتمعة في البداية، أمّا صحيفة النفس فلا يمكن فيها هذا الفرض، فإن الخطوط المنحرفة فيها يمتنع أن تجتمع على غاية. يستحيل ذلك أبداً وهذا هو السرّ في جهاد المربّين في طلب الاعتدال، فإن الطريق الملتوي لا يضيره التواؤه إذا كان ينفذ بسالكة إلى الغاية.

عموم النظرية في الحياة:

ومدّ الفكر يده إلى هذه النظرية - (نظرية الأوساط) - فأفاد منها في كثير من العلوم، وقبس منها كثيراً من القواعد، وشعّب عليها كثيراً من الفروع. أفاد منها في علم الطبّ، وأدخلها في كثير من فروع الفلسفة، وبنى عليها نظريات علم الأخلاق، وقبس منها في علوم كثيرة أخرى.

فالصحة في الجسد اعتدال بين مرضين، والصّواب في القياس اتزان بين خطأين، والرشد في السلوك استقامة بين شذوذين، والأصالة في الرأي استواء بين التواءين، والخلق الكريم توازن بين انحرافين، وكل فضيلة فهي وسط بين رذيلتين .. وكلّها أرقام حسابية لاجال فيها لشكّ ولا مساغ لتردد.

وما الموازين التي وضعها الإنسان لضبط المقادير، وتمييز الحقوق وإقامة العدل، وإزاحة اللبس إلاّ وليدة لهذه النظرية، فالزيادة والنقصان كلاهما انحراف يجب أن يحتنب، أمّا القسط فهو الاتزان بين الميّلين.

الوحي ونظرية الأوساط:

وجاء دور الوحي الحكيم، فأخذ بيد هذه الفكرة، لأنها فكرة الحق،
والحق ملك الله (تعالى) قبل أن، يكون ملكاً لأحد.

أخذ الوحي بهذه الفكرة فطبّقها في تشريعه، وهج إليها في تعاليمه.
وحسبي في الدلالة على ذلك أن أشير إلى آيتين من الكتاب الكريم..

ففي مجال الأمر بالبرّ، وإيتاء ذي القربى حقّه والمساكين وابن السبيل يقول (تعالى) في سورة الإسراء:

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ^(١) ۝ ﴾

غُلُّ اليد إلى العنق، وبسطها كل البسط كلاهما انحراف، وبعدَّ عن الحق، أما الصَّواب الذي تأمر به الآية، وتنهى عن التعدي عنه والتقصير فيه، فهو الاعتدال بين ذلك.

وفي وصف عباد الرحمن الذين ارتضى هَدْيُهُمْ، وشكر سعيهم، ثم جزاهم الغرفة بما صبروا، ولقَّاهم السَّلام والتَّحِيَّةُ، يقول (تعالى) في سورة الفرقان:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا^(١)﴾ .
وقال الرسول (ص) في حديثه المشهور: "خير الأمور أوسطها".
وهو في قوله هذا إنما يقرّر هذه النظرية.

أما قرناء الكتاب ووديعه الرسول (ص) أما الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام)، فإنهم لم يعدلوا عن هذه الفكرة في قول، ولم يزيغوا عنها في عمل.

من هدى الإمام الحسن في النظرية:

يقول الإمام الحسن السبط (ع) في بعض نصائحه:
"لا تجاهد الطلب جهاد الغالب، ولا تتكل على القدر اتكال المستسلم، فإنَّ ابتغاء الفضل من السَّنة، والإجمال في الطلب من العفة، وليست العفة بدافعة رزقاً، ولا الحرص بحال فضلاً".

هكذا يقول الثاني من أئمة أهل البيت (ع) والسبط الأكبر من أسباط الرسول (ص)، وأحسب أن الكلمة وافية في معناها لا تضطرنني إلى شرح. الإنسان مجموعة من الخلايا الكادحة، والغدد العاملة، والغرائز الحافزة، والقوى المسخرة.

وللفكر - فوق هذه المجموعة - قوة مسيطرة، توجهها حيث يحسن التوجه، وتببطها حيث يذم الانطلاق.

وقد قرّر العلماء النفسيون أن إفراط أية قوة من قوى هذا الكائن إنما تكون على حساب قواه الأخرى، فإذا مالت الكفة بواحدة منها فلا بدّ وأن تخفّ بالأخرى، فيفقد الاتزان العام بين الملكات، وينعدم التكافؤ في الشخصية.

فمن الخير أن تتعادل القوى في الحقوق، ومن الخير أن تتكافأ في الاقتسام.

وطلب الرزق إحدى ضرورات الحياة التي تشغل الإنسان، ولعله أكبر أنواع هذه الضرورات، والناس فيه متفاوتون في السلوك، متفاوتون في النظرة.

فمنهم الحريص المفرط في الحرص، الذي لا يرى لرزقه سبباً وراء سعيه، فهو يجاهد الطلب جهاد الغالب، يكدح حتى يسخر من نفسه كل ملكة، ويستغرق من جسده كل نشاط. وإغراق هذا المفرط ضرر في دينه، ونقص في عقيدته، قبل أن يكون جوراً على شخصيته، وميلاً في أثرانه.

ومنهم الاتكالي المفرط، الذي يستيقن أن القدر سيدخل له قوته في فمه، وإن لم يحرك هو يداً، ولم يصنع شيئاً، وأنّ سعيه فضول من العمل، فهو يتّكل على القدر اتكال المستسلم. وخمول هذا: ضعة في مجتمعه، ولوثة في عقله قبل أن يكون فقداً للتكافؤ في شخصيته، والمضاء في رجولته.

كلا الصنفين متجاف عن السلوك الصحيح، الذي يطلبه الحزم، ويأمر به الدين.

من الحزم أن يكدح العاقل ما حَسُنَ له الكدح، وأن يسعى ما مُدِحَ له السَّعي، أما إذا انتهى إلى الحرص. أمّا إذا انتهى إلى جهاد الغالب، فليقف وليتَعَفَّفْ؛ فليست العفّة بدافعة رزقاً، ولا الحرص بمجالب فضلاً.

أيها السادة:

حسبي أن أقف على هذه الكلمة من بين مئات من الكلمات يقولهن هذا الإمام العظيم ..

وحسبي أن أجعل هذا التعليق القصير عليها موضوعاً لحديثي في ذكره المبارك.

وأنتهز الفرصة فأقدّم لكم أسنى التهاني بهذه المناسبة الميمونة. ومن الله - سبحانه - أسأل أن يلقينا ثمار هذه الذكرى: عبرة نافعة، ونوراً هادياً، وعملاً رضيعاً في هذه الحياة، وسعادة دائمة موفورة فيما بعد هذه الحياة.

صراع الحق والباطل

بدأ الصراع بين الحق والباطل في أول يوم من أيام التاريخ..
يوم علم الحق أنه حق، وعرف الباطل أنه باطل، وعلم كل واحد من
الخصمين أن له مناهج يعارضه الآخر فيها، وأن له غايات يقاتله الآخر من
أجلها.

بدأ الصراع بينهما منذ اليوم الأول من أيام التاريخ ولم يخمد، وتوقدت
الجمرة ثم لم تنطفئ، ولا يمكن أن ينتهي هذا الصراع، وأن تخمد هذه
الجمرة، مادام الحق يعلم أنه الحق، وما دام الباطل يعلم أنه الباطل، وما دام
الخصمان يعلمان أنهما متعارضان في المناهج، ومتزاحمان في الغايات.
.. يستحيل أن ينتهي هذا الصراع، وأن تخمد هذه الجمرة، إلا أن
ينقلب الحق باطلاً، أو يعود الباطل حقاً، أو يحين الوقت الموهوم الذي
يصطحب فيه الضدّان، ويأتلّف فيه النقيضان.

ولنفرض أن أحد الخصمين ربح المعركة يوماً ما، وفاز بالانتصار، فليس
معنى الفوز أن الصراع قد انتهى، وأن الجمرة قد انطفأت..
.. إن حرب الحق والباطل حرب مبدأ وفكرة، وحرب المبادئ لا تنتهي
بنزع السلاح واندحار الخصوم.

ذلك أن المبدأ يحاول أن يضمن لنفسه الثبات والرسوخ، ثم الاستمرار

والبقاء؛ فهو يناضل من أجل ثباته ورسوخه، ويناضل من أجل بقاءه واستمراره، وهو يطارد عدوّه المختفي كما يناضل عدوّه الظاهر.. وكيف ينتهي الصراع إذا كان المنهزم يقاتل في هزيمته، والمتصر يناضل بعد انتصاره؟.

من أشكال الصراع بين الحق والباطل:

ظهر الحق في فترات التاريخ بأشكال متنوعة، وكان الباطل يقابله فيها بأشكال أخرى، وكانت الحرب بين الخصمين تظهر في كل يوم بحلة جديدة، وتستخدم أساليب مبتكرة..

فظهرت بشكل بين آدم (ع) وإبليس، وبأشكال أخرى بين إبراهيم (ع) وحمود، وبين موسى (ع) وفرعون، وبين محمد (ص) وأبي سفيان، وبين علي (ع) ومعاوية، وبين آخرين في جانب الحق وآخرين في جانب الباطل.. نعم، لصراع الحق والباطل ألوان مختلفة، وفي بعض هذه الألوان من الحرب ما يُشبه السلم.. فقد تتعارض الغايات في نظر الحق، فيلقي السلاح، فهو يهدر غاية ليتلافى غاية أخرى هي أسمى منها، وهو يلقي سلاحاً ليشهر سلاحاً آخر هو أمضى منه.. والحق لا يزال هو الحق، والباطل هو الباطل في كل أولئك.

.. من صراع الحق مع الباطل أن يعلن محمد (ص) دعوة الحق في مكة، وليس لديه غير نذر من الأنصار، وغير قليل من المعاضدين.

ومن صراع الحق مع الباطل أن يجاهد محمد (ص) الأقربين والأبعدين

في نبذ الأوهام والأحلام.

ومن صراع الحق مع الباطل أن يشهر السيف حين يجد العدة، وحين تتاح له الفرصة.

ثم، من صراع الحق مع الباطل أن يحتجب محمد (ص) في الشعب ثلاث سنين في مكة، وأن يفرّ بدينه بعد ذلك إلى المدينة.

ومن صراع الحق مع الباطل أن يغمد السيف عن قريش عام الحديبية ليشهره عليهم عام الفتح.

وأن يوادع اليهود من أهل المدينة في يوم ويعلن عليهم الحرب في يوم آخر..

كل هذه الألوان -أيها السادة- من صراع الحق مع الباطل، وإن كان بعضها يشبه السلم في الصورة.

.. من صراع الحق مع الباطل أن يغمد السيف حين يكون إغمد السيف أقرب إلى الخير الذي عنه يناضل، أو يكون أبعد عن الشر الذي له يصادم.

.. من صراع الحق مع الباطل أن ينظر قائد الحق وجه المصلحة للمبدأ الحق في الحركة والسكون، وفي التقدّم والوقوف.

لم يتنازل الحسن عن حقه:

وهذه هي الخطة الحكيمة التي اتّبعها قائد الحق أبو محمد الحسن (ع) .. وهذا هو المنهاج السديد الذي طبّقه على أعماله..

لم يتنازل أبو محمد (ع) عن حقه في يوم من الأيام، وإن أصرّ التاريخ على ذلك، وسجّله المؤرخون .. ولم يطمع معاوية ذاته في تنازل الحسن عن حقه المشروع.

لم يسالم الحسن (ع) باطلاً حاربه هو بالأمس، وناضله أبوه من قبله، وجاهده جدّه من قبله ومن قبل أبيه.

ولم يصفاح الحسن (ع) يداً حملت السيف على جدّه في يوم بدر، وقطّعت كبد عمه في أحد، وأطلّت دماء الأبرار في المواقف، وآخرها في التاريخ يوم صفّين .. وما أدراك ما يوم صفّين.

متى تنازل الحسن (ع) عن مبدئه ليقال: إنه سالم معاوية؟ ومتى تنازل معاوية عن مبدئه ليقال: إنه سالم الحسن؟ إنه قول كاذب -دون ريب- وإن أصرّ عليه المؤرخون.

ألقي الحسن (ع) السلاح من كفه ليظهر على الباطل سلاحاً من نوع آخر، وليعدّ الفرصة لليوم القريب الذي ستأتي دورته في الزمان وموضعه من التاريخ.

من سقطات التاريخ:

ووددت لو تتاح لي الفرصة فأحاسب التأريخ عن سقطاته، ومن لي بهذه الأمنية ولو وهبت تعمير السابقين وجلد المجاهدين. قلت قبل عام في مثل هذا الحفل: التاريخ مصوّر شكلي يحفل بالأشكال الظاهرة، ويصوّر الهيئات البارزة، وقد يكون دقيقاً جداً؛ فيصور الألوان، ويرسم الحركات،

ولكنه لا يتغلغل إلى اللباب، ولا ينفذ إلى الأعماق.

ولو أتيحت لي الفرصة وحاسبت التاريخ لقلت:

إن التاريخ مصوّرٌ مرآةٌ، يمسح الحقائق ويشوّه الصور، حتى في الأشكال البارزة والمعالن الظاهرة التي تلتقطها العدسة البسيطة.

إن سقطات التاريخ أكثر من أن تعدّ، وتنكره لمن يخالفه في العقيدة أظهر من أن يخفى، وللتاريخ جلبة شديدة خلف السياسة، وخلف العقيدة، يستجديهما الحوادث، ويسترفدهما الوقائع.

يتنكر التاريخ حين تنتكر السياسة الزمنية، ويغضب حين تغضب العقيدة الموروثة، ويتسامح حين تتسامحان، ولو أردت أن أثبت هذه الدعوى لأقمت عليها ألف برهان وبرهان.

لو كان يزيد موقفاً في سياسته لعرّفه التاريخ بأنه الزاهد العابد، وإن أطلّ من الدماء أكثر مما أطلّه أبوه في صفين، وإن أراد أن يزلزل مركز الدين في يوم كربلاء، وأن يستأصل الوحي في مهابط الوحي.

سقطات التاريخ أكثر من أن تعدّ، وتنكره لمن يخالفه أظهر من أن يخفى، وحسبي هنا أن أذكر شاهداً واحداً يتّصل بالموضوع .. يقول التاريخ: (لما أراد الحسن (ع) أن يسالم معاوية، زجره الحسين (ع) واشتدّ عليه في هذه الفكرة وقال له -فيما قال-: أعيذك بالله أن تسيء أباك وهو في قبره.

(فغضب الحسن وقال: علمت أنك تقول هذا، ولقد وددت أن أصيرك في بيت ثم أطيّنه عليك حتى أفعل ما أنا فاعل).

يقول التاريخ هذا في الحسين (ع) اللذين أذهب الله عنهما الرجس..
وبعد، فإن وجه المصلحة أظهر من أن يخفى على الحسين (ع)، فيحتج
على أخيه الأكبر بهذه الشدة..

وفي وداعة الحسن (ع) وحلمه المعروف ما يمنعه عن مقابلة أخيه بهذه
الغلظة.

وفي أدب السبطين (ع) ما يعصمهما عن المباشرة بفضلات الكلام
وأوساخ اللغة.

ولبت التاريخ نقل لنا بعض هذه الشدة من الحسن (ع) على أصحابه
الآخرين الذين اعترضوا عليه في أمر المصالحة، وقالوا في كلماتهم ما قالوا.
إن الحديث كاذب -دون ريب-، ولكن التأريخ يقول ذلك،
والمؤرخون يصرون على تدوين ما يقول.

من مزالق التاريخ

تعوّدت أن أتحدث إليكم في أمثال هذه المناسبة الكريمة عن تراث النبوة في هيكل الإمامة، وعن طبيعة الخلافة الراشدة، وسمة الخليفة الراشد في نظر البرهان، ومن نصّ القرآن.

.. أتحدّث بهذا لا لأثبت أن الخلافة بعد علي (ع) لا يستحقّها غير ولده الحسن (ع)، فهذا شيء لا يفتقر إلى الإثبات، ومن مؤسفات الحقائق أن يضطرّ قائله الى برهان. بل لأحاكم التأريخ في سقطته عام الجماعة، ماذا لوّن من حقائق، وماذا سطرّ من أخطاء.

.. تعودت أن أتحدث إليكم عن هذه المآسي، فهل تسمحون لي أن أنصرف بكم -هذا اليوم- الى طرف آخر من الحديث .. إلى لون طريف من هذه المزالق التي تضعها الأهواء في طريق الآراء.

أود أن أتحدث إليكم -أيها السادة- عن آيتين كريمتين، قال سياق القرآن الكريم، وقال المفسرون كلهم -على تفرّق مذاهبهم-، وقال علماء الحديث .. جميعهم -على تنوّع مشاربهم-: إن الآيتين إنما ذكرتا أهل البيت (ع)، خاصّة النبي (ص) الزكية، ولُحمته القريبة، وتقول الأهواء: إنما عنتا أناساً آخرين!!

هاتان الآيتان هما آية التطهير، وآية القربى. فهل سمعتم بأغرب من هذا؟.

آية التطهير لم تنزل في شأن أهل التطهير..
 وآية القربى لم تفرض حبّ ذوي القربى .
 هكذا يفكر جمع من الناس، وهكذا يكتبون .. يصرفون الآيتين من قوم
 إلى قوم ليستطيعوا حملهما من معنى إلى معنى.

حول آية التطهير:

يقولون: آية التطهير نزلت في نساء النبي (ص) لأنها وردت في سياق
 أحكامهن من سورة الأحزاب! نعم، في الدرس الذي يخصّ نساء النبي من
 هذه السورة، وفي المورد الذي يقرّر لهنّ مناهجهنّ في الحياة وواجباتهنّ في
 السلوك .. في هذا المجال -بعينه- وردت آية التطهير، ولكن..
 أيكون هذا -بمجرده- برهاناً على أنّ الآية الكريمة نزلت في النساء؟؟.
 إذن، فأين أسلوب القرآن العظيم؟، وأين الذوق العربي الصحيح، الذي
 يفرّق بين ضمير الذكور وضمير الإناث؟.

سمعنا القرآن يكلم نساء النبي في سابق هذه الآية وفي لاحقها،
 فيخاطبهنّ بنون النسوة^(١). وهذه هي خاصّة اللسان العربي القويم، فما باله

١- قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزْوَاجُكَ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً. وَإِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً. يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا.

في آية واحدة من هذا السياق الرتيب، بل وفي فقرة واحدة من هذه الآية المحكمة يجعل الإناث ذكوراً فيقول:

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾
وهو يقصد فريقاً خالصاً من النساء؟.

تعالى القرآن، وتعالى ربّ القرآن عن هبوط يترفع عنه أقل عارف باللغة، وتنزه العقل الحصيف والغايات النبيلة أن تنسب الكتاب العزيز إلى هذه الحطّة السحيقة.

أما التغليب المألوف في اللغة العربية فليس له ههنا وجه مقبول، فقد عهدنا العربي إنما يغلب الرجال على النساء إذا خاطب مزيجاً من الفريقين، أما حين يحدث جماعة خالصة من النساء فإنه لا يكسوهن حلة الرجولة أبداً. فالحكم بمنطوق الآية الذي لامراء فيه، والحكم لمعناها الذي لم يشكك فيه محقق من علماء التفسير، والحكم في سبب نزولها الذي لم يرتب في تصحيحه ناقد من علماء الحديث^(١).

وَمَنْ يَفْتَنُ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَّلَ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً. يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَقْبَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
ويقول بعد آية التطهير: ﴿ وَأَذْكُرُنَّ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾
الأحزاب: ٢٨-٣٤.

١- أخرج الترمذي بسنده عن أم سلمة، أن النبي (ص) جلّل على الحسن والحسين وعلي وفاطمة كساء ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. فقالت أم سلمة: وأنا معهم يا رسول الله؟ قال: إنك إلى خير وأخرج الحديث أيضاً الطبري في تفسيره ج ٢٢ ص ٦، وابن حنبل في مسنده ج ٦ ص ٣٠٦، وابن الأثير في أسد الغابة، وابن حجر العسقلاني في التهذيب ج ٢ ص

وآية القربي.

وآية القربي هي الأخرى لم تعن ذرية الرسول (ص) على ما يدعون.
يقولون: هي آية من سورة الشورى، وسورة الشورى مكّية نزلت قبل
الهجرة، وقبل ولادة الحسن والحسين (ع)، فكيف تفرض على الناس جبهما،
وهما -بعد- لم يولدا؟.

أسمعتم؟ .. هكذا يحتجّون.

كأن مفسّري الآية بقراءة الرسول (ص) يقولون: إنها نزلت في نفر
مخصوصين، فلا بدّ وأن يكونوا موجودين وقت نزول الآية. فعدم وجودهم
حال نزولها يكون دليلاً على كذب هذا التفسير.

ذكرت الآية عنواناً عاماً لفريق من الناس، وجعلت ودّهم أجراً لرسالة
الرسول (ص)، فإذا عيّن التفسير الصحيح والحديث المتواتر هذا الفريق^(١)،

٢٩٧ والمحَبّ الطبري في ذخائر العقبى ص ٢١ إلى عشرات المصادر الأخرى. ويراجع كتاب فضائل
الخمس من الصحاح الستة ج ١ ص ٢٢٤-٢٣٣. ويقول الرازي بعد نقله لهذه الرواية: وأعلم أن هذه
الرواية كالمُتفق على صحتها بين أهل التفسير والحديث.

١- ومن الأحاديث التي عيّنت ذوي القربي في هذا الفريق ما ذكره في حلية الأولياء بسنده عن جابر، قال:
جاء إعرابي إلى النبي (ص) فقال: يا محمد اعرض عليّ الإسلام، فقال: تشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. قال: تسألني عليه أجراً؟ قال: لا، إلا المودة في القربي. قال:
قرباي أو قرباك؟ قال: قرباي. قال: هاي أبايعك. فعلى من لا يملك ومن لا يحب قرباك لعنة الله، قال
(ص): آمين. وروى الزمخشري في الكشف عند تفسيره للآية الكريمة: إن الآية لما نزلت قيل: يا
رسول الله، من قربتك هؤلاء الذين أو جبت علينا مودّتهم؟ قال: علي وفاطمة وابناهما ونقل الرواية
كذلك الرازي في تفسيره وعقب قائلاً: ثبت أن هؤلاء الأربعة أقارب النبي (ص) وإذا ثبت هذا،
وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم. وروى الحديث كذلك السيوطي في الدر المنثور عن ابن أبي

وطبعا عليه هذا العنوان، شمل الحكم المذكور في الآية من وُجد من هذا الفريق ومن سبّوحد، وأيّ خفاء في ذلك؟.

لاخفاء في الدلالة، ولاخفاء في المدلول، غير أن الأهواء تحاول أن تنطق بما تريد.

أيها السادة؟؟

ما أغنى المسلمين المحمديّين عن هذه الأحقاد التي تسدّ الطريق في وجه الباحث، وتحجب الضوء عن بصر المتتبّع!.

أجل ما أغنانا بالقرآن العظيم .. ننظره مجردين إلّا من نور البصيرة، متجنّبين إلّا عن الإنصاف!!.

وما أغنانا بالسنة النبوية .. نعتمد منها ما تواتر ، ونتبع ما تُثبّن!!.

وما أغنانا بأقوال الصفوة من العترة الطاهرة، نجوم أهل الأرض^(١) - كما يقول الأثر النبوي الكريم- ، وقربى الرسول (ص) - كما يعرفهم القرآن العظيم-!!..

حاتم، والطبراني وابن مردويه. ورواه أيضاً في ذخائر العقبى ص ٢٥ عن أحمد بن حنبل في المناقب، وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد" ج ٧ ص ١٠٣ و ج ٩ ص ١٦٨ وابن حجر في الصواعق المحرقة ص ١٠١ ، والشبلنجي في نور الأبصار وغيرهم يراجع فضائل الخمسة ج ١ ص ٢٥٩-٢٦٤.

١- روى في (ذخائر العقبى ص ١٧) عن إياس بن سلمة عن أبيه قال: قال رسول الله (ص): (النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأمتي). وروى أيضاً عن علي(ع)، قال: قال رسول الله(ص): (النجوم أمان لأهل السماء فإذا ذهبت النجوم أهل السماء، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض). وقال: أخرجه أحمد في المناقب وعلي بن سلطان في مرقاته ج ٥ ص ٦١٠

وما أغنانا بالبرهان العقلي المستنير، يستند على هدى الفطرة، ويستمدّ من روح العلم، ويقتبس من ضوء العقل!!.

أما التأريخ المجرد.. أما التأريخ حين يخالف هذه القطعيّات أو يخالف شيئاً منها، فلا قيمة له عند الأحرار الناقدين.

صلح الإمام الحسن (ع):

لست أكتمكم -أيها السادة- أن التاريخ كتب بأيدٍ غير نزيهة، وغير حرة أيضاً، وقد كان التأريخ والحديث في دور أمية وبني العباس أداتين عاملتين للدعاية، وكان لهما في الناس كتاب مرتزقون.

والسياسة التي لوّنت تأريخ عليّ (ع) وهو يحارب، جديرة أن تلوّن تاريخ الحسن بن علي (ع) وهو يسالم. طبعي لهذه السياسة وقد وصلت قدمها إلى الأرض عام الجماعة أن تثبت أناملها بالأرض لتستقرّ، وأن تمهّد لبقائها كي لا تنزلزل، فكان من حركتها ومن إملائها هذا التأريخ المضطرب المشوّه.

وإلاّ فكيف يقول تاريخ صحيح: "تنازل الحسن (ع) لمعاوية عن الحكم لقاء أموال معيّنة يقبضها منه في كل عام"..

كيف يصحّ هذا في قياس؟. ولنفرض الحسن (ع) -كما يريدون- طامعاً يحبّ كثرة المال، فهل يتنازل طامع يحبّ المال عن الخلافة الإسلامية الكبرى، وعن بيوت الأموال، وخزائن الدّولة كلها، لقاء أموال محدودة يدفعها إليه معاوية بن أبي سفيان؟.

هذا لا يقبله عقل، ولا يصدّقه عاقل.

وكيف يقول تاريخ صحيح: كان الحسن بن علي (ع) يخالف أباه في العقيدة، وبيانه في الهوى، وكان يشادّه في ذلك إلى حدّ كبير، وكان علي (ع) يتبرّم بمخالفة ولده إياه إلى أمد بعيد، حتى أن معاوية في الشام كان يعلم مدى هذا التنازع بين عليّ وولده، وكان هذا هو السبب في عطفه على الحسن في حوادث الصلح؟.

كيف يصحّ هذا في منطق؟. ولنفرض أن علياً (ع) وولده الحسن (ع) رجلين كسائر الرجال يتقاربان في الرأي، ويتباعدان فيه .. لنفرض ذلك، فكيف يعهد علي إلى هذا الذي يخالفه في المبدأ، وقد كانت له مندوحة واسعة بولده الحسين (ع)، فقد كان على مبدأ أبيه بإجماع المؤرخين.. كيف يكتب هذا وذاك تأريخ صحيح، وكيف يتنزل إليه تفكير نير؟.

أتعلمون -أيها السادة- من يكتب هذه السقطات البادية العوار؟. لا أظنكم تصدّقون إذا ذكرت لكم اسمه. إنه كاتب شهير، وناقد يقول الناس: إنه حرّ .. إنه معالي الدكتور طه حسين في كتابه (علي وبنوه)^(١) فهل تعجبون؟ لقد ذهبت قداسة التاريخ عند هؤلاء الكتاب كل مذهب، فلا ينتقدون منه حتى التافه، ولا يهملون حتى الساقط.

١- يراجع كتاب (الفتنة الكبرى: علي وبنوه) للدكتور طه حسين ص ١٩٣-٢٠٢. دار المعارف بمصر

لأعد من حيث أتيت، ولأقف -مرة أخرى- عند آية التطهير وآية القربى،
ففيهما الردّ الكافي لهذه الأهواء: بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ^(١) ﴾ .
﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى، وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ
فِيهَا حُسْنًا، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ^(٢) ﴾ .

صدق الله العلي العظيم.

١_ الأحزاب: ٣٣.

٢_ الشورى: ٢٣.

فطرة الله التي فطر الناس عليها

﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا، فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ. وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ؛ دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ، ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ^(١) ﴾.

صدق الله العظيم.

عودتكم -أيها الإخوة الأعزّة- أن أتحدّث إليكم بهذه المناسبة السعيدة: ذكرى ميلاد السبط الأول، والإمام الثاني، سيد شباب أهل الجنة، الإمام أبي محمد الحسن بن علي (ع)، ومن الله -سبحانه- نَسأل أن يجعل لنا من هذه الذكريات مَدَدًا يُثَبِّت لنا إيماننا، وعصمة تزكّي لنا نفوسنا، ونوراً يضيء لنا معالم طريقنا، وقوّة تثبت منا أقدامنا، ومنهاجاً نتبعه في أعمالنا وجهادنا.

هذه الذكريات التي نجدّد فيها ولاءنا لقادتنا من أهل البيت (ع)، ونوثّق عهدنا على العمل، ونصمّم عزيمتنا على الإقتداء بهم، والتمسك بمنهاجهم، إلى آخر الشوط.

نعم، والذكريات إذا خلّت من هذا الجوهر فهي خواء.
.. عودتكم أن أتحدث إليكم -أيها الأعزاء- بهذه المناسبة الميمونة،
وقد أوحى الآيات السابقة إليّ في هذه المرّة أن أقتبس منها خطوط الحديث.

فطرة الله:

ونقطة الانطلاق: أن الآيات الكريمة جعلت الدين هو الفطرة .. هو
الخلق .. هو الطبيعة السليمة المستقيمة .. هو الجبلة الإنسانية الأولى...
الأولى التي لا تتواء فيها ولا تعقيد.
« فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا » ... فكلّ ما فيها اعتدال واستقامة،
وثبات ورسوخ.

وهذا أنصع الأدلة على أن الإسلام هو دين الله (الحق)، وأوضحها تجلية
لحقائقه و تبييناً لمعالمه .. أفريد الإنسان شاهداً أعدل من الفطرة، وأصرح
قولاً منها، وأكثر وضوحاً من دلالتها؟!.

إن واضع الدين هو جاعل الفطرة، ومن جليّ حكمته أن شدّ أحدهما
بالآخر.. فالفطرة تعترف بالدين، وتبين مرآشده، وتوضح مقاصده، والدين
يعترف بالفطرة، وينظم مطالبها وضرورتها، ويرجع بها إلى الاستقامة إذا
هي زاغت، ويجلو عنها أضرار المؤثرات والمغيّرات إذا هي صدئت.

قلت: وهذا أنصع الأدلة على أن الإسلام دين الحق، وأوضحها تجلية
لحقائقه وتبييناً لمعالمه، فالفطرة هي الدليل الذي يشترك فيه العالم والجاهل،
والفيلسوف المعقّد والبدوي البسيط، ولا يمتري في حكمها عاقل أياً كانت

درجته من الثقافة، وأياً كان حظّه من الذكاء.

والفطرة هي الركيزة التي يملكها كل واحد من الناس، وإن انخرفت بها الغايات في كثير منهم، أو رانت عليها الأهواء فحجبتها عن الإدراك الصحيح.

” فأقم وجهك للدين “.. للإسلام، للدين الحق الذي لا عوج فيه ولا اضطراب، ولا تبديل ولا تحويل ..

أقم له وجهك .. أقم به أفكارك وعقيدتك وتصوّراتك. أقم به عقلك ونفسك وروحك وقلبك ومشاعرك وأحاسيسك. أقم به علائقك وحبك وحقوقك وواجباتك. أقم به كلّ ما تتوجّه إليه في حياتك.

” .. أقم وجهك للدين حنيفاً “ اتّجه إليه في كل ناحية من نواحي نشاطك وكفاحك. مستقيماً إليه دون سواه، ولا تمل بك المبادئ والفلسفات والنظم والأديان إلى سبل أخرى لا سند لها من فطرة، ولا دعامة لها في فكرة. ” فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها “ وهذا هو الدليل المأمون المضمون الذي يعرفك ما يجب اتّباعه من المناهج، ومالا يجوز. فاستفتِ الفطرة، وانتهج السبيل، أليس الدين الحق ما واءم الفطرة، وواكب نواميس الخلق؟.

أليس اتفاق الفطرة والدين يدلّ على أنّهما من مصدر واحد؟، وأنهما ينهجان بالإنسان وبالحياة إلى غاية واحدة .. إلى الكمال الأعلى؟.

” لا تبديل لخلق الله “ إنها نواميس ثابتة، لم تبدّل ولن تبدّل، ومقتضياتها التي تنبثق عنها وتدور في ركابها ثابتة كذلك، لم تبدّل ولن

تبدل، ودين الله (تعالى) إنما شُرّع ليوجّه الإنسان إلى تلك الغاية المعيّنة، وفي ذلك السبيل المحدّد، فهو ثابت كذلك.

” ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون “، واستقامة هذا الدين آتية من مواكبته للفطرة المستقيمة..

.. ومن أنه أحد النواميس الكونية الثابتة التي وضعها ربّ الكون، فلا تبديل ولا تحويل.

” منيبين إليه، وآتقوه وأقيموا الصلاة، ولا تكونوا من المشركين. من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون “.

وهذه نماذج من إقامة الوجه للدين .. نماذج تمثل وجوهاً من نشاط الإنسان في هذه الحياة..

” أقيموا وجوهكم للدين حنيفاً، مُنيبين إليه “ منيبين إلى الله، راجعين إليه في كل صغيرة وكبيرة، وعلانية وسريرة..

.. إنه نموذج من نماذج إقامة الوجه للدين، وإنه وجه من وجوه الاستقامة مع الفطرة، لأنها تتعلّق بخالقها، وتشعر كل مخلوق أن ينب إليه.

” وآتقوه وأقيموا الصلاة، ولا تكونوا من المشركين. من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون “.

وتقوى الله (سبحانه) واستشعار الخشية منه، وإقامة الصلاة خالصة لوجهه، وتوحيده بنفي الأنداد والأضداد عنه، ومنازمة المشركين في سبيله،

وتوحيد الدين، وتوجيه الصفّ والهدف، في ظل وحدة الله (تعالى) ووحدة الفطرة وثباتها واستقامتها .. كل هذه من معاني إقامة الوجه للدين.

والفطرة وإن انحرفت بها الغايات في كثير من الناس، أو رانت عليها الأهواء فحجبته عن الإدراك الصحيح، إلاّ أنّها لاتعدم بصيصاً من النور، ترجع إليه حين يضعف تأثير تلك المؤثرات.. حين يقع الإنسان في لهوات الشدائد، فتشغله عن أي مؤثر وتأثير، وترجع الفطرة إلى طبيعتها ويكشف عن حجابها:

” وإذا مس الناس ضرّ دعوا ربّهم منيبين إليه، ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم برّبهم يُشركون “.

وإلى هذا البصيص من النور الذي يجده المنحرفون في ساعات الضرّ يُرجعهم القرآن، ليتعرّفوا دلالة الفطرة وحكمها الصريح.

حسين مني وأنا من حسين

ما هذه الحبسة التي ملكتني من يومين، وأنا أريد أن أعدّ هذا الحديث؟
ما للكلمات تموت على شفّي حتى كدتُ أن أياس، وأن ألقى اليراع؟
ثم مالي أريد أن أقول يا للبشرى، فيكتب قلبي يا للأسى، فهل أنا في
حفل مولد أم في ذكرى شهادة؟

لا أكتمكم -أيها السادة- أني بكيت قبل أن أكتب، وبكيت بعدما
كتبت، وما أدري ما هو شأني إذا وقفت لأقرأ لكم ما كتبت؟
ما هذه العاطفة العاصفة التي لاتفارق ذكر الحسين (ع) حتى عند
الابتسامة لميلاده؟

وقد قال الأثر الكريم: إن الرسول (ص) بشر في يوم ميلاده فبكى،
وأنه دخل على ابنته الصديقة (ع) ليهنئها بوليدها فبكت، وأن أهل البيت
الطاهر (ع) قد استقبلوا هذا الوليد الحبيب بالابتسامات والدموع.
.. بدموع الحزن .. نعم، وأحزان أهل البيت هي الأفراح لهم في
الصميم!!

أحزان أهل البيت (ع) هي أفراحهم الأثيرة عندهم، لأن الغايات
العظمى التي أنيطت بهم لاتتحقق إلّا بهذه الأحزان.
وكان السهم الذي ينالونه من قبل هذا الوليد هو السهم الأوفر،

ولذلك كان بمقدمه أكبر، وعلى ذلك المقياس الخاص بهم كان فرحهم بمولده أكبر.

الحسين شريك جده (ص):

أيها السادة..

يقول العلماء -وهم يفسرون كلمة الرسول (ص) المشهورة أو المتواترة: (حسين مني وأنا من حسين)..

.. يقولون: إن الكلمة تعني أن الحسين (ع) شريك جدّه في الدعوة. ومن عقائد شيعة أهل البيت: أن الأئمة الإثني عشر (ع) أجمعين شركاء لجدهم الرسول (ص) في الدعوة، فهو المؤسس لها، والقيم الأكبر عليها، وهم -من بعده- الأمناء القوامون على حفظها .. فما هذه الخاصة التي يعنها العلماء بقولتهم تلك؟

إن الجواب عن هذا -مبسّطاً- يتشعب به القول ويطول، وحسبي أن أقف على ناحية واحدة تتصل بموضوعي الذي بدأت به الحديث.

إن الإسلام دين الله العظيم الذي اصطفاه للناس، وتوجّ به الشرائع، وختم به الأديان .. إن هذا الدين منهاج إنساني متكامل، شرّعه الله لتنظيم هذه المجموعة الضخمة من الغرائز والعواطف والمشاعر والأحاسيس .. لتنظيم هذه المجموعة التي يسمونها (الإنسان).

والإنسان -كما تعلمون- موجود واحد، وركائزه النفسية المذكورة، وإن كثرت وتنوعت آثارها واختلف تأثيرها، إلا أنها متشابكة متداخلة،

ووحدهما- بعدُ- آتية من قِبَلِ القوة الحَيوية الواحدة، التي تحرّك جميع هذه القوة، والطاقة العامة الواحدة التي تمدّها، والإرادة الإنسانية الواحدة التي تصرّفها، والعقل المفكّر الواحد الذي يملك أن يتحكّم فيها.

ومن أجل هذه الوحدة بين نواحي الإنسان، وهذا التشابك بين غاياتها، وبين مجالات نشاطها، أصبحت كذلك متبادلة التأثير، فلكل واحدة منها أثر قويّ أو ضعيف في سلوك الأخرى، وفي اتجاهاتها إلى أهدافها.

والدين الذي يروم إصلاح الإنسان وتقويم أخلاقه وضمان الخير الأعلى له في حياته هذه الأولى المنقطعة وفي حياته الأخرى الدائمة، لا محيد له من أن يسع هذه النواحي كلّها تنظيمًا، ويعمّها تهذيبًا وإصلاحًا.

وكيف يبلغ غايته إذا هو لم يصنع ذلك؟

بل، وكيف يمكنه أن يُصلح بعض نواحي الإنسان دون بعض إصلاحاً حقيقياً كاملاً، بعد أن كانت لها هذه الوحدة الملحوظة، وهذا الترابط المحسوس؟

وهذه المحاولة البلهاء هي السقطة التي مُنيت بها المسيحية القائمة، لما وزّعت هذا الكائن إلى جسد وروح، ثم حاولت إعلاء الروح بإرهاق الجسد، وكبح غرائزه..

أقول: هي السقطة التي منيت بها المسيحية القائمة المخرّقة، وإلاّ فإنّ دين الله الذي أنزله على السيد المسيح (ع) أسمى من هذا التفكير.

عموم الهدى يتطلب عموم التربية:

الإسلام منهاج متكامل، شرّعه الله لتنظيم علاقات الإنسان وسلوكه،
وتهديب غرائزه وعواطفه، وإصلاح سرّه وعلايته، وأعماله وصفاته..
وبدهيّ أن الدين لا يستطيع أن يدرك هذا المدى من الإنسان، وأن يحقق
له هذه الغاية ما لم يثبّت عقائده وأسسّه في عقل الإنسان ومشاعره، وما لم
يمتزج بعواطفه وأحاسيسه، وبلحمه ودمه.

وكيف يملك أن يهدي العقل ما لم يتّصل بالعقل؟

وكيف يقوى أن يوجّه العاطفة ما لم يمتزج بالعاطفة؟

وكيف يقدر أن يهذّب الأخلاق والعادات ويصلحها إصلاحاً جذرياً

ما لم يتّصل بينايعها من النفس، ويجذورها من الطبع؟

إن الدواء - مهما احتوى تركيبه من العناصر القوية الفعّالة - لن يحقق

الشفاء حتى ينفذ إلى مكمن الداء، وإن الدّين - مهما جمع تشريعه من دقائق

الحكمة - لن يقوم طباع النفس حتى يصل إلى أعماق النفس.

والبراهين التي عضدت هذه الدعوة في كتابها الكريم، وفي حديث

رسولها العظيم (ص) تنير آفاق النفس من الإنسان، كما تضيء آفاق

العقل، فهي مدد للفكر ليقتنع، وهي مدد للقلب ليؤمن، وهي مدد للمشاعر

والعواطف، ومنافذ الشعور ومصادر الإحساس لتعترف وتتوجّه.

وبرهنة القرآن قوليّة حين تمدّ الفكر، وفعليّة تمثيلية حين تكون مدداً

للتواحي الأخرى.

ولكن العاطفة -أيها السّادة- ولكن هذا الشعور الرقيق .. ولكن
خفقة القلب الإنساني بالجمال، تبغي ما هو أقرب من ذلك وألصق .. إنها
تبغي قرباً .. تبغي امتزاجاً..

لقد تعودت عاطفة هذا الكائن أن لايشفيها إلاّ القرب، فلا بد للدعوة
أن تلج العاطفة وتمتزج بها.

فكيف السبيل؟.. وكيف الوصول؟

إلاّ بدم الفداء من وريد أبي الشهداء.

وقد قام حسين بهذا الدور من الدعوة، أفليس شريكاً لجدّه فيها؟

خلود الأيام في مقاييس الإسلام

في استقبال الوليد:

.. وابتسم الصبح لليوم الثالث من شهر شعبان عام أربعة للهجرة ..
وابتسم الإسلام يحیی القائد الرابع من قاداته الميامين، وشعت دار فاطمة
بالأنوار، واستقبل القادم الحبيب بالتكبير والتهليل.

وخفّ الرسول (ص) إلى فاطمة (ع) .. إلى مشرق النور، ليلقي على
وليده وخليفته أول نظرة، ويستقبله بأول ابتسامة، ويطبع على فمه أول قبلة
.. ثم ليضع على جبينه المشرق أول وسام .. أول دمة.

والتقت نظرتان حبيبتان سعيدتان، ليس في الدنيا أسعد منهما ولا
أغبط، ثم التقت شفاه .. وسكت دموع.

وانكفأ محمد (ص) وملء نفسه آمال، وملء قلبه أفراح وأحزان، وأعيد
حسين إلى ذراعي علي (ع)، ثم إلى حجر فاطمة (ع) ليستقبل منهما مثل ما
استقبله من جدّه الرسول (ص).

للغيب وحده تفسير كل هذه الظواهر والأحداث.

وأشرق الشمس عن يوم خالد من أيام الإسلام، برّ الإسلام فيه بكثير
من وعوده، وعقد به كثيراً من ضماناته، والأسرة العليمة المجاهدة، ووليدها
الميمون في حلم سعيد من هذه الوعود التي تُنجز، ومن هذه الضمانات التي

تعقد، وفي أسمى عميق من الثمن الذي يدفع، والفداء الذي يبذل.

الخلود في الحق:

يوم من أيام الإسلام الخالدة، وخلود الأيام - في مقاييس الإسلام - ليس مداه التأريخ ولا الزمان، ولا حسابان الحاسبين من الناس، ولا تقدير المقدّرين، ولكنه خلود في الحق من أجله قام الإسلام، وفي سبيله كانت مواقف وتضحياته، ثم على التأريخ والزمان والناس أن تسير خاضعة في الركاب.

أما تخليدها منّا - نحن المسلمين - فهو بمقدار ما نقبس منها من نور، وما نفيد من إيمان، وما نجّده للحق فيها من بيعة وولاء، وما نقدّمه - وفاء بهذه البيعة - من إخلاص وعمل.

.. ما نقبسه من هدى تلك الأيام من نور يضيء لنا سبلنا، وما نفيده من إيمان يُثبّت عقائدنا، ويجلو بصائرنا، ثم ما نجّده من بيعة للحق تصلنا به وتُخلصنا له، وتثبّت أقدامنا في الدعوة إليه، والجهاد لإعلاء كلمته.

ومهما دجت الدياجي، ومهما تلبّدت الغيوم وعصفت الأعاصير، كانت حاجتنا إلى ذلك النور أشدّ، وكان اضطرارنا إلى توثيق ذلك الإيمان الهادي، وإلى تجديد تلك البيعة الخالصة أبلغ وأوكد.

والنفوس البشرية - بطبيعتها - مفتقرة إلى هذا التعهد، وهذا التجديد. فالفكر البشري يُقبل ويُدبر، وينشط ويعي، ويستقيم وينحرف، وتعرضه العوارض وتعتاقه العوائق، وتؤثر فيه وفي عمله المؤثرات.

والوعى البشري يستيقظ ويحمد، ويقوى ويضعف، ويغفل وينسى، ويصدّ ويراوغ، والنفس تصدّها الألفة وتستغفلها العادة.

والإيمان - من جرّاء هذه المؤثرات -، - من داخل النفس ومن خارجها- يكون عرضة للضعف والزلل، بل وقد يكون عرضة للزوال.. والإيمان -ذاته- يختلف من نظرة إلى نظرة، ومن ركيزة إلى ركيزة، ومن دليل إلى دليل.

ومن أجل هذه المؤثرات تنوّعت أساليب القرآن في تقديم الهدايات إلى الناس، وتنوّعت طرائقه في تنبيههم، وفي صوغ الأدلة وعرض الشواهد على أنظارهم وأفكارهم، وتفنّنت في إيقاظ مشاعر الإنسان، وتنبيه فطرته وإثارة شتى أحاسيسه وانفعالاته، ثم تحريضه ليفكرّ واعياً يقظاً فيما يعرض عليه الكتاب الكريم من دلالة، وما يقيمه له من شهادة، وما يلفته إليه من بينة، فلا تصدّه عن التفكير الحازم الواعي ألفة أو اعتياد.

إن الحكمة القادرة القاهرة زوّدته بأدوات التفكير، وبثّت أمامه في هذا الملكوت الفسيح العظيم آيات التقدير .. فلينظر، ليفكرّ بجدّ، وليثبت إيمانه على قاعدة من الفكر وأقوى ركيزة من الفطرة .. ليفكرّ .. وليستنتج .. إن كان ممن يهّمه أمر مبدئه ومعهده.

أمّا الذين لا ينتفعون بمدركاتهم، أو الذين لا يرتفعون بإدراكهم عن حواسّهم، فقد ذكرهم الكتاب الكريم فقال:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا، أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ

بَلْ هُمْ أَضَلُّ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ^(١) ﴿١﴾.

هذه هي قيمتهم، وتلك هي غايتهم، أفلا يربأ الإنسان بنفسه أن يرتكس إلى هذا الخضيض؟
هذا أحد أساليب القرآن التي يصبك بها مسمع الإنسان ليفكر، ويتفكره.

ما موقفنا؟

قلت: إن تخليد أيام الإسلام منا - نحن المسلمين - بمقدار ما نقبس منها من نور، وما نفيد من إيمان، وما نجدده للحق من بيعة وولاء، وما نقدّمه - وفاء ببيعتنا - من إخلاص وعمل.

هذا هو مدار الخلود في مقاييس الإسلام، وهذا هو سرّ التقديس لأيامه ولعظمائه.

صلة دائمة بالحق، وفكرة عامرة برشده، وسبيل مشرق المعالم بنوره، وعمل دائم في الدعوة إليه والذود عن حياضه.. فما موقفنا نحن من هذه الشروط؟

ما موقفنا نحن، وكلّ ناحية من أمورنا تقتضينا العمل، وكل شيء مما يحيط بنا يقتضينا الانتباه، وكتاب الله بين أيدينا يأمرنا بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر؟

ما موقفنا نحن من هذه الواجبات التي يشترطها الإسلام على أتباعه؟

وما مدى استجابتنا لنداءات كتاب الإسلام وزعماء الدين وقادة الحق؟
ولا أعدد، ولا أحدد، فقد يطول بي التعداد والتحديد، ولكني أقول: إن
أمر الإسلام -أيها الإخوة- أعظم من أن يتلقّى بمثل هذا البرود.
.. ماذا أعددنا لتربية ناشئتنا وهم أمانة الله في رقابنا؟، ماذا أعددنا
لتربيتهم وحصانتهم من خطر الأوباء، وصيانتهم عن تيارات ملوثة تتقاذفهم
ذات اليمين وذات الشمال؟

.. إن الإسلام يحتم علينا أن نضمن لهم تربية إسلامية موجهة، فهل
قمنا بعمل يذكره لنا الإسلام في هذا السبيل؟
وحياتنا الحضارية التي طمت عليها المادّة، وطغت عليها الشهوة،
واحتكمت بها الأهواء والأغراض حتى فقدت كل سمة من سمات الإسلام ..
ماذا أعددنا لتوجيهها الوجهة الصحيحة، التي لا تجعلنا -على أدنى الفروض-
قوماً متناقضين؟

إن الإسلام يحتم علينا أن نلتزم منهاجه في كل خطوة، وأن نولّي
وجوهنا شطره في كل حركة، فهل عملنا شيئاً يحمدنا لنا الإسلام في هذا
السبيل؟

وقد قلت لكم -أيها الإخوة- إني لا أعدد ولا أحدد، ولكني أذكر
أمثلة من وضعنا الراهن، لنعرف مدى انطباقها على مناهج الإسلام.
آن لنا أن نعترف بأخطائنا، وأن نستعين الله (جلّت قدرته) على
إصلاحها، ثم نبدأ العمل جادّين، والله معين كل عامل، وناصر كل مصلح.
آن لنا أن ننطلق مع إسلامنا كما يريد، لنبلغ به الغاية التي نريد.

لنتفاهم، فالإصلاحات العامة لا تكون دون تفاهم. ولنتعاون، فإن الثمار الطيبة منها لا تنال دون تعاون. ولنبدل ما نستطيع بذله في هذا السبيل، فإن الغايات السامية لا تمنح بغير ثمن، ولا تدرك بغير جد.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ^(١) ﴾.

وصدق الله العلي العظيم.

المصلح المنتظر

﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ، وَتُكِنُّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَتُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾^(١).

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾^(٢).

رسالات السماء والمصلح المنتظر:

اتفقت رسالات السماء أجمع، على البشارة بالمصلح المنتظر، الذي يقيم العدل، وينسف الجور، ويطهر الأرض من فساد يغمرها، ويطبق أرجاءها، ويثقل مناكبها بما تكسب أيدي الناس.

اتفقت رسالات السماء أجمع على البشارة بهذا المصلح المنتظر، حتى ما حُرِّفَ من هذه الأديان عن وجهته الصحيحة، ولعبت به الأهواء والآراء، واتفق معها كثير من الأديان الأخرى التي وضعها ابن الأرض ونسبها افتراءً

١- القصص: ٥-٦.

٢- النور: ٥٥.

إلى وحي السماء.

اتفقت رسالات السماء على ذلك، فكلّها تُبشّر، وكلّها تنتظر، وأكثرها يصف خروج هذا المصلح العظيم، ويذكر ملامحه، ويشير إلى سيرته، وصفات الزمان الذي يخرج فيه.

وسِرُّ الاتفاق بين الأديان على هذا الأمر، والتعاقد الكامل بينها على ذكره والتأكيد عليه: أن هذا المصلح المنتظر هو أمل الأديان الذي يحقق لها غايتها، ويتمّ أشواطها ويطبّق مناهجها، ويقيم عدل الله على جديد الأرض، فلاميل ولا جور ولا عسف.

وهو أمل الإنسانية الذي تسمو به عن موارد الهون، ويأخذ بيدها إلى الخير الأعلى، ويجذّب أيدي العابثين بمقدّراتها، ويدكّ صروح المتحكّمين في شؤونها، المستهزئين بقيمها ومثلها.

أمل الإنسانية ورجاؤها الذي يشدّ قلب الضعيف، ويطامن من غلواء القوي، ويهدّب شذوذ المنحرف.

وهو أمل الحياة الذي يقوم أودها، ويوحّد أنظمتها، ويقود مسيرتها. نعم، ولولا هذا الأمل المرجوّ أن تبلغه الأديان وتبلغه الإنسانية والحياة في يوم من الأيام، لكانت الحياة نكدًا من التكدّ، وشرًّا مستطيرًا من الشر، وعبأً ثقيلاً على الأحياء، وما حياة شيء يعيش محطّم الأمل، مقطوع الرجاء، مجذوذ الغاية؟

للأديان غاية واحدة:

إن الأديان التي أنزلتها السماء كافة تهدف إلى غاية واحدة، هي إقامة العدل التام في هذه الأرض، العدل في الفرد، والعدل في المجتمع، والعدل في الأخلاق، والعدل في المعاملة، والعدل في الحكم.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^(١).

هذه الغاية التي من أجلها أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، ووضعت الشرائع والمناهج والموازين: "ليقوم الناس بالقسط".

ليقوم الناس كلهم بالعدل في كل مجالات العدل، ليقيم الفرد منهم والأمة، والرئيس والمرؤوس، والسائس والمسوس، بهذه الوظيفة ويرتفعوا إلى هذه القمة.

لهذا الأمر أنزلت الأديان، وعلى هذا تابعت، يقفو بعضها بعضاً، ويشد بعضها أزر بعض، وعلى هذا ﴿تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا، لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٢).

فالأديان -كافة- تهدف إلى هذه الغاية، وهي تمدّ أبصارها إلى مؤمل منتظر يحقق لها هذا الهدف، لأنها توقن أنها من وضع الله (عز وجل)، وتصميم حكمته، وغاية الله لا بدّ وأن تتحقق في يوم من الأيام.

١- الحديد: ٢٥.

٢- الأنعام: ١١٥.

الإنسانية فطرت على التكامل:

وإن الإنسانية قد فطرت على التسامي والتكامل في صفاتها وسماتها، وقد أعدت لذلك جميع قواها، وأهلت له جميع طاقاتها، فهي تهدف إلى الكمال الأعلى في كل ناحية من نواحيها، وهي تسير قُدماً إلى هذا الهدف ما أمكنها السير، وترتفع ما أمكنها الارتفاع.

ولكن العوائق التي نثرها الأهواء، والمزالق التي بثتها الشهوات والشبهات على طول الطريق، هي التي تصدّها عن الغاية، فهي في كفاح دائم، وصراع عنيف شديد، بين ما تقتضيه الفطرة وما تصنعه البيئة، وهي تطمح بصرها إلى مُصلح ينقذها من هذه الأسواء والأدواء.

وإن الحياة تحكمها أنظمة رتيبة تسمو بها -إذا هي أثبتت- إلى خير ما يمكن، وتوجّه كلّ شيء فيها إلى أفضل ما يستطيع، بل وإلى خير ما ينبغي أن يكون.

ولكن الحواجز التي أقامها الإنسان المنحرف في وجه هذه النظم، والسدود التي وضعها في سبيلها، هي التي أعاقت السير، وأبعدت الغاية، وفرقت المسيرة، وربما قادتها إلى درك سحيق.

فالحياة تنظر إلى أنظمتها الرتيبة، وإلى غايتها الرفيعة، وإلى انحراف هذا المخلوق الذي أشاع فيها الفوضى، وكدر الصفاء، وهي تطمح إلى المصلح الذي يزيل الحواجز، وينسف السدود، ويقود المسيرة، ويحقق للحكمة الإلهية غايتها العليا من خلق الحياة وجعل الأنظمة.

إن رسالات السماء لتؤمل وتنتظر، وإن الإنسانية لتؤمل وتنتظر، وإن الحياة لتؤمل وتنتظر، وإذا لم يكن هذا المؤمل الذي تنتظره الأديان، وتنتظره الإنسانية، وتنتظره الحياة، من خلفاء محمد (ص) رسول الإنسانية ونبى الحياة، فمن يمكن أن يكون؟

وإذا لم يكن هو البقية من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، فمن يمكن أن يكون؟
وإذا لم يكن هو البقية من أولي القربى الذين فرض الله حبّهم، وأوجب حقّهم، فمن يمكن أن يكون؟!

اتفقت الأديان على البشارة بالمصلح المؤمل، ولكن الإسلام -دين الله الخالد- أصرح الأديان قولاً في ذلك، وأكثرها بياناً وأشدّها تشبّثاً، لأن المصلح المنتظر آخر خلفائه، وختام قاداته.

وهو أكثرها قولاً وأرفعها صوتاً في ذلك، لأن الأمر يرتبط بالإمامة إحدى عقائده وأحد أسسه.

وهو أكثرها قولاً وأرفعها صوتاً في ذلك، لأن الأمر يرتبط بمستقبل أمته ومصيرها، وثباتها على الحق، ورسوخها في الإيمان.

حديث الثقلين والمصلح المنتظر:

آيها الأعزة:

يقول الرسول الكريم (ص) في حديثه المتواتر الذي لا يختلف فيه المسلمون: «إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن

تَمَسَّكُم بِمَا لَنْ تَضَلُّوا بَعْدِي أَبَدًا، وَإِنَّمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْخَوْضَ".
وهذا الحديث من إشراقات النبوة، وأنوارها الباهرة الخالدة، ما بقي
الدهر وما بقي الفكر الصحيح، وهو ينير لنا آفاقاً كثيرة في الإمامة والعصمة
والحجة الدائمة الباقية.

إن الرسول (ص) في حديثه هذا يعرفنا أنه لا بدّ لكتاب الله في كل زمان
من قرين من العترة لا يفارقه ولا ينفصل عنه، معصوم كعصمة الكتاب،
محفوظ كحفظه، مصون كصيانته، لن تضل الأمة أبداً ما إن تمسكت به،
وسارت على رشده، ولن تَمَسَّك بالكتاب إلّا إذا استمسكت بالعترة؛
لأنهما لن يفترقا أبداً في صدر ولا ورد، ولا مبدأ ولا غاية، ولا وجهه ولا
زمان، حتى يردا على الرسول الخوض.

وإذن فلا بد للكتاب في هذا الزمان من قرين من العترة، معصوم
كعصمة الكتاب، مصون كصيانته؛ لأنهما - كما يقول الرسول (ص) - لن
يفترقا حتى يردا عليه الخوض.

فإذا كان الخلفاء المعصومون من عترة الرسول (ص) اثني عشر نقيباً،
وهو الذي أثبتته البراهين التي لا تقبل الارتياب.

.. وإذا كان أمد الخليفة الحادي عشر منهم (صلوات الله عليهم) قد
انتهى في أواسط القرن الثالث للهجرة، فلا بدّ وأن يكون الخليفة الثاني عشر
موجوداً مصوناً، لا يفارق الكتاب ولا يفارقه الكتاب، كما يقول جده
الرسول الكريم.

وقد شاءت الحكمة أن لا تُظهر هذا المصلح إلا بعد أن يُكمل الإنسان خطبته، ويلمس الخطر المحدق بجميع تجاربه، وبعد أن يوقن - حق اليقين - أن تجاربه ومحاولاته لا تثمر له إلا خسارةً ودماراً.

هنالك ينبثق النور، وتنجلي الظلمة، ويبدو الحق، ويزهق الباطل.

﴿وَيُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ، وَتُكَنِّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾^(١).

صدق الله العظيم .

حركات العلويين في التاريخ^(١)

لم أجد كالسياسة معنى مطّته الأهواء، ولوّنته الأوهام، وتلقّفته المشتبهات.

ولم أجد كالسياسة معنى ترفع الإنسان في تفسيره ثم أسفّ في تحويره.. مطّته الأهواء فطال ثم طال، واتّسع ثم اتّسع، وانداحت حدوده، وتباعدت أشكاله، وتباينت سماته وغاياته، حتى عمّ الجد والهزل، وشمل الصواب والخطأ.

فعدّل الراعي في الرعية نحوّ أصيل من أنحاء السياسة، وظلم المستبدّ في الأمة لون خالص من ألوانها.

وتقلّب الحاكم في إقامة الحق، وإشادة الباطل غطّ صحيح من أنماطها، وضعفه عن اتّخاذ أي خطة نهج صريح من مناهجها.

وحقّ رياء المرائي، ونفاق المنافق، وخداع المخادع، وتلوّن ذي الوجوه، وتقلّب ذي المطامع..

كلّ هذه من فنون السياسة كذلك.. بل هي الفنون الصحيحة فيها!!
أرايت أولئك الذين ينتقدون سياسة علي (ع) لما باغت معاوية

١- مقدمة لكتاب (الحسنون في التاريخ) لمؤلفه فضيلة الشيخ محمد الساعدي .

بالعزل.. وسياسته الثانية حيث لم يعنت مناوئيه في المدينة، ولا معارضيه في الكوفة، وسياسات له أخرى تكمل له هذا الشوط، وتنظم في هذا السلك؟؟ إنها مأخذ ناجمة عن الفهم الملتوي لمعنى السياسة، وعن الترهّل العجيب الواقع في حدودها.

مفهوم السياسة في الإسلام:

السياسة تدبير شؤون المملكة، وتنظيم أمور الرعية.. والتدبير لا بد له من الخطط المحكمة، والتنظيم لا بد له من المناهج الرشيدة، عنها ينتهل السائس، وإليها يستند، ولآثارها يقتفي. لا بد من الخطط، ولا بد من المناهج، ولا بد وأن تكون الخطط والمناهج مشتقة من الدستور الأساسي للدولة.. قائمة على الأصول المقررة فيه، متفقة مع الروح التي أوجدته، أو التي يراد إيجادها بسببه. .. أما أتباع الهوى، والاندفاع إلى المشتبهات، والافتتان في وجوه الحيلة لكسب هذه المطامع بأي سبيل اتفق، وبأي وسيلة حصلت.. أما هذا فهو سجيّة بهيمية خالصة، وإن استطاع ذلك الإنسان أن يُلبس على البسطاء: أنه تدبير صالح، وأنها خطة رشيدة، بل وإن استطاع أن يوهم نفسه بذلك.

وللحكم في الإسلام أنظمة تحمل طابع الدين، وتّسم بكل سماته، وتتصل بعامة رسومه وتخومه.

وللدولة في الإسلام دستور أساسي خاص، ترتبط به سياستها، وتشقّ منه خططها ومناهجها..

والسياسة الصحيحة التي يقرّها الإسلام، ويوجب الخضوع لها، هي هذا النوع الذي يقوم على أصوله وينطبع بروحه..

والإسلام لا يأتي بشيء جديد في هذا المجال، فهذا هو الحد الواقعي لسياسة أي دولة تقوم على مبدأ، وتنهض على دستور.

والسائس المسلم لا مَعْدِل له عن هذه الخطة، إذا أراد أن ينتهج سياسةً يعترف بها دين الإسلام، وإذا أراد أن ينفّذ أحكامه باسم الإسلام.

سمات الحاكم الأعلى في الإسلام:

ومن جهة ثانية..

فإن القِيَم على الحكم في هذا الدين قِيَم على جميع أحكامه كذلك، يمهّد لتعميمها على الأفراد، ويرعى تنفيذها في الأمة، ويدأب في صيانتها من التحريف، ويمكن لاحترامها في النفوس، ولانطباع آثارها في القلوب.

ذلك أن الإسلام موحدّ النظرة، موحدّ الأحكام، موحدّ الغاية، لم يفصل ناحية عن ناحية، ولم يفرد تشريعاً عن تشريع، فكل تشريعاته لإقامة العدل، وكل أنظمتها لصون الحق.. العدل التام في صياغة الفرد وفي بناء المجتمع، وفي الحكومة والرعية، وفي الرؤساء والمرؤوسين.. والحق الصريح في كل اتجاهات الإنسان، وفي كل غاياته.

من أجل هذا كان الرسول (ص) هو الرئيس الأعلى للحكومة المسلمة في عهد الرسول (ص).

ومن أجل هذا وجب أن يخلف الرسول (ص) على الحكم من يمثله

حقّ المماثلة..

من يمثّله -حق المماثلة- في العصمة لأنه قيّم الله (تعالى) على العدل
السام، ويمثّله في العلم لأنه نائبه في حفظ الشريعة، ويمثّله في صفات أخرى
يتوقّف عليها تحقيق هذه الغاية.

هذه طبيعة الحكم في الإسلام، وهذه سمات الحاكم الأعلى الذي يعترف
به؛ وإذن فكيف يؤمل من هذا الحاكم أن يتسامح في واجب من واجبات
الدين، أو في محظور من محظوراته؟

وكيف يؤمل منه أن يميل به هوى، أو يخفّ به ميزان؟..

بلى، قد تجمع ظروف، وتنشز أحوال تضطرّ السائس أن يختار أخفّ
الضررين، أو يرجح أهمّ الواجبين، وهذه قواعد ثابتة وضعها العقل وأمضاها
الشرع لتنسيق هذه الحوادث.

هذه خطة الإسلام في الحكم..

.. تمهيد للعدل العام من ينبوعه في نفس الفرد، وبسط لفكرته المطلقة
على أعمال المرء وعلى كل أخلاقه، وتنفيذ لمنهجها الشامل في كل شؤون
المجتمع وفي كل علائقه.

الإسلام ونشر الحق:

وللإسلام ولوع شديد في نشر الحق وإقامة العدل..

يحتّم ذلك كون الإسلام دين الله اصطفاها للناس كافة، وإن ﴿مَنْ يَتَّبِعْ

غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ^(١) ﴿

ومن آثار هذا الولوع: مبدأ إرشاد الجاهل الذي شرّع وجوبه في الإسلام، وقانون نصره المظلوم، ونظام الأمر بالمعروف، وقاعدة النهي عن المنكر.. ثم هذه الولاية المتبادلة بين آحاد المؤمنين على إقامة هذه الأصول، والتواصي فيما بينهم بالحق، والتواصي بالصبر:

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ^(٢) ﴾.

وإلى هذه الأصول يردّ كثير من حركات العلويين في تأريخ الإسلام. ولا أدعي أنها مردّ جميع هذه الحركات؛ فإنّ ذلك غلو لا مبرّر له، بل وشطط لا مستند له.

نعم، إليها يردّ كثير من حركات هؤلاء، بل وكثير من الحركات الأخرى التي وقعت في تأريخ الإسلام.

وحرّف منهاج الإسلام ؟

حرّف المنهاج الذي خطّه الإسلام للأمة في شأن الرّعاية الكبرى، وركبت الأمة رؤوسها في هذا المجال، وهذا شيء لا يختلف فيه أحد من المسلمين.

١- آل عمران: ٨٥.

٢- التوبة: ٧١.

إنهم لا يختلفون أبداً في وقوع هذا التحريف، ولكنهم يختلفون في التاريخ الذي وقع فيه.

.. حرّف المنهاج الذي خطّه الإسلام للأمة في شأن الزعامة الكبرى، وركبت الأمة رؤوسها في هذا المجال، فكان من المنتظر أن يسري التحريف وأن يتسع، وكان من المنتظر -بعد ذلك- أن تُصبح الزعامة للقوة لا للحق، وللخدعة لا للعدل، وكان من المنتظر أن تنال الأمة جزاء هذا التعدي..

﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ (١)﴾.

بلى، كان من المتوقع جداً أن يستبدّ هؤلاء الزعماء المستخلفون بالقوة، أو المترسّون بالخدعة، وأن يستأثروا بحقوق الأمة، وأن يَفْشَوْا التعدي وينتشر..

وكان من المتوقع كذلك أن تكمّ الأفواه التي تحاول أن تنطق بالعدل، وأن تشلّ الأيدي التي تحاول أن تعمل للعدل، وأن يكون السيف لجام من يتنكر أو ينتقد..

وكان من المتوقع أن يتربّصَ ناقدون، وأن يثور ثائرون.
كل هذه نتائج محتومة لتلك البوادر..

وسار الأئمة المعصومون (ع) والحكمة في معالجة هذه الأحداث، فقاموا حين يحسن القيام، وسالموا حين يحمد السلم، وعملوا للمهمة التي

ناطها الله (تعالى) بهم بالجهد المستطاع، على شدة الرقابة عليهم، وتفاقم الظلم المحيط بهم.

ونفض في الأمة مصلحون من أهل البيت، ومصلحون من غيرهم باسم الدفاع عن الحق، وباسم النهي عن المنكر، وبأسماء أخرى يعترف بها الدين، ولغايات ليس ينكرها.

ونفض آخرون بمثل هذه الأسماء لغير هذه الغايات..

وكثر الشائرون، وأحالت الدماء تلك النصاعة في تأريخ الإسلام، وكدرت منه ذلك الصفاء، وأبدل العدل الذي وضع الله (تعالى) أركانه، ورفع الرسول (ص) قواعده.. ظلماً طاغياً من الرعاية!!..
.. وحقداً ثائراً من الرعية!!..

الاجتهاد في الأحكام^(١)

من مآثر دين الإسلام أنه شرّع للإنسان حقّ الاجتهاد في الأحكام، وليس لهذا الدين الحنيف ضريب بهذه المأثرة، وهي إحدى ممكّناته من مساورة الحياة، وإحدى مؤهلاته للخلود. نعم، وما أكثر المآثر التي تميّز دين الله وتوجب له التقدم، وثُبت أنه -بحق- دين الحياة ودين الخلود.

والنصوص الإسلامية التي تحوّل الإنسان هذا الحق كثيرة وفيرة. وهو -بعد- ليس موضع ريبة عند أحد من المسلمين، ولا مظنة للخلاف فيما بينهم، ولا موقعا للموازنة والترجيح، وإعمال الفكر واستعمال الأقيسة.. ليس موضعاً لشيء من ذلك ليقول قائل: إنه إثبات للاجتهاد بالاجتهاد..

.. ولكنه الحق الذي لا جدال فيه من أحد، واليقين الذي لا مرأ فيه من أحد، والتسالم الذي لا خلاف فيه من أحد.

ومن شواهد ذلك؛ هذه الوفرة الكبيرة من المجتهدين في كل فرقة من فرق المسلمين، على تنوّع مسالكهم في الاجتهاد، وعلى تقاربهم أو تباعدهم في مبادئه، واجتماعهم أو اختلافهم في نتائجه.

وإنها لكرامة ومنزلة ليس وراءها مطمح، أن يخوّل الله عباده حق النظر في أحكامه، والتراجيح بين أدلتها، والغوص في أغوارها، والفقّه

١- كتبت مقدمة لكتاب (الناظرات) للعلامة الحجة المغفور له الشيخ علي الخبيزي الخطي (طاب ثراه).

لأسرارها، ثم هو يزيدهم -من لدنه- كرامة ومنزلة، فيضاعف المثوبة لمن أصاب، ويتفضل بأجر الصواب على من أخطأ.

الاجتهاد ضرورة إنسانية عامة:

والإسلام -في اتجاهه هذا- إنما يغذي ضرورة من ضرورات الإنسان الفرد، وضرورة من ضرورات المجتمع، وضرورة من ضرورات الحياة. يغذي ضرورة في الإنسان الفرد؛ فإن الحكمة المبدعة القديرة، قد زوّدت هذا الكائن بغريزة (العلم) أو غريزة (الاستطلاع) -كما يسميها علماء علم النفس الحديث-، وهذه الغريزة هي التي تُهيب بالمرء -منذ أيام طفولته- أن يستقصي عن أي شيء يجده، وأن ينقب عن كل قولٍ يسمعه، وأن يبحث عن الظواهر والصفات والخصائص والعلل في الأشياء ما وجد إلى البحث سبيلاً، وهي من أحقّ غرائز الإنسان بالتلبية، وأجدرها بالعناية، وأحرأها بالتوجيه.

فهي من مقومات إثنية الإنسان، وبانيات حياته وسلوكه، ومؤسسات حضارته ومدنيّته. ونجاح المرء في حياته الأولى، وفوزه في نشأته الأخرى يتوقفان -إلى حدٍّ بعيد- على حسن توجيه هذه الغريزة، وطيب الإفادة منها.

وقد عُني الإسلام بأمرها أشدّ العناية، وربط أصوله وفروعه بها أوثق الربط، وحرّض الإنسان على الاهتمام بها أبلغ التحريض. وقرأ آيات الكتاب العزيز لتعلم أي مبلغ بلغه دين الله في هذا المضمار.

ستجد أن القرآن لا يخطو خطوة، ولا يُلقي إنذاراً، ولا يبلغ هداية، ولا

يُوضح عقيدة، ولا يُشرّع حكماً، ولا يبيّن عِظَةً، ولا يعالج مشكلة، ولا يقيم بُرْهاناً، ولا يكشف شبهة، ولا يقصّ حديثاً، إلّا وهو يحرص -أشدّ الحرص- أن يكون الإنسان معه، بسمعه وبصره، وقلبه وعقله، وجميع مداركه ومنافذ شعوره .. أن يكون الإنسان كذلك معه، يخلّق حيث خلّق، ويسمو حيث سما، ويتنقّل حيث تنقّل .. يُصغي إلى نُذره، ويقف على مراميه، وينفذ إلى غاياته، ويستبطن حُججه، ويستوضح إشارته، ويتتبع مواضع الحكمة في كل ذلك، ويتبيّن مواقع العبرة فيه، والإفادة منه.

فأي شوطٍ أبعد من هذا الشوط، وأي غاية وراء هذه الغاية؟ وحديث العقيدة الإلهية، وربطها بالنظر في عجائب الكون، وتقليب البصر في مظاهرها العظيمة وقوانينها الحكيمة .. هذا الحديث الذي تضمنته مئات الآيات من كتاب الله العزيز .. ماذا يعني، وماذا يستهدف؟ إنه يروم - أولاً- ربط هذه العقيدة العظيمة بأدلة محسوسة ملموسة لامية فيها، ولاخفاء في دلالتها.

ويروم -ثانياً- أن يُلفت الإنسان، ويشحذ فكرته، ويوجّه طاقته، ويوقفه على كنوز الطبيعة، ويضع بين يديه مفاتيح العلم.

وحين انتهى الدور إلى الشريعة .. إلى قانون الله الذي شرّعه للإنسان ليصل -باتباعه- إلى كماله الأعلى ..

أقول: وحين انتهى الدور إلى الشريعة، فهل أهملت تلك الغريزة من الإنسان: (غريزة العلم)؟

وهل حثّم عليه أن يخضع، وأن ينقاد -دون تفكير ودون ترجيح-

للقوانين التي شرّعت له، كما يخضع الحيوان والنبات للقوانين الطبيعية التي وُضعت له سواء بسواء؟

إنّ عناية الله بهذا المخلوق قد رفعت عن هذه الحطة.

وشريعة الله لا يمكن أن يكون له في تشريعها شريك ولا مُعين؛ ذلك أنّ تحديد الحدود للإنسان ووضع المنهج لسلوكه، نوع من مطلق التدبير والتربية، فلا قول فيه لغير الله ربّ العالمين، ولا تكون للإنسان في أحكام الله خيرة برفع ولا وضع.

غير أنه وإن لم تكن لهذا المخلوق خيرة في التشريع، فقد جعل الله له حقّاً في الفهم، وحقّاً في البحث عن أحكام الله (تعالى) في مصادرها الصحيحة، وحقّاً في إقامة الشواهد عليها، وإزالة اللبس عنها. وهذه غاية ما يتصوّر للإنسان من حقوق في هذا المجال.

وقد قلت -فيما تقدم- إنّ الله (سبحانه) قد اختصّ عبّيده الناظرين في شريعته بمزيد من فضله؛ فضاعف المثوبة لمن أصاب، وتفضّل بأجر الصواب على من أخطأ.

ومن الحقّ أنْ أبادر فأقول:

إنّ هذا الحقّ الذي منحه الله لعباده، وهذه الكرامة التي اختصّ بها من اجتهد منهم، إنما تعني أن يأتوا الشريعة من أبوابها، وأن يأخذوا أحكام الله من مصادرها..

.. من الأبواب التي فتحتها الله للناس لمعرفة أحكامه، ومن المصادر التي أعدّها لبيان حلاله وحرامه..

.. من كتاب الله الخالد المعصوم الذي تأذن الله بحفظه وتكفل برعايته،
ووعده بإتمام نوره، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.
ومن السنّة الصحيحة المطهّرة التي روّها الثّقاة، وجمعتها الحفظة،
ومَحَصَّتها النقّدة، ووقف على رجالها العلماء الأثبات.
ومن المصادر الشرعية الأخرى التي ترجع إلى هذين، وتستند إليهما،
ومن القواعد اليقينيّة التي لا يرتاب أحد في ثبوتها، ولا يمتري عاقل في الركون
إليها.

أمّا الاجتهاد الذي يميل صاحبه مع الأهواء، أو يتّبع فيه الأوهام، فليس
من حقّ الإنسان -أبداً- أن يُدخله في دين الله، ويُعمله في أحكامه.

الاستغاثة بالغائبين والموتى:

والاستغاثة بالغائبين والموتى مسألة كُثِرَ فيها الجدل بين المسلمين، وبالغ
بعضهم في المنع منها، فأفتى بكفر من استغاث بميت أو غائب، ورأى أن
الاستغاثة بهما تُناقض عقيدة التوحيد.

والتوحيد أصل الأصول في الإسلام، وهو ضارب الجذور، نافذ الأشعة
في سريرة المسلم وعلايته، وصفاته وأعماله، ولا يسوغ للمسلم -أبداً- أن
يخاطر بتوحيده، أو يرتكب ما يناقضه، أو يميل إلى ما يخالفه. وهو إذ يفعل
شيئاً من ذلك فإنما يخاطر بإسلامه..

نعم، ولاريب في هذا ولكن ما نتيجه هنا؟

فهل الاستغاثة عبادة ليكون المستغيث بالميت أو بالغائب مُشركاً؟

لقد أجمع المسلمون كافة على إباحة الاستغاثة بالحيّ الحاضر .. وقد كانت الصحابة يستغيث بعضهم ببعض، فما معنى ذلك ؟
هل معنى ذلك أن المسلمين أباحوا نوعاً من الشُّرك، وهم المتشدّدون في التوحيد، المدافعون عن حدوده؟!

أم أن الاستغاثة نوعان: نوع يوجب الشرك، ونوع لا يوجبهُ؟ واللغة والعرف العام يدلّان على أنّها معنى واحد لا اختلاف فيه ولا تعدّد .
وإذن فالاستغاثة في نفسها ليست عبادة لتتمحض لله وحده .

وعلى أدنى تقدير، فإن الأمر فيها ليس واضحاً تمام الوضوح، وكونها عبادة لا يزال موضعاً للخلاف ومجالاً للاجتهاد، وأقرب المحامل الصحيحة لمن يستغيثون بالغائبين والموتى أنهم مجتهدون؛ فهم معذورون، بل مأجورون .
وكيف يسوغ تكفير مسلم من أجل عملٍ يمكن أن يكون له وجه صحيح؟

وهذه العقيدة المكيّنة الرصينة التي يعتزّ بها المسلم، ويوقن أنّها قوامُ دينه، وملاك نجاته، وسبب فوزه وسعادته، والتي يجاهد دونها بنفسه وماله، ويضحّي في سبيل إعلائها بدمه وما ملكت يمينه ..

هذه العقيدة الغالية التي تكاد أن تمتزج بلحم المسلم ودمه، وتملأ مشاعره وعواطفه، كيف يتصوّر أن ينخلع عنها، أو يأتي بما يناقضها، أو يوقع غبار الريبة عليها، وهو مختار شاعر؟

بلى، قد يأتي شيئاً من ذلك وهو ناسٍ أو مخطئ أو غافل، وذلك لا يوجب كفراً، بل ولا يوجب فسقاً، وعلى ذلك إجماع المسلمين .

وقد يأتي شيئاً من ذلك وهو يوقن أنه لا ينافي العقيدة، بل لو علم أو ظن أنه ينافيها، أو يلقي ظلاً من الرّيب لتركه، وتبرأ إلى الله (تعالى) من فعله، فكيف يحكم بالشرك أو بالكفر من أجل ذلك العمل؟ وكيف إذا كان ذلك العمل موضعاً للخلاف بين المسلمين؟ وكيف إذا كانت مخالفة ذلك المسلم فيه عن اجتهاد أو تقليد صحيحين؟

العبادة عمل قصدي:

والعبادة، أليست من الحقائق التي تثبت بالقصد، ولا تثبت بدونه؟ إن القارئ قد يتلو السورة من القرآن لتجربة صوته، أو إسماع لحنه، فلا تكون تلاوته عبادة، بل قد توجب له عند الله - سبحانه - مقتاً وبعداً، وقد يتلوها ليتقرب بها إلى الله؛ فتكون له عبادة توجب القرب وتحطّ الذنوب. وتالي الدعاء قد يريد به قراءة قطعة فنية توجب المتعة، وتنشط الذوق، فلا يكون عبادة، وقد يقصد به ضراعة العبد المحتاج لربه الغنيّ القادر فيكون عبادة وزلفى..

والطائف حول البيت، المستلم لأركانه قد يقصد - بعمله هذا - حركة رياضية خالصة يمرّن بها أعضائه، وينشط عضلاته؛ فلا يكون عابداً، وقد يقصد أداء الفريضة أو السنّة التي أمره الله بها؛ فيكون عابداً وممثلاً. وهكذا في كلّ عمل يحبّه الله ويأمر به.

وواضح أن المسلم حين يستغيث بالأولياء المقبورين، وحين يضرع لهم،

لا يقصد بصنعه ذلك العبادة للوليّ المقبور.

بلى، هنا من الأعمال ما يعدّ -بذاته- عبادة وإن لم يقصد به التعبّد، والعلماء يسمّون هذا الصنف من الأعمال: "العبادة الذاتية"، ويمثلون له بالسجود والركوع، فإنّ العرف العام يراها من العبادة وإن لم يقصدها فاعلها.

وواضح -أيضاً- أن الاستغاثة والضراعة ليستا من هذا القبيل، ولو كانتا من العبادة الذاتية لوجب المنع عنهما حتى للأحياء، وهما جائزتان للحَيّ الحاضر بالإجماع.

ظلال عقيدة التوحيد:

التوحيد أصل الأصول في الإسلام، وهو -كما قلت- ضارب الجذور نافذ الإشعاع، في سريرة المسلم وعلايته، وصفاته وأعماله. وواجب المسلم أن يسير مع هذه العقيدة الكبرى، يُحقّق ما أحقّت، ويُطل ما أبطلت .. وقد قلت في الحديث عن التوحيد من كتاب (الإسلام):

(إن الإسلام بشرائعه ومعارفه، وهداياته وآدابه، ومفصّلات نظمه ومبسّطات مناهجه، يتجمّع وينطوي، وتتداخل حدوده وتندمج تعاليمه، حتى تكون وحدة لاتعدد فيها من وجه، هي عقيدة التوحيد التي يدين بها المسلم لبارئه، ويخضع من أجلها لقوله.

(فالإسلام هو التوحيد مجلّوّ القسمات، مبين الظلال والسّمات.

(والتوحيد هو الإسلام مجملّ التفاصيل، مطويّ الحدود، متجمّع

الطاقة.

(وهذه هي الحقيقة الرائعة التي قرّرها داعية الإسلام الأول (ص) لما قال كلمته الأولى: ” قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا “.. لما ضمن للناس الفلاح إذا هم قالوا هذه الكلمة، وآمنوا بهذه العقيدة ^(١)).

نعم، وهذه حقيقة لا يرتاب فيها من عرف الإسلام، وسبر أغواره، واستبان أثر التوحيد في بناء تشريعه.

ولكن، ما معنى ذلك؟

هل يكون معنى ذلك أن تنقلب فروع هذا الدين وآدابه أصولاً وعقائد، يحكم على من خالف في بعضها بالشرك أو بالكفر؟!

هذه نتيجة تخالفها الضرورة من دين الإسلام، ولا يمكن أن تنسب إلى واحدٍ من الأعلام.

إن عقيدة التوحيد تمدّ المسلم في كلّ موقف، وفي كلّ مصدر ومورد، بما تقتضيه الإنسانية الكاملة والحياة الرفيعة الطيبة التي ابتغها ربّ العالمين.

ومعنى هذا أنّها توجّهه للأمر المندوب كما توجّهه للأمر الواجب، وأنّها قد تنزّهه عن الفعل المكروه كما تنهاه عن المحرم، ولذلك كانت الشريعة في الإسلام انعكاساً كاملاً لعقيدة التوحيد فيه.

فهذه العقيدة -مثلاً- تدعو المسلم أن تكون صلته بالله وحده، فهو بارئ خلقه ومالك رزقه.

ولكن ليس معنى ذلك أن يقطع المسلم كل صلة له بالكون، فيعيش كالغريب الذي لأنيس له.

بل معناه أن ينشئ كل صلة له في الكون تحت ظلال صلته الكبرى بخالق الكون، فلا يقطع ما أمر الله به أن يوصل، ولا يصل ما أمر الله به أن يقطع. وهي - كذلك - تأمره أن يخصّ أمله بالله، فهو وحده مقدّر الأمور ومالك أزمّتها، ومسبّب أسبابها.

وليس معنى ذلك - أيضاً - أن يعيش مقطوع الأمل، مبتوت الرجاء من كلّ جهة.

بل معناه أن ينيط كلّ هذه الآمال الكثيرة بأمله الواحد الأعظم. وهكذا في كل صوب، وفي كلّ اتجاه، فلا يضرع المسلم إلّا لله، ولا يخاف غيره، ولا يحبّ سواه، ولا يتّجه بمشاعره إلى أحد من المخلوقين، إلّا حيث تكون ظلاً تابعاً للمشاعر الكبرى التي تعقده بخالقه.

هذه هي الخطة العليا التي ترسمها عقيدة التوحيد للمسلم الحق. ولكن واقع الناس؟..

ولكن الضعف الطبيعي الذي يقعد بأكثر الناس عن بلوغ تلك المرتبة؟.. ولكن الروابط المادّية التي تثقل الإنسان وتمنعه عن التحليق؟.. لا بد وأن يحسب دين الله العظيم لهذه الأمور حسابها، وينظر لها نظرهما. لا بد وأن يقدر الواقع حقّ قدره، فيكلّف الناس ما يستطيعون، ويترك هذه المراتب العظيمة لمن يستطيع إليها سبيلاً.

محتويات الكتاب

٧	٠ - المقدمة
٩	١ - بين يدي الكتاب
١١	٢ - عقيدة المعاد
١١	حتمية السؤال عن المبدأ والنهاية
١٣	دليل الفطرة
١٦	دليل السببية
١٨	من الذي أوجد الله؟
١٩	والنهاية..؟
٢٠	ضرورة الدين
٢٢	الحاجة إلى اليوم الآخر
٢٣	من أدلة المعاد في القرآن
٢٦	مواقف بلهاء ومعاندة
٢٧	القرآن والتذكير بيوم الجزاء
٣١	٣ - مشكلة الكون
٣١	الفكرة السوفسطائية
٣٣	مع قانون السببية
٣٥	مع الفطرة
٣٧	مبدأ الغرضية

- مع النظرية المادية..... ٣٩
- مع اللاأدريين..... ٤٢
- النظرية الإسلامية..... ٤٤

في العدل الإلهي

- ٤ - آيات الهدى والضلال..... ٤٧
- إله الكون منزّه عن النقائص..... ٤٨
- العدل الإلهي..... ٥٠
- من مجالي عقيدة العدل..... ٥٢
- من توابع عقيدة العدل..... ٥٣
- تنزيه الله عن الجبر..... ٥٥
- من أدلة القائلين بالجبر..... ٥٧
- آيات الهدى والضلال..... ٥٨
- والتفويض..... ٦٠
- الأمر بين الأمرين..... ٦١
- ٥ - مجالي العدل الإلهي..... ٦٣
- إنها السعادة أو الشقاوة..... ٦٤
- حديث مع مهندس كبير..... ٦٦
- العدل الإلهي في مجالي التكوين والتشريع..... ٦٧
- العدل في التكوين..... ٦٨
- والعدل في التشريع..... ٦٩

٧٠	العدل الإسلامي في الحكم
----	-------------------------------

حول عقيدة الإمامة

٧٣	٦ - <u>الإمامة والعصمة</u>
٧٣	الإمامة والعصمة في الإسلام
٧٤	الإمامة في مجالها اللغوي
٧٥	الإمامة في المصطلح الإسلامي
٧٦	دور الإمامة في الإسلام
٧٩	ضرورة العلم والعصمة في الإمام
٨١	مصدر العلم والعصمة في الإمام
٨٤	معنى العصمة
٨٧	لأجبر في العصمة
٨٨	الاعتقاد بالإمامة والأئمة
٩٣	٧ - <u>دعونا يا أدعياء</u>

في المجتمع والأخلاق

١٠١	٨ - <u>المجتمع في الإسلام</u>
١٠١	الإنسان وما وراء المادة
١٠٣	الفلسفة الوضعية في الميزان
١٠٥	الإنسان والمادة
١٠٧	الإسلام والإنسان

- الإسلام وركائز الاجتماع الإنساني ١٠٨
- الاجتماع ركيزة الوجود ١٠٩
- الأخوة المؤمنة ١١١
- التضامن الاجتماعي في الاسلام ١١٢
- ٩- الأخلاق في الإسلام** ١١٧
- الجمال سمة عامة في المخلوقات ١١٨
- الأخلاق ١٢٠
- الاستقامة ١٢١
- تربية الضمير ١٢٤
- رقابة الله (تعالى) ١٢٦
- من آداب الإسلام ١٢٨
- ١٠- الخطوط العريضة في الإسلام** ١٣٣
- المجالى الإسلامية العامة ١٣٤
- الاتجاهات الطبيعية للإسلام في بناء الفرد ١٣٦
- اتجاهات الإسلام في بناء صلات الفرد بما حوله ١٣٨
- الاصول الكبرى لمناهج الإسلام ١٤١

العبادة والدعوة إلى الله

- ١١- العبادة في الإسلام** ١٤٥
- ركيزة العبادة في الإسلام ١٤٥
- العبادة وسيلة تربوية ١٤٨

١٤٩	محور العبادة في الإسلام
١٥٠	مناهج الإسلام كلها عبادة
١٥١	الوضوء
١٥٣	أما الصلاة
١٥٧	<u>١٢ - الطهارة والتوبة</u>
١٥٨	الإسلام والإنسان
١٦٠	إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين
١٦٢	الصلاة والصيام
١٦٤	الصيام وعلم الأخلاق
١٦٧	<u>١٣ - ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله</u>
١٦٨	درس بليغ في الدعوة إلى الله
١٦٩	المبدأ والغاية والحدود
١٧٠	داعية الله والعقبات
١٧٢	الاعتصام بالله وحده
١٧٣	مشكلة اليوم

في رحاب القرآن

١٧٥	<u>١٤ - ذكرى القرآن</u>
١٧٥	صلة المسلم بربه
١٧٦	تجديد لوثيقة العهد القديم
١٧٧	الهداية للتي هي أقوم

- ١٧٨ بيعة المسلم لله.
- ١٧٩ غناء الإنسان في حاجته إلى نظام الحياة.
- ١٨٠ ليلة القدر.
- ١٨٣ ١٥ - ذكرى ليلة القدر.
- ١٨٣ ذكرى القرآن والإسلام.
- ١٨٦ نور وكتاب مبين.
- ١٨٧ إعجاز القرآن.
- ١٨٩ نحن وذكرى ليلة القدر.
- ١٩١ ١٦ - القرآن والترجمة.
- ١٩١ من الله نور وكتاب مبين.
- ١٩٢ سبل السلام.
- ١٩٤ بخرجهم من الظلمات إلى النور.
- ١٩٥ المعجزة الخالدة.
- ١٩٦ الآراء في ترجمة القرآن.
- ١٩٩ ١٧ - القرآن والعلم والإيمان.
- ٢٠٠ هل العلم ملحد؟
- ٢٠٣ أزلية المادة.
- ٢٠٤ المناخ ينبع من آيات التكوين.

في ظلال الرسول ﷺ

- ٢٠٧ ١٨ - نحن وذكرى الرسول ﷺ.

كلمة عاتبة	٢٠٧
لنحاسب أنفسنا	٢٠٨
فاعلية العقيدة	٢١٠
اتباعنا لمنهج محمد ﷺ	٢١٠
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٢١٢
القيام بالقسط	٢١٣
الأخوة المؤمنة	٢١٥
الخلق الإسلامي	٢١٦
١٩ - في ذكرى الرسول العظيم	٢١٩
من أحق بالتخليد من ذكراك؟	٢١٩
الذكرى القرنية للرسالة والقرآن	٢٢١
حسب محمد ﷺ عظمة	٢٢٢
٢٠ - ماذا يدركون من عظمة محمد ﷺ	٢٢٧
الإنسان أعجز من أن يصف محمد ﷺ	٢٢٧
القرآن يصف محمد ﷺ إنساناً	٢٢٨
ويصفه رسولاً	٢٣٠
٢١ - البعد التكويني لبغثة الرسول محمد ﷺ	٢٣٣
مجرى الحكمة الإلهية في المخلوقات	٢٣٣
الحكمة في الخلق الإنساني	٢٣٥
الهدى الإلهي والإنسان	٢٣٦
الإنسان وهدى محمد ﷺ	٢٣٧

- ٢٢ - المثل الأعلى للإنسانية ٢٤١
- ليتوج محمد مليكاً للأنبياء ٢٤٢
- نسرم مع القرآن في طريق الحياة ٢٤٣

مع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام

- ٢٣ - المسلم الأول ٢٤٥
- وليد الكعبة ٢٤٥
- واستقبل محمد علياً ٢٤٧
- المسلم الأول ٢٤٨
- ماذا قبسنا من الهدى الإلهي؟ ٢٥٠
- ٢٤ - المسلم الأول ٢ ٢٥٣
- ٢٥ - لبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً ٢٥٩
- أصحاب الرسالات الحية لا يموتون ٢٥٩
- العلم والعقل مؤمنان لامحالة ٢٦٠
- ما أروع الذكرى تقام في الأفئدة ٢٦١
- قيمة المسلم في سوق الحقائق ٢٦٢
- ٢٦ - في بيعة الغدير ٢٦٥
- موقف الغدير ٢٦٥
- لاغموض في الموقف ٢٦٨
- القرآن ومواقف الرسول ﷺ في النص على علي عليه السلام ٢٦٨
- نص الغدير وموقف البعض منه ٢٧٠

في رحاب الإمام أبي محمد الحسن عليه السلام

- ٢٧ - وليد العصمة ٢٧٣
- ٢٨ - نظرية الأوساط في هدى أهل البيت عليه السلام ٢٧٧
- الأوساط في المجال الهندسي ٢٧٧
- الأوساط في النفس الانسانية ٢٧٧
- عموم النظرية في الحياة ٢٧٨
- الوحي ونظرية الأوساط ٢٧٩
- من هدى الإمام الحسن في النظرية ٢٨٠
- ٢٩ - صراع الحق والباطل ٢٨٣
- من أشكال الصراع بين الحق والباطل ٢٨٤
- لم يتنازل الحسن عن حقه ٢٨٥
- من سقطات التاريخ ٢٨٦
- ٣٠ - من مزالق التاريخ ٢٨٩
- حول آية التطهير ٢٩٠
- وآية القربى ٢٩٢
- صلح الامام الحسن عليه السلام ٢٩٤
- ٣١ - فطرة الله التي فطر الناس عليها ٢٩٧
- فطرة الله ٢٩٨

مع الإمام أبي الشهداء عليه السلام

- ٣٢ - حسين منى وأنا من حسين ٣٠٣

- ٣٠٤ الحسين شريك جده ﷺ
- ٣٠٦ عموم الهدى يتطلب عموم التربية
- ٣٠٩ ٣٣ - خلود الأيام في مقاييس الإسلام
- ٣٠٩ في استقبال الوليد
- ٣١٠ الخلود في الحق
- ٣١٢ ما موقفنا؟
- ٣١٥ ٣٤ - المصلح المنتظر
- ٣١٥ رسالات السماء والمصلح المنتظر
- ٣١٧ للأديان غاية واحدة
- ٣١٨ الإنسانية فطرت على التكامل
- ٣١٩ حديث الثقلين والمصلح المنتظر
- ٣٢٣ ٣٥ - حركات العلويين في التاريخ
- ٣٢٤ مفهوم السياسة في الإسلام
- ٣٢٥ سمات الحاكم الأعلى في الإسلام
- ٣٢٦ الإسلام ونشر الحق
- ٣٢٧ وحُرّف منهاج الإسلام؟
- ٣٣١ ٣٦ - الاجتهاد في الأحكام
- ٣٣٢ الاجتهاد ضرورة إنسانية عامة
- ٣٣٥ الاستغاثة بالغائبين والموتى
- ٣٣٧ العبادة عمل قصدي
- ٣٣٨ ظلال عقيدة التوحيد